

انسان و طبیعت

کتاب

کوهستان

« ۱۷۳۰ م - ۱۸۵۱ م »

د. نسیم مقار



الرحالة الأجانف فى السودان
« ١٧٣٠ - ١٨٥١ »

الطبعة الأولى - ١٩٩٥ -

مركز الدراسات السودانية

القاهرة - جمهورية مصر العربية

٣٥ شارع شامبليون شقة ١٢

تليفون / فاكس ٧٦٩٨٧٨

التجهيزات الفنية والطباعة
مركز الدراسات السودانية

د. نسيم مقار

الرحالة الأُجانب فى السودان

« ١٧٣٠ - ١٨٥١ »

المقدمة

تُعد كتب الرحالة الذين زاروا السودان خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من المصادر الهامة في تاريخ السودان الحديث. وبخاصة الفترة التي شهدت تاريخ السلطنات الوطنية التي قامت في الأقاليم السودانية. وهي سلطنة الفونج في سنار، وسلطنة الفور في دارفور، ومملكة تغلي في إقليم تغلي بغرب السودان، وتتميز بندرة الوثائق والمخطوطات المتعلقة بها. بخلاف الفترة التاريخية التي أعقبت امتداد الإدارة المصرية على السودان في عهد محمد علي باشا (١٨٢١ - ١٨٤٨م). إذ حظيت هذه الفترة التاريخية بزيارة عدد غير قليل من الرحالة الأوروبيين للسودان. وقد أمدنا أولئك الرحالة بالكثير من المعلومات والحقائق عن الأقاليم السودانية التي زاروها.

وقبل ذلك التاريخ كانت زيارة السودان تحوطها المخاوف والأخطار بسبب الضعف والانحلال الذي أخذ يدب في كيان سلطنة سنار وما صحب ذلك من قيام الفتن والحروب الداخلية التي ترتب عليها تعرض طرق القوافل لأخطار قطاع الطرق من بدو الصحراء، وبخاصة الطريق الشرقي عبر صحراء النوبة الذي يربط بين مصر والسودان. وهذا ما يؤكد المؤرخ الإنجليزي المشهور "بدج" Budge (*) إذ يقول "إن معلوماتنا عن السودان في العصر الحديث ندين بها إلى عدد من الرحالة الذين نجحوا في دخول أجزاء كبيرة منه على الضفتين الغربية والشرقية للنيل. ومن هؤلاء، كثيرون تجولوا في البلاد. إما للعمل أو للمتعة والسياحة. وكانوا يمتعون النفس بمشاهدة ما كانوا يمرون به أو يسمعون عنه دون تحليل أو القيام بأبحاث أركيولوجية. ويمكننا القول بوجه عام أن الأبحاث الأركيولوجية في السودان لم تبدأ حتى الربع الأول من القرن التاسع عشر. ولكن يجب أن نذكر بإختصار بأن أهم الرحالة الذين زاروا أو مروا بالنوبة والسودان قبل القرن التاسع عشر هو بونسيه Poncet الطبيب. وقد قام برحلته إلى أثيوبيا (الحبشة) عام ١٦٩٨، ومكث هناك سنتين...، ويضيف بأن "المعلومات التي يحدثنا بها (بونسيه) عن النوبة والسودان ضئيلة جداً. فقد كان هدفه من الرحلة ما هو ملاحظ زيارة اثيوبيا. ولو أنه مكث أكثر في السودان لأنتج عملاً قيماً". وقد جاء بعده الرحالة جيمس بروس James Bruce الذي يعتبر أبرز وأهم الرحالة الذين زاروا السودان في القرن الثامن عشر، والذي تبدأ دراستنا به (ص: ١٧).

ويلي "جيمس بروس" بقية الرحالة، وهم حسب الترتيب الزمني لرحلة كل منهم إلي بلاد السودان: الرحالة الإنجليزي "برون" Bronc الذي قام برحلته إلى دارفور بغرب

(*) Budge: The Egyptian Sudan Its History and Monuments vol. I, p.1-4.

السودان عام ١٧٩٢ - ١٧٩٦. ثم الرحالة محمد بن عمر التونسي الذي كانت زيارته لسلطنة درافور من عام ١٨٠٣ - ١٨١١ م. فالرحالة "جون لويس بوركهارد" Burchardt السويسري، وكانت رحلته إلى بلاد النوبة والسودان عام ١٨١٣ - ١٨١٤ م. الرحالة "وادنجتون" Waddington الإنجليزي الذي قام برحلة إلى النوبة عام ١٨٢٠ - ١٨٢١ م. مع حملة الأمير إسماعيل بن محمد علي باشا على السودان، وكان يرافقه زميله "هنبري" Hanbury. ثم الرحالة الإنجليزي "هوسكنز" Hoskins. الذي زار السودان عام ١٨٢٣ م. والرحالة الألماني الأمير "بكلر مسكاو" Puckler Muskau وكانت رحلته إلى السودان عام ١٨٣٧. ثم الرحالة الألماني "فرديناند قرن" Werne الذي قام برحلة إلى السودان الشمالي عام ١٨٣٩ - ١٨٤٠، وأخرى إلى السودان الجنوبي برفقة حملة البكباشي المصري سليم قبطان الثانية عام ١٨٤٠ - ١٨٤١ م للكشف عن منابع النيل الأبيض. وأخيراً الرحالة الإنجليزي "جورج ميللي" Melly. وقد جاء إلى السودان برفقة والدته وأخيه وأخته عام ١٨٥٠ - ١٨٥١ م.

والنهج الذي سرنا عليه في دراسة هؤلاء الرحالة في السودان خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر هو:

أولاً: التعريف بشخصية الرحالة والظروف التي أحاطت بقيامه برحلته إلى السودان، والهدف الرئيسي من وراء القيام بها.

ثانياً: إبراز القيمة العلمية والتاريخية للرحلة من واقع ما دونه في كتاب رحلته، بالإضافة إلى ما قد يشير إليه أحيانا بعض المختصين في هذا الشأن، وكذلك ما قد يرد على لسان بعض الرحالة في تعليقاتهم على مشاهدات الذين سبقوهم في زيارة هذه البلاد.

ثالثاً: عرض مشاهدات الرحالة ودراساته المختلفة في كل أقاليم السودان التي قدر له زيارتها.

وقد تناولنا تلك المشاهدات والدراسات بالعرض والتحليل والتعليق علي بعضها إذا اقتضي الأمر، بمقارنتها بأفوال غيره من الرحالة الذين سبقوه. أو بما ورد في بعض الوثائق والمخطوطات خاصاً بها الأمر. وقد التزمنا مبدأ الحيطة والموضوعية وأمانة الكلمة في كل جانب من جوانب هذه الدراسة الشاملة.

والخلاصة التي نخرج بها أن مشاهدات هؤلاء الرحالة ودراساتهم في الأقاليم السودانية، التي قدر لهم زيارتها خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، والتي سجلوها في كتب رحلاتهم، تعطى في مجملها صورة حية وواضحة لأحوال السودان الاقتصادية والاجتماعية والسياسية خلال تلك الفترة. إذ هي تتضمن معلومات وحقائق هامة عن نظم الحكم وطبيعة الحياة في السلطنات الوطنية التي قامت في الأقاليم السودانية قبل إمتداد الإدارة المصرية إليها عام ١٨٢٠ - ١٨٢١ م، وهي كما أشرنا سلفاً، سلطنة سنار وسلطنة

دارفور ومملكة تقلى، بالإضافة إلى (أن هذه المعلومات والحقائق) تتناول أحداثا أخرى هامة في تاريخ السودان الحديث في ذلك الوقت، ومنها قيام دولة المماليك في دنقلة عام ١٨١٢ - ١٨٢٠م، والصراع التاريخي الذي نشب بينهم وبين الشايقية الذين كانوا يمثلون أكبر قوة وطنية مناوئة في السودان الشمالي وقتذاك.

وأخيرا يعالج بعض هؤلاء الرحالة أكبر حدث شهده السودان في تاريخه الحديث في أوائل القرن التاسع عشر، وهو مجيء حملة الأمير إسماعيل بن محمد على باشا إلى السودان عام ١٨٢٠ - ١٨٢١م، وقيام حكم محمد على في السودان (١٨٢١ - ١٨٤٨م). وقد حظيت هذه الفترة في تاريخ السودان - كما سبق أن أوضحنا- بزيارة أكبر عدد من الرحالة الأوروبيين. وتمت دراسة النظم والقوانين التي وضعها محمد على لحكم هذه البلاد وأهمها النظام الضريبي ونظام الاحتكار، وتأثير مثل هذه النظم على السودانيين، وبصفة خاصة تأثيرها على الفلاحين. بل لقد عنى بعضهم مثل الرحالة الإنجليزي هوسكنز بعقد مقارنة على الطبيعة بين حال الفلاح في السودان، ولاسيما في بلاد النوبة، وحال الفلاح في مصر في ظل حكم محمد على. وقد قدر له الوقوف على أحوالهما بعد زيارته لكل من البلدين أثناء هذا الحكم.

وبصفة عامة كان يطيب للرحالة أثناء زيارتهم للسودان أن يقارنوا بعض ما يشاهدونه هناك بما سبق أن شاهدوه في مصر، كأن يقارنوا بين نظام الزراعة ووسائل رى الأرض في البلدين، مع الإشارة أحيانا إلى بعض أنواع الغلات الزراعية التي دخلت زراعتها إلى السودان عن طريق مصر بواسطة الجلابة. أو أن يقارنوا بين نظام بناء المساكن في بعض القرى السودانية، وما هو سائد في القرى المصرية. كذلك بالنسبة لمسميات بعض الأشياء في كل من مصر والسودان.

على أن أهم ما يلاحظ على المعلومات والحقائق التي دونها هؤلاء الرحالة في كتب رحلاتهم عن مشاهداتهم ودراساتهم في الأقاليم السودانية التي قدر لهم زيارتها، أنها قد جاءت في معظمها مبعثرة في أماكن متفرقة من كتاب الرحلة، وتحتاج إلى تنظيم وتنسيق تحت عناوين رئيسية بارزة، وهو ما حرصنا عليه في دراستنا، ليسهل على الباحث الإلمام والانتفاع بها على الوجه الصحيح.

والله ولي التوفيق،

د. نسيم مقار

القاهرة : سبتمبر ١٩٨٨.

الفصل الاول

الرحالة جيمس بروس (١٧٣٠ - ١٧٩٤)

ظروف رحلته إلى الحبشة وزيارته للسودان (١٧٦٩ - ١٧٧٢)

يعتبر جيمس بروس J. Bruce من أبرز الرحالة الذين زاروا السودان في القرن الثامن عشر. ولد في اسكتلندا في ١٤ ديسمبر عام ١٧٣٠ م. والتحق بجامعة أدنبرة لدراسة القانون، بيد أنه لم يوفق في دراسته الجامعية. عرض خدماته على الحكومة الإنجليزية فرفضت طلبه. ومن ثم بدأ حياة المغامرة والسياسة خارج بلاده. فقام برحلات مختلفة في بلاد أوروبا. وانتهى به المطاف إلى بلاد الشرق، حيث زار سوريا ومصر والحبشة والسودان.

وصل جيمس بروس إلى الاسكندرية في نهاية شهر يونيو عام ١٧٦٨ م. ثم انتقل عبر نهر النيل إلى قنا، ومنها سلك الطريق البري إلى القصير [ص: ١٨]، ومن القصير عبر البحر الأحمر إلى الطور. وتقدم إلى جدة حيث حصل على المساعدة التي مكنته من السفر إلى الحبشة. وغادر جدة إلى مصوع التي وصل إليها في ١٩ ديسمبر عام ١٧٦٩ م. وهناك واجه كثيرا من المصاعب والعراقيل من جانب الحاكم الذي اتهمه بحمل المرض إلى بلاده.

وأخيرا وصل جيمس بروس إلى أكسوم Axxium ثم وصل إلى مدينة غوندار Gondar واستقر هناك بعض الوقت حيث كون لنفسه كثيرا من الأصدقاء عن طريق خبرته ومهارته الطبية. وقد اختاره ملك الحبشة رئيسا على فرسان القصر وحاكما على إحدى المقاطعات [ص: ١٨، ١٩]. وتقديرا لخدماته منحه الملك مقاطعة يجرى فيها النيل الأزرق مما أتاح له فرصة الكشف عن منابعه، مما ستعرض له بشيء من الإيضاح في حينه.

على أنه سرعان ما نشبت الحرب بين ملك الحبشة وأعدائه، فقرر بروس العودة إلى مصر، وعرض الأمر على الملك الذي وافق على سفره إلى مصر شريطة أن يسافر عقب نهاية الحرب وعلى أن يعود من مصر في أسرع وقت ممكن برفقة أقربائه وأصدقائه ومعهم أسلحة إنجليزية [ص: ٢٠].

وما أن انتهت الحرب حتى غادر بروس الحبشة إلى مصر عن طريق القوافل من غوندار إلى سنار. ومنها سار بمحاذاة النيل الأزرق حتى الحلفاية التي تقع إلى الشمال من ملتقى النيل الأزرق بالنيل الأبيض. ومن الحلفاية تابع سيره شمالا بمحاذاة نهر النيل أيضا حتى شندی، وقد وصل إليها في ٤ أكتوبر عام ١٧٧٢. ثم سلك طريق القوافل الشرقي إلى

أسوان التي وصل إليها بعد أن واجه صعوبات ومتاعب كثيرة في الطريق^(١).
فأتيح له الفرصة لأن يمدنا ببعض المعلومات والحقائق عن أحوال هذه البلاد في
أثناء بها أو زيارته لها (عام ١٧٧٢).

عأن المعلومات والحقائق التي أمدنا بها الرحالة عن السودان رغم قلتها تبدو علي
جانب من الأهمية للباحث المتخصص في تاريخ السودان الحديث بالنسبة للفترة التاريخية
التي تناولها وهي النصف الأخير من القرن الثامن عشر.

أهمية زيارة بروس للسودان (عام ١٧٧٢):

لقد طبعت رحلات بروس في الحبشة والسودان في سبعة أجزاء في لندن عام ١٨٠٤م
تحت عنوان:

Travels to Discover the Source of the Nile in the Years 1768, 1769, 1770, 1771,

1772 & 1773. (7vols) London 1804.

وهي تتضمن الكثير من المعلومات والحقائق التي تلقى ضوءاً كبيراً على أخلاق
الاثيوبيين وعاداتهم وتقاليدهم، إلى جانب بعض نواحي الحياة الأخرى. أما فيما يتعلق
بالسودان فإن المادة العلمية التي أمدنا بها جيمس بروس فقد جاءت قليلة نسبياً. إذ من
الملاحظ أن زيارته للسودان قد جاءت عرضاً بعد انتهاء رحلته الطويلة في الحبشة وهو
في طريق عودته إلى مصر، ماراً ببعض المراكز والأقاليم السودانية مثل سنار وشندي
والنوبة. ويؤكد هذه الحقيقة المؤرخ الإنجليزي المدقق "بُدج" Budge في كتابه الشهير
عن السودان المصري، إذ يقول «إن معلوماتنا عن الحوادث التي وقعت في النوبة
والسودان في النصف الأخير من القرن الثاني عشر قليلة للغاية، إذ أنه لا يوجد لدينا
كتب باسم سائحين في هذه البلاد في تلك الفترة. ويشك في أن هناك عالماً أوروبياً زار
النوبة في وقت كانت فيه البلاد غير مستقرة وقدم لنا وصفاً لما كانت عليه الأحوال
وقتذاك. لذلك فإن دكتور "بوكوك" Pococke الذي سافر إلى مصر عام ١٧٣٧/١٧٣٨ لم
يحاول السفر جنوباً أبعد من أسوان، والسائح "نيبور" Niebuhr الذي زار مصر عام ١٧٦١
اكتفي بوصف القاهرة وسكانها بعناية ولم يقل شيئاً عن مصر العليا أو النوبة. والأوروبيون
الوحيدون الذين فروا بتلك البلاد. يبدو أنهم كانوا من القسس وقد مروا بها مع غيرهم
من المسافرين في الطريق إلى أو من الحبشة، ولكنهم كانوا يفضلون - إذا كان ذلك
ممكناً - عبور الصحراء المحرقة غرب النيل لمدة أسابيع يقاسون خلالها ندرة الماء عن
السير في طريق الصحراء الشرقية تحت رحمة قبائل البدو وجشعهم ونهبهم^(٢)، ومن بين
المعلومات والحقائق الهامة التي أمدنا بها الرحالة جيمس بروس عن السودان ما يرويه

1- Budge: The Egyptian Sudan. Vol. I, P. P. 17-18.

2- Budge: The Egyptian Sudan, vol. I, P. 22.

عن قيام حرب وقت زيارته هذه البلاد (عام ١٧٧٢) بين سلطنة سنار وسلطنة دارفور على إقليم كردفان، وأثر هذا النزاع على تجارة هذا الإقليم. كذلك حدثنا جيمس بروس عن طرق القوافل التي كانت تربط سنار بكل من الحبشة ودارفور وفازوا علي شندي والتاكا. وهو إن لم يتعرض لوصف هذه الطرق وصفاً شاملاً وتفصيلاً، كما فعل غيره من الرحالة الذين زاروا السودان فيما بعد، إلا انه قدر أطوالها وأبعادها بما تستغرقه الإبل عادة في قطعها من الأيام والساعات.

وقد وصف بروس مدينة شندی والمنطقة التي تحيط بها وقت زيارته لها عام ١٧٧٢ وصفاً ليس شاملاً ولكن على جانب من الأهمية إذ لا يوجد لدينا ما يدل على أن أحد الأوروبيين قد أتاحت له فرصة زيارتها من قبل إذ لشندی شهرة في تاريخ السودان الحديث لما وقع فيها بعد هذه الرحلة من حادث إحراق الأمير إسماعيل بن محمد على باشا (عام ١٨٢١) وما لحقها من دمار وخراب على يد الدفتردار صهر الباشا انتقاماً لما أصاب الأمير. والباحث حين يتعرض لهذا الحادث ومالحق شندی من الدمار والخراب بسببه يهمله أن يقف على ما كانت عليه هذه المدينة قبل وقوعه.

هذا ويكاد بروس أن ينفرد دون غيره من الرحالة الذين سبقوه في زيارة الحبشة بحديثه الدقيق والشامل عن ميناء مصوع الذي تناول فيه أهمية موقعه الجغرافي والظروف الطبيعية للمنطقة التي يقع فيها، وتأثيرها على طبيعة الحياة والمعيشة هناك، وخضوع مصوع للحكم التركي وأثره في مركزها التجاري، وأيضاً ما لحقها نتيجة اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند. كما تناول تجارة مصوع مع كل من الحبشة وجدة والسودان ومصر مما يعد صفحة هامة في تاريخ هذا الميناء قبل أن يضم إلى الإدارة المصرية في السودان تحت حكم محمد علي عام ١٨٤٦م. كذلك شرح لنا جيمس بروس في سجل سياحاته في الحبشة والسودان الظروف التي أحاطت باكتشافه لمنابع النيل الأزرق أثناء تواجده في بلاد الحبشة من واقع ما تحقق على يده في هذا الشأن.

وإذا كان الصواب قد جانبه في تفسير بعض الأحداث التاريخية لعدم قدرته الكافية على التحليل والاستنتاج [ص: ١ ، ٢] فإن ذلك لا يقلل بحال من الأحوال القيمة العلمية لسياحات الرحالة بروس في الحبشة والسودان.

مشاهدات جيمس بروس في السودان

مملكة سنار (عام ١٧٧٢):

لقد آمدنا بروس بمعلومات وحقائق هامة عن مملكة سنار وقت زيارته لها عام ١٧٧٢، تناولت حدود المملكة وإمتدادها، ونظام الحكم في المناطق التي خضعت لنفوذها، وطبيعة المنطقة التي تقع فيها مدينة سنار، والجهات المختلفة التي يوجد فيها معدن الذهب ووسائل الأهالي في استخراجها، وأهمية موقع فازوغلي التي اشتهرت بصفة خاصة بوجود هذا المعدن في مرتفعاتها. كما تناول الحديث عن بعض الحيوانات البرية التي تعيش في هذه البلاد وأهم منتجاتها ذات القيمة التجارية التي تجد طريقها من سنار إلى القاهرة. كذلك حدثنا بروس عن أهمية موقع سنار الجغرافي كملتقى لعدد من الطرق الرئيسية التي كانت تربطها بالحبشة ومصر وأقاليم السودان الأخرى.

يقول بروس في وصف حدود مملكة سنار وامتدادها شمالا وجنوبا ونظام حكم المناطق التابعة لها:

"إن ملك سنار يمتد نفوذه على جانبي النيل الأزرق وهذه البلاد علي كلا الجانبين يستخرج منها الذهب ويحكمها شيوخ يختارهم ملك سنار أو وزيره. وهم أقرباء الملك أو الشخصيات الكبيرة في بلاطه، ويسمون الفونج. وبين النيل الأزرق والنيل الأبيض يوجد أيضا الذهب والعاج وغيره. والسكان من النوبة والوثنيين. وهاتان المنطقتان أغنى جهات المملكة، وهما في قبضة الأخوين عدلان وعبد الخالق اللذين قتلا ملكين (من ملوك سنار)، وأبقيا الملك الثالث على قيد الحياة مجردا من مصادر قوته وموارده (١). ويقول عن أهمية فازوغلي وأماكن وجود الذهب في مملكة سنار "إن فازوغلي تعتبر المركز الرئيسي في إقليم سنار. ومن فازوغلي يأتي الذهب. وتقع فازوغلي بين النيل الأزرق والنيل الأبيض." [ص: ٨٤، ٩١] ويضيف "أن فازوغلي بلاد جبلية والأماكن التي يوجد فيها الذهب تقع بين الأراضى الجبلية. وأهالي تلك المنطقة يؤكدون أن جميع الذهب يوجد في التربة الحمراء، وحيث وجدت التربة الحمراء وجد الذهب، وحيث لا يوجد هذه التربة الحمراء لا توجد ذهب. وهو يوجد بوفرة في هذه الجهات في المجارى التي تتكون عقب سقوط الأمطار." [ص: ٩١، ٩٥، ٩٧، ٩٩]

ويستطرد قائلا "والذهب يوجد أيضا بجوار النهر، ولكن بكميات قليلة. وفي كل مكان يستخرج منه يكون مختلطا بالتربة الحمراء. ويغسل تراب الذهب في أوان لفصله.

(١) James Bruce. vol. 7, P. 37.

ولا يوجد الذهب فى مناجم ويستخدم العبيد هنا فى استخراجها. [ص: ٩٧]

هذا عن حدود مملكة سنار الجنوبية. أما عن حدودها الشمالية فيذكر بروس "أن تاكاكى Takaki مركز متسع يقع إلى شمال بربر، وهى آخر حدود مملكة سنار الشمالية. وهى خاضعة لود عجيب ويرسلون إليها شيخاً. وهم من الجعليين من قبيلة الرباطاب ويمتلكون خيولا كثيرة. كما تتوافر فى هذه الجهات أشجار النخيل على جانبى النيل. وهم يزرعون الذرة والقمح، ويستخدمون السواقي فى رى الأراضى الزراعية. ولكن المحصول الرئيسى هو التمر، ويمثل سلعة تجارية. ولا تسقط الأمطار فى بلادهم." [ص: ١٠٥] أما عن ثروة إقليم سنار من الحيوانات البرية التى تتمثل منتجاتها قيمة تجارية، فيحدثنا الرحالة جيمس بروس عن وفرة الفيلة والخرتيت والزراف فى مدينة فازوغلى [ص: ٨٩]. ويضيف: "أن ريش النعام سلعة تجارية ترسل من سنار إلى القاهرة."

وعن أهمية موقع سنار الجغرافى يصف لنا الرحالة الطرق التى تربطها بالحبشة ومصر وأقاليم السودان الأخرى بقوله "هناك طريقان من رأس النيل (بالحبشة) إلى سنار: أحدهما من رأس الفيل إلى بيله Peylla غربا، والطريق الآخر يتبع مجرى نهر جوانجيو Guangue أى شمالا بغرب عن طريق طيوه Tewa ورشيد Rashid وإنجيديمه Engedaima [ص: ٨٤] هناك أيضا طريق من دارفور يتصل بطريق سنار إلى مصر عند سليمة Selyme". [ص: ٨٥]

ولكنه لم يصف الطرق المختلفة التى تربط سنار بأقاليم السودان الأخرى وبالحبشة وبمصر وصفاً تفصيلياً كما جرت عادة بعض الرحالة الأوربيين الذين زاروا السودان، إلا أنه حرص على أن يحدد الزمن الذى يستغرقه المسافر على الإبل فى قطع الطريق بالأيام وأحيانا بالساعات. إذ يقول "إن المسافر من سنار إلى التاكا يستغرق تسعة أيام. ومن التاكا إلى قوز أربعة أيام. ومن قوز إلى سواكن أربعة عشر يوماً، باعتبار أنه يقطع من ١٤ إلى ١٦ ميلاً فى اليوم. ومن سنار إلى فازوغلى سبعة أيام إذا كان الجمل غير محمل، واثنى عشر يوماً إذا كان الجمل محملاً. ومن سنار إلى شندى ستة أيام." [ص: ٩٠، ٩٣، ٩٥]

مدينة شندى (عام ١٧٧٢):

يصف الرحالة جيمس بروس مدينة شندى وقت زيارته لها عام ١٧٧٢م وصفاً عاماً يتناول فيه موقعها الجغرافى، والقبائل التى تقطنها. وطبيعة الأراضى التى تحيط بها، ونظم ريها واستغلالها فى الزراعة بقوله "تقع شندى بالقرب من نهر النيل على مسيرة ميلين من الشاطئ، وهى على مسيرة ثمانية أيام من بربر عن طريق كورتى. وتقطنها ثلاث قبائل من الجعليين هى الأماراب والرحاراب والشكرية. وبين مدينة شندى ونهر النيل أراض

زراعية تروى عادة بالسواقي وأيضاً في موسم الفيضانات العادية عندما تغطي مياه النهر السهل لفترة قصيرة. أما في موسم الفيضانات غير العادية حيث تغطي المياه الأراضي لفترة طويلة فيزرع القمح في شندى. لذلك فإن القمح يرد إلى شندى عادة من حلفانية" [ص ٩٨]

مدينة الدر تحت سطوة الإنكشارية (عام ١٧٧٢) :
يصف الرحالة جيمس بروس الأوضاع في مدينة الدر وقت زيارته لها (عام ١٧٧٢) وصفاً موجزاً يشير فيه إلى الانكشارية وسوء معاملتهم للقوافل التي تمر بتلك البلاد الواقعة تحت سطوتهم بقوله "إن الانكشارية الذين في الدر عديمو الذمة ودائماً يسرقون القوافل التي تحمل إليهم السماق Sumach والعبيد". [ص ٩٥]
ويقارن جيمس بروس بين أخلاق هؤلاء الانكشارية وأخلاق الكنوز المجاورين لهم قائلاً "وأما الكنوز الذين يقطنون على جانبي النهر فهم أكثر ثقة وشرفاً في معاملاتهم. وهنا تلجأ القوافل إذا كانت تخشى أن تعامل معاملة سيئة في الدر وإبريم". [ص ٩٥]

دارفور وكردفان (عام ١٧٧٢م) :
يقول بروس "إن دارفور بلاد غنية بالمواد الغذائية المختلفة، وتكثر فيها الماشية والإبل". [ص ٨٥]

ثم يحدثنا بالتفصيل عن التكارنة الذين يعيشون في هذه البلاد، إذ وصف ميولهم وخصالهم، ومدى تمدنهم إذا ما قورنوا بشعوب السودان الأخرى، كما وصف أخلاقهم وطباعهم وصفاً دقيقاً يقول فيه "والتكارنة يميلون للتجول أكثر من أي شعب آخر. لذلك فهم منتشرون في إفريقية وآسيا. ويعرفون بعض القراءة. وهم من المسلمين المتشددين. والفقراء منهم يقومون - وهم في طريقهم إلى مكة لأداء فريضة الحج - بكتابة التعاويذ التي تحمي الإنسان من الحسد والخوف، وتجعله موفقاً في حجه، ولا تؤثر فيه الأعيرة النارية" [ص ٨٥]. ويضيف "وهؤلاء التكارنة أكثر شعوب السودان تمدناً. وهم يميلون إلى معاشره الغرباء. وهذه ظاهرة لا تجدها في الشعوب الإفريقية الأخرى". [ص ٨٥]
ويضيف "بأنهم مشهورون بالعدو والخيانة أكثر من غيرهم". [ص ٨٥]
يقول بروس في وصف المنطقة التي تقع شمال كردفان "إنه على مسيرة تسعة أيام شمال كردفان تقع حرازة Harraza. وهي منطقة صخرية ليست على درجة كبيرة من الارتفاع. وتوجد بها جماعة النوبا. وهم يعيشون على هيئة معسكر تحيطه النباتات الشوكية. ويفرضون ضريبة على جميع القبائل التي تحصل على الماء". [ص ٩٥، ٩٦]
ثم يحدثنا عن الجهات التي تقع إلى الجنوب من كردفان فيصفها بقوله "إنه إلى الجنوب من كردفان على مسيرة ثمانية أيام والبعض يقول ستة أيام، والبعض الآخر يقول

عشرة أيام تقع مرتفعات داير Dyre وتقلّى Tegala . وهذه المرتفعات تقطنها قبائل مختلفة في حالة حرب دائمة مع السلطات الحاكمة في كردفان . ومنها يأتي الرقيق . كما يوجد بها كثير من الذهب وسن الفيل وغيره" . [ص ٩٦] أما عن المنطقة التي تقع على النيل الأبيض القريبة من كردفان ، فيقول : "إن النيل الأبيض (عند الأيس) يبلغ ضعف اتساع مجرى النيل ، وهو عميق جداً في مجراه . وقبيل اتصاله بالنيل الأزرق توجد عدة جزر يعودون إليها في فصل الجفاف . ومن ثم يقومون بنهب وسلب المنطقة المجاورة لهم" . [ص ٩١] أما عن ثروة إقليم كردفان المعدنية فيؤكد بروس عدم وجود معدن الذهب في هذا الإقليم ، وإنما يأتي الذهب إلى كردفان من الجنوب مستندا في تأكيد ذلك على ما قاله الرحالة "براون" في هذا الشأن ، إذ يقول "لا يوجد ذهب في كردفان ، وإنما يأتيها من مكان يقع إلى الجنوب منها ، ويسمى شيجوم Shygoom ويبدو أنه شيبون Sheibon كما جاء في سياحة براون" . [ص ٩٧]

الحرب بين دارفور وكردفان :

على أن أهم ما أمدنا به بروس من معلومات عن هذين الإقليمين هو ما يتعلق بأخبار الحرب التي كانت قائمة بين دارفور وكردفان وقت زيارته للسودان عام ١٧٧٢م . إذ يقول "لقد جاءت الأخبار في أول أغسطس عام ١٧٧٢ أن أهل دارفور زحفوا بجيش للاستيلاء على كردفان ، وكانوا ١٢ ألفاً من الفرسان وعددا لا حصر له من المشاة . وأما كردفان فكان بها حوالي ١٥٠٠ من الفرسان بقيادة محمد أبو خالق الذي كان من المتوقع أن يهرب إلى سنار إذا لم يحاصر" . [ص ٩٨] ويتحدث عن تأثير الحرب على تجارة كردفان فيقول "والقافلة التي كانت تحمل السلع النفيسة من كردفان نهبت جميعها عند النيل الأبيض أو بالقرب منه على أيدي بني جرار وهي قبيلة من بني فزارة" . [ص ٩٨] ويستنرد قائلاً "وقد عسكر الفور عند ريل جنوب غرب مدينة الأبيض (عاصمة كردفان) على مسيرة سبعة أو ثمانية أيام منها ، حيث يتوافر الماء في ريل" . [ص ٩٨]

اكتشاف منابع النيل الأزرق (عام ١٧٧٢) :

لقد أتاحت للرحالة بروس فرصة نادرة لاكتشاف منابع النيل الأزرق عندما توطدت علاقته بملك الحبشة في أثناء رحلته في هذه البلاد ، فمنحه قرية جيش Gish والأراضي المحيطة بها إلى منابع نهر "أباي" Abai وهو المعروف في بلاد السودان باسم النيل الأزرق ، وذلك تقديراً لخدماته وحسن أدائه ومهارته فيما أوكل إليه من أعمال في أثناء وجوده في الحبشة (١) .

1- James Bruce: Travels to discover the source of the Nile Vol. 7. P. 89.

وفي قرية "جيش" سيطرت على بروس فكرة الوصول إلى منابع هذا النهر. وفي صيف عام ١٧٧٠ لم يضيع فرصة التقدم إلى هذه المنابع. فأخذ يتابع مجرى النهر حتى وصل إلى بقعة عشبية وشاهد ينبوعين يتدفق منهما الماء. وقد كان سروره عظيماً عندما وقع نظره على هذا المنظر الطبيعي، إذ اعتقد أنه اكتشف حقيقة منابع نهر النيل، وأنه شاهد بعينه وما لم يتيسر لأحد الأوروبيين مشاهدته من قبل. [ص ١٩، ٢٠] ثم شرب بروس نخب صبة ملكه وأصدقائه الغائبين من ماء الينابيع المتدفقة أمامه، واحتفل باكتشافه بعمل وليمة لجميع أهالي المنطقة استمرت خمسة أيام. [ص ٢٠] على أن ما قام به الرحالة جيمس بروس لم يترتب عليه في واقع الأمر سوى متابعة أهم رافد من روافد نهر النيل وهو النيل الأزرق حتى منبعه. فقد كان يعتقد اعتقاداً راسخاً أنه منبع نهر النيل كله. وأما النيل الأبيض فكان يرى قلة أهميته، ولم يتخيل قط أنه نهر النيل الرئيسي. [ص ١٩، ٢٠، ٢١]

ومن هنا كان اهتمام مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر في عهد محمد علي بالكشف عن منابع النيل الأبيض، عندما أرسل هذا الوالي ثلاث حملات بقيادة البكباشي المصري سليم قبطان إلى أعالي النيل في الفترة من ١٨٢٩ - ١٨٤٢ للكشف عن منابع هذا النهر. وقد وصلت الحملة الثالثة إلى أقصى الجنوب عند خط عرض ٤٢° ٤' شمال خط الاستواء، بعد أن عانت المشقات والأهوال وفقدت الكثير من رجالها. مما تعد صفحة مشرفة من جهود مصر الصادقة في الكشف عن منابع نهر النيل بخاصة ومجال الكشوف الجغرافية بعامة. (١)

ميناء مصوع (عام ١٧٦٨ - ١٧٧٢) :

ميناء مصوع من الموانئ الهامة علي ساحل البحر الأحمر الغربي. وهو من المنافذ الرئيسية لتجارة شرق إفريقية وبخاصة الحبشة مع البلاد الآسيوية مثل الهند وشبه الجزيرة العربية. كما أن بعض تجارة السودان مع هذه البلاد الآسيوية كانت تمر بهذا الميناء. قد قام الرحالة جيمس بروس بدراسة هامة ومستفيضة لميناء مصوع في أثناء رحلته في الحبشة (عام ١٧٦٨ - ١٧٧٢) وقد دخل هذه البلاد عن طريق مصوع. وقد تضمنت دراسته طبيعة موقع مصوع الجغرافي، وإزدهار تجارتها قبل أن تقع تحت الحكم التركي، وأثر هذا الحكم علي تجارة الميناء. كما تناول أثر كشف طريق رأس الرجاء الصالح إلي الهند علي مركز مصوع التجاري. كذلك أوضح طبيعة الحياة والمعيشة في مصوع، ومدى إرتباطها بالحبشة، وشرح حقيقة وضع حاكم مصوع (نائب مصوع) بين ملوك الحبشة المجاورة له والأتراك في ولاية جدة التابع لها.

١- [ص ١٩، بديج Budge]

طبيعة موقع مصوع الجغرافي :

يقول بروس: "إن مصوع معناها ميناء الرعاة، وإن اسمها مشتق من الأصل المصري القديم. فكلمة «ما» معناها المكان وكلمة «صوه» أو «صو» تعني الراعي". ويصف موقع مصوع الجغرافي بقوله: "مصوع جزيرة صغيرة قريبة من شاطئ الحبشة. لها ميناء ممتاز، وعمق المياه هناك يكفي لرسو السفن من أي حجم. ولذلك فهي في أمان إذا ما هبت الرياح. وقد أخذت مصوع اسمها من اسم مينائها. والجزيرة نفسها صغيرة جداً، إذ يبلغ طولها ثلاثة أرباع الميل وعرضها نصف ميل". ويصف منشآت مصوع " بأن المساكن تشغل ثلث مساحتها. والثلث الثاني تشغله أحواض المياه التي تستقبل مياه الأمطار. والثلث الأخير مخصص لدفن الموتى". [الجزء الرابع، ص ٢٠١]

أثر الحكم التركي علي مركز مصوع التجاري :

ويحدثنا عن خضوع مصوع للحكم التركي، وأثره في مركزها التجاري فيقول: "لقد كانت مصوع إحدى المدن الواقعة علي ساحل البحر الأحمر الغربي التي سقطت عقب الفتح العربي تحت الحكم التركي علي يد سنان باشا في عهد السلطان سليم إمبراطور القسطنطينية. وفي ذلك الوقت كانت مصوع مركزاً تجارياً كبيراً يسهم في تجارة الهند مع مواني البحر الأحمر الأخرى قرب مدخل المحيط الهندي. وصادراتها كبيرة من السلع التي كانت تأتيها من المناطق الجبلية التي تقع خلفها. وفي جميع عصورها لم تكن كريمة وبشوشة مع الغرباء. والسلع الرئيسية التي كانت تصدرها الذهب والعاج والفيلة وجلود الحيوانات والرقيق ذات القيمة الكبيرة، فضلاً عما يوجد علي شواطئ مصوع من اللؤلؤ الذي يمتاز بكبر حجمه". ويستطرد بروس قائلاً: «وقد استمرت مصوع مركزاً تجارياً هاماً، كما كانت التجارة مزدهرة بها قبل أن تسقط فجأة تحت إستبداد الأتراك، وقبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح بضع سنوات وتأسيس مراكز برتغالية في الهند. وقد كان ذلك تحطيماً لتجارة البحر الأحمر».

ويختم "جيمس" حديثه عن أثر الحكم التركي وكشف طريق رأس الرجاء الصالح إلي الهند علي مركز مصوع التجاري بقوله: "وهكذا وقعت علي مصوع كارثتان كارثة تحول التجارة إلي طريق رأس الرجاء الصالح وكارثة الحكم التركي".

نظام الحكم التركي في مصوع :

أما عن النظام الذي وضعه الأتراك لحكم مصوع فيقول: "إن أول حكومة تركية في مصوع كانت تتمثل في الباشا الذي كانت القسطنطينية تبعث به إلي هناك. ومنذ ذلك الوقت بدأت محاولات الأتراك بصفة مستمرة وبنقطة كبيرة لفتح الحبشة، ولكنها باءت

بالفشل. ومن ثم فقدت مصوع أهميتها كحصن ومركز تجاري". ويستطرد في وصف نظام الحكم التركي في مصوع قائلاً: ولقد كانت قبيلة بلوي - وهم من الرعاة وتقتن ساحل البحر الأحمر أسفل مرتفعات حباب عند خط عرض ١٤ - أكبر عون للأتراك الفاتحين. ومكافأة لهم علي هذه المعاونة، منح الأتراك زعيمهم حكم مصوع المدينة باسم «نائب مصوع». وعندما سحب الباشا من مصوع أصبح هذا النائب بمثابة ملك علي المنطقة. وقد حصل من الباب العالي العثماني علي فرمان بذلك نظير دفع جزية سنوية للباب العالي".

ويضيف بروس إلي ذلك قوله: "إن الباب العالي قد ترك جماعة «حامية» من الإنكشارية في «جزيرة مصوع» وكانوا يحصلون علي مرتباتهم من القسطنطينية. وقد ظل الحال كذلك حتي بعد أن تزوجوا مع الأهالي وأنجبوا أطفالاً، إذا استمر هؤلاء يحصلون من القسطنطينية علي ما كان يحصل عليه أبائهم من قبل. ونتيجة لتزواجهم مع الأهالي، أصبحت تربطهم بهم صلات القربي، وصاروا مثلهم من رعايا نائب مصوع يخضعون النفوذ".

علاقة نائب مصوع بكل من الحبشة وجدة:

ويوضح لنا "بروس" حقيقة العلاقة بين نائب (حاكم) مصوع وباشوية جدة التركية التابع لها، ومدى تأثيرها بتدهور قوة الأتراك في شبه الجزيرة العربية من ناحية، وإزدياد قوة الأحباش المجاورين له من ناحية أخرى بقوله: "وعندما وجد نائب مصوع بعد المسافة التي تفصله عن الأتراك الموجودين في شبه الجزيرة العربية علي الشاطئ الآخر للبحر الأحمر الذين أخذت قوة حامياتهم في الإضمحلال، الوقت الذي أخذ يحس فيه بقوة أعدائه وجيرانه الأحباش، أخذ يفكر في تأمين وحماية نفسه بالتقرب نحو أولئك الذين أصبح تحت رحمة قوتهم. ومن ثم اتفق «نائب مصوع» مع ملك الحبشة أن يدفع له نصف العوائد الجمركية في ميناء مصوع، مقابل أن يتركه مع حكومته دون إزعاج، ذلك أن مصوع «لحكم ظروفها الطبيعية» محرومة من المياه والمواد الغذائية ما لم تأتيها من الحبشة الجبلية". ويشرح الظروف الطبيعية التي جعلت مصوع تعتمد في معيشة أهلها علي الحبشة بقوله: «إنها ترجع إلي طبيعة المنطقة التي توجد فيها، إذ أن الشريط المنبسط من الأرض الذي يقع خلفها والذي يسمى صحراء السحار لا يقيم فيها السكان إلا فترة معينة من السنة من شهر نوفمبر إلي شهر أبريل. وهم قبائل رعوية مختلفة هي الطورة والهزورتا والشبحو والدوبا. وهؤلاء جميعاً يسوقون قطعانهم إلي الحبشة بالقرب من المرتفعات عندما تسقط الأمطار علي هذه الجهات في الستة شهور الأخرى. وهكذا لا يبقون هم وقطعانهم طويلاً في سحار أو بلاد نائب مصوع، وإنما بين أيدي الأحباش،

وبخاصة حاكم تيجرا وبهارنجاش. لذلك فإن الأحباش في إمكانهم أن يمنعوا أي مؤون من أن تصل إلي مصوع من أية جهة دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة وتكاليف إعداد جيش للزحف عليها ومحاصرتها".

ويوضح بروس أثر تلك الظروف الطبيعية لمصوع وإنعكاساتها علي سياسة نائب مصوع تجاه كل من باشا جدة التابع له وملك الحبشة الذي يجاوره، واستغلال ظروف وأحوال كل من الرجلين لصالحه فيقول: "وعندما نمت الصداقة مع الحبشة وأخذت قوة الأتراك في بلاد العرب تضمحل يوماً بعد يوم بدأ موسي نائب مصوع ينسحب تدريجياً من دفع الجزية لباشا جده حتي أمتنع عن دفعها نهائياً للباشا الذي كان مرتبطاً بالباب العالي. وبذلك أصبح الفرمان «السلطاني» شكلياً دون دفع جزية، اللهم إلا بعض الهدايا البسيطة وفي الأوقات العصيبة التي تتعرض لها الحبشة، أو عندما تتولي الأمور في «تيجرا» حكومة ضعيفة، يسحب نائب مصوع نفسه من جميع إلتزاماته نحو باشا جدة باسم الجزية أو نحو ملك الحبشة في نصيبه من الرسوم الجمركية".

ويستطرد جيمس بروس في وصف الأوضاع السياسية لمصوع وقت زيارته للحبشة (١٧٦٨ - ١٧٧٢) قائلاً: "ثم حدث إنقلاب كبير في مملكة الحبشة، إذ أصبح ميشيل سيد الموقف. إلا أن نائب مصوع لم يعترف بها الإنقلاب، وكان في ذلك مخطئاً. لذلك هدده ميشيل «زعيم الإنقلاب في الحبشة» بإرسال حملة إلي مصوع لتخريبها حتي تصبح صحراء مثل قفار «صحراء سحار» ونظراً لأن ميشيل كان معروفاً في حياته بأنه يفي دائماً بوعوده التي من هذا القبيل. فإن الكثيرين من التجار هاجروا من مصوع إلي بلاد العرب، وبعضهم هاجروا إلي دوباروة، وهي مدينة كبيرة علي حدود نهارا نجاشي. ومع ذلك فإن نائب مصوع لم يظهر عليه أي نوع من الخوف. كما لم يرسل بنساً واحداً لملك الحبشة أو لباشا جدة. وقد أستطاع باشا جدة أن يتصل بميشيل «ميخائيل» يطلب منه مساعدته علي نائب مصوع لدفع الجزية. وفي الوقت نفسه أرسل إلي نائب مصوع يخبره بأنه لن يكتفي بذلك فحسب، وإنما سوف يصدر أوامره في بلاد العرب في العام القادم بمصادرة البضائع التي يأتي بها التجار من طرفه إلي هذه البلاد والقبض عليهم. وأرفق بهذا التهديد فرمان القسطنطينية يطلب فيه أن تعود الجزية وكذلك الهدايا".

طبيعة الحياة وظروف المعيشة في مصوع:

يصف طبيعة الحياة وظروف المعيشة في مصوع وقت زيارته لها (عام ١٧٦٩) بقوله: "رغم أن مصوع تقع عند مدخل الحبشة وهي بلاد جميلة، إلا أن متطلبات الحياة فيها كثيرة جداً، وغير متوفرة. ويعزي ذلك إلي صعوبة وخطورة نقل السلع المختلفة عبر صحراء سحار التي تقع بين أركيكو ومرتفعات الحبشة، فضلاً عن تكاليف نقلها والرسوم

التي يفرضها نائب مصوع علي كل سلعة يعجب بها باسم الجمارك . ومن ثم يقل ربح البائع بحيث لا يتناسب مع أتعاب ومخاطرة نقلها . ويقول عن نظام التعامل بين سكان مصوع : "إنه مما تجدر ملاحظته أن أنواع العملة المتداولة في مصوع هي ذاتها المتداولة علي ساحل بلاد العرب المقابل لها . ويرجع ذلك إلي العلاقة التجارية بينهما . وكلها تقدر بقيمة دولار البنديقية . أما الخرز من مختلف الألوان الصحيح منه والمكسور فيجري التعامل به كعملات صغيرة . وأما الدولار الأستامبولي فغير متداول هنا . وأولئك الذين يمتلكون هذه العملة « التركية » فإنهم لا يستطيعون تصريفها إلا للنساء اللاتي يستخدمونها كحلية تعلق في آذانهن أو حول رقابهن وحول رقاب أطفالهن ."

التجارة في مصوع :

أما فيما يختص بالتجارة في مصوع فيحدثنا عنها بقوله : "إن هنالك تجارة كبيرة تصل إلي مصوع رغم العوائق ، وضيق الجزيرة ، وقسوة الحكومة وظلمها . بيد أن التجارة يغلب عليها طابع البداوة . ولا تقوم إلا علي رؤوس الأموال الصغيرة . وأما البضائع الثمينة التي تحتاج إلي رؤوس أموال ضخمة فإننا لا نجد لها هنا ، إذ لا يخاطر بها أصحابها خشية أن تقع في يد ظالم قوي عند نقلها من مكان إلي آخر ."

ويذكر بروس أنواع البضائع التي ترد إلي مصوع مشيراً إلي البلاد التي كانت تأتي منها قائلًا : " والبضائع التي تصل من الشاطئ العربي هي المنسوجات القطنية الزرقاء وكذلك القرمزية المسماة أو قرمسييس ، والملابس الجميلة من مختلف أسواق الهند ، والأقمشة القطنية الخشنة من اليمن ، والقطن غير المغزول في بالات ، والخرز الزجاجي من البنديقية ، والمشروبات والمرايا والكحل . والسلع الثلاث الأخيرة تأتي بمقادير كبيرة جداً من القاهرة . وهي تصل أولاً إلي جدة في قوارب البن ، ومن جدة في قوارب صغيرة إلي ميناء مصوع . والنحاس القديم يمثل أيضاً سلعة مربحة وترد منه مقادير كبيرة . والجلد ومختلف القبائل التي تعيش غرب جوندار يلبسون قلائد من هذا النحاس . ويقال إنه بالقرب من بلاد الجونجا وجوبا يباع النحاس بوزنه ذهباً ."

ويضيف بروس إلي ذلك " أن البنيان (١) كانوا في وقت مضي رؤساء التجار في مصوع . ولكن عددهم أصبح قليلاً الآن بحيث صاروا ستة أشخاص . وهم صناع فضة يقومون بصناعة الحلقات وأدوات الزينة الأخرى الخاصة بالنساء في هذه المنطقة . وهم يقومون أيضاً بفحص الذهب . وبرغم ذلك يعيشون حياة فقيرة ."

١- اسم يطلق في الشرق علي الهنود .

\مصادر للبحث

اولا - المصدر الأصيل

James Bruce: Travels to Discover the Source of the Nile, in the Years 1768,1769,1770,1771,1772. (7vols.) London 1804.

ثانيا- المصادر الثانوية

Budge.E.A.W. The Egyptian Sudan. vol. I. London 1907.

- نسيم مقار (دكتور): البكباشى المصرى سليم قبطان والكشف عن منابع النيل

القاهرة عام ١٩٦٠

- نسيم مقار (دكتور): الأسس التاريخية للتعامل الاقتصادى بين مصر والسودان

القاهرة عام ١٩٨٥



الفصل الثانى

الرحالة وليم جورج برون Broune (١٧٦٨ - ١٨١٣)

ظروف رحلته إلى السودان ودوافعها الرئيسية (١٧٩٣ - ١٧٩٦):

الرحالة وليم جورج برون Broune إنجليزي الأصل، اشتهر كرحالة قام برحلات في بلاد الشرق (١). فبعد أن أتم دراسته في جامعة أكسفورد بانجلترا قام برحلة إلى سوريا ومصر عام ١٧٩٢م، حيث تجول في ربوع هذه البلاد ومدنها المختلفة ووقف على أحوالها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. ومن مصر رغب في السفر إلى سنار بشرق السودان ومنها إلى الحبشة. وكان يهدف من وراء ذلك تحقيق هدفين رئيسيين: أحدهما علمي وهو تحقيق ما ذكره الرحالة الإنجليزي جيمس بروس بأن النيل الأزرق هو نهر النيل الحقيقي. كذلك كان في نيته بعد وصوله إلى سنار أن يعرج على إقليم دارفور. وقد علم أن بعض تجار الرقيق في هذا الإقليم يمدون أحيانا رحلاتهم التجارية إلى البلاد الجنوبية على مسيرة أربعين أو خمسين يوماً من عاصمتهم الفاشر. وكان برون تواقاً إلى السفر معهم إلى هذه الجهات الاستوائية في الجنوب التي لم يقدر لرجل أبيض زيارتها من قبل. وفي الوقت نفسه يتبع مجرى النيل الأبيض حتى منبعه. وقد كان يعتقد صواباً أنه نهر النيل الحقيقي (٢). أما الهدف الثاني الذي يهدف إلى تحقيقه من وراء زيارة سنار والحبشة، فهو مادي صرف. فقد سمع بغنى هذه البلاد بالذهب والرقيق، فضلاً عن النباتات ذات القيمة الطبية، وكان راغباً في أن يكون ثروة منها. كذلك كان يرغب من وراء القيام برحلة إلى الحبشة أن يلحق ببعض التجار الإنجليز من بني جلدته الذين كانوا قد نزلوا في مخا على ساحل اليمن المطل على البحر الأحمر عسى أن يفيد من نشاطهم التجاري في هذه الجهات (٣).

وكانت رغبة برون في أن يسلك في رحلته إلى سنار الطريق الشرقي عبر صحراء العتباى أو العتمور الذي اعتادت أن تسلكه قوافل التجارة بين مصر وسنار. ولكن حدث أن شبّ نزاع بين المماليك الذين كانوا يحكمون مصر العليا وحاكم إبريم في بلاد

(١) يلاحظ أن برون بعد رجوعه من رحلته في إقليم دارفور عام ١٧٩٦م تابع رحلاته في الشرق إلى بلاد البحر الأبيض المتوسط وتركيا في الفترة من عام ١٨٠٠ إلى عام ١٨٠٢م، قد قام عام ١٨٠٢م برحلة إلى بلاد التتار مخترباً بلاد الأناضول وأرمينيا وإيران، حيث قتل في تبريز عام ١٨١٣م.

(2) Hill, R. L. Autographical dictionary of the Anglo Egyptians Judah Oxford 1951.

(3) Broune: Travels in Africa P 20.

النوبة، وقامت الحرب بين الطرفين عام ١٧٩١. ووقفت حركة القوافل تماما بين القطرين، ولم يكن يسمح لأحد بالمرور من مصر إلى النوبة. يضاف إلى ذلك نشوب الحرب الأهلية في مملكة سنار في ذلك الوقت، نتيجة عزل ملكها الأخير وقتله. لذلك عدل برون عن استخدام الطريق الشرقي من مصر إلى السودان، وقرر أن يسلك الطريق الغربي (طريق الأربعين) إلى دارفور، على أمل أن يحظى بمقابلة سلطانها عبدالرحمن الذي سمع عن حسن معاملته وإكرامه للغرباء ويحصل على معاونته في السفر إلى سنار عن طريق كردفان المجاورة. ومن سنار يمكنه السفر إلى الحبشة، ومن ثم يستطيع أن يحقق أحلامه في زيارة تلك البلاد.

وفي شتاء عام ١٧٩٢ أعد برون العدة لمرافقة قافلة دارفور. وفي ٢١ أبريل عام ١٧٩٣ غادر بولاق ميناء القاهرة، وأبحر إلى اسيوط ليتصل بالقافلة. وهناك اشترى خمسة جمال سعر الجمل الواحد ثلاثة عشر جنيها. وفي ٢٥ مايو غادرت القافلة مدينة اسيوط، وسارت في طريق الأربعين. وعندما وصل برون إلى دارفور أخذ يستغل خبرته الطبية، وما كان يحمله من أدوية وعقاقير في اكتساب صداقة الشخصيات البارزة في سلطنة دارفور، ليعينوه على التقرب للسلطان والتوسط لديه في تحقيق رغبته. بيد أن وساطة هؤلاء لم تجده نفعاً، إذ رفض سلطان دارفور السماح له بالرحيل إلى كردفان بحجة أن جنوده لا يزالون يحاربون في هذه البلاد لإخضاعها لنفوذه، وأن دخوله كردفان في مثل هذه الظروف سوف يعرضه للخطر لامحالة.

ومهما تكن الدوافع الرئيسية التي جعلت سلطان دارفور يرفض السماح للرحالة برون بمغادرة دارفور، فإن برون يئس من رجائه، وفقد الأمل في السفر إلى سنار والحبشة. وأخيراً قفل راجعاً من حيث أتى سالكا نفس الطريق الذي سلكه عند مجيئه، وهو طريق الأربعين. ولكن بعد أن ظل في دارفور زهاء ثلاث سنوات استطاع خلالها أن يجمع الكثير من المعلومات والحقائق الهامة عن هذا الإقليم، ويحقق في هذا الشأن نصراً علمياً وجغرافياً لم يسبقه إليه أحد من الرحالة الذين زاروا السودان من قبل، وهو ما استحق من أجله التقدير والثناء.

الأهمية الجغرافية والتاريخية لرحلة برون في دارفور :

نستطيع أن ندرك أهمية الرحلة التي قام بها الرحالة برون في دارفور (عام ١٧٩٣ - ١٧٩٦) إذا علمنا أن سلاطين دارفور في ذلك الوقت - وقد كانوا حريصين على استقلال بلادهم - لم يسمحوا لأحد من الأجانب وبخاصة الأوروبيين المسيحيين بالسياحة في أوطانهم خشية أن يتجسسوا عليها تمهيدا لغزوها واحتلالها. بالإضافة إلى نظرة

المواطنين التقليدية وقتذاك إلى أمثال هؤلاء الغرباء من ذوى البشرة البيضاء أنهم قوم مرضى يحملون الأمراض الخبيثة، وأن بشرتهم البيضاء غير المألوفة بين سكان هذه الجهات لدليل على ذلك، ومن ثم فالخير فى الابتعاد عنهم وعدم الاختلاط بهم.

ومن هنا اكتسبت رحلة برون فى دارفور أهميتها العلمية جغرافيا وتاريخيا. فهى من المصادر الأصلية التى يمكن للباحث المتخصص أن يعتمد عليها فى دراسة أحوال هذا الإقليم فى أواخر القرن الثامن عشر. وذلك الإقليم الذى لم يقدر لأحد من الأوربيين زيارته أو الكتابة عنه كتابة مستفيضة واضحة على الطبيعة كشاهد عيان قبل ذلك التاريخ (١٧٩٣ - ١٧٩٦). والحق أن رحلة برون فى دارفور قد جاءت بمثابة حافز للرحالة والجغرافيين الأوربيين الذين لم يكن أحد منهم يعلم بالضبط حقيقة موقع هذه البلاد وامتدادها حتى ذلك الحين.

ولئن بدا على بعض تفاصيل الرحلة عدم الدقة فى الوصف أو التعبير، فإن الكثير من المعلومات والحقائق الرئيسية التى تضمنتها، وقام الرحالة برون بجمعها قد أكدها وأثبت صحتها بطريق الاستقصاء من جاء بعده من الرحالة والجغرافيين أمثال روبل (Rupel، وروسينجير Russenger الألمانين، وبالم Palme الإنجليزى (٢) [ص ٤ Broune] ولقد نشر كتاب رحلة برون فى لندن عام ١٧٩٩ تحت عنوان:

"Travels in Africa, Egypt and Syria from the Year 1792 to 1788, London 1799"

ولقد قمنا بجمع المعلومات والحقائق التى أتت للرحالة برون الوقوف عليها فى أثناء رحلته فى إقليم دارفور عام ١٧٩٢ - ١٧٩٦ فضمنها كتاب رحلته السالف الذكر.

وكلها - كما واضح - موضوعات علي جانب من الأهمية. إليك تفصيلها:

طبيعة إقليم دارفور النباتية:

يصف برون طبيعة إقليم دارفور النباتية وصفاً دقيقاً، وربما بسبب تخصصه فى النباتات الطبية يقول: "إن النباتات فى دارفور تكثر فى الأجزاء الجنوبية منها، حيث يتوافر الماء. ويجف كل ما على سطح الأرض إلى الشمال من تأثير حرارة الشمس لمدة سبعة أو ثمانية أشهر فى السنة. والنباتات الصغيرة التى تنمو وتزدهر فى فصل الخريف (فصل الأمطار) تجف بمجرد انتهاء هذا الموسم. وحتى الأشجار تجف أوراقها ولا يبقى فيها سوى الأغصان المتشعبة. والأشجار التى توجد فى دارفور تمتاز بصلابتها وأشواكها الحادة." [ص ٢٦٩]

ويصف برون أنواع الأشجار المختلفة التى تنمو فى إقليم دارفور، والخصائص الطبيعية، وكذلك القيمة الاقتصادية لكل نوع منها بقوله:

"(١) أشجار التمر هندي، وتمتاز بارتفاعها وضخامتها ووفرة ثمارها. [ص ٢٧٥]

(٢) أشجار الجميز المصرية Sycamore of Egypt ويوجد قليل منها بالقرب من مدينة كوبة، ولكن تكثر إلى الجنوب.

(٣) أشجار النبق، وفي دارفور نوعان منها يختلفان في الحجم وفي الثمار:
النوع الأول: وهو نفس النوع الموجود في حدائق الإسكندرية.

والنوع الآخر: يمتاز بأنه يصل في نموه إلى حجم كبير. كما أن أوراقه وثماره أصغر من أوراق وثمار النوع الأول. وكلاهما من النباتات الشوكية. ويتناول أهل دارفور النبق طازجاً أو جافاً، إذ يترك لييجف على الأشجار، حيث يظل وقتاً طويلاً من أشهر الشتاء. وفي هذه الحالة يصنعون منه عجوة لذيذة الطعم، وهي من المواد الغذائية التي يسهل على المسافرين حملها معهم في أثناء رحلاتهم.

(٤) الهجليج أو الحجلج وهي في حجم أشجار النبق وأوراقها صغيرة. وثمارها في حجم التمر، وهي جافة من النوع اللزج ونواتها كبيرة. وتعمل أيضاً من ثمارها عجوة، ولكن طعمها غير مقبول. ومع ذلك فإن العرب يتناولونها كدواء لعلاج بعض الأمراض. ويبدو أن لها تأثيراً في إدرار البول. والهجليج من النباتات الشوكية التي تمتاز بوفرة أخشابها وصلابتها.

(٥) شجرة العنب وهي صغيرة، وحباتها ذات لون أرجواني على هيئة عنقود. ولكنها تتناثر على الأغصان بين الأوراق. وحجمها هو نفس حجم حبات العنب العادي، ولكن طعمها قابض جداً. [ص ٢٧١]

ويقول الرحالة برون في موضع آخر من كتاب رحلته: "إنه توجد في دارفور عدة أنواع من أنواع الأشجار، ولكن لا يوجد ما يستحق أن تجمع ثماره إلا أشجار التمر هندي، وأما أشجار النخيل فقليلة العدد وثمارها قليلة وجافة وعديمة الطعم." ويصف النخيل: "شجرة النخيل لا تبدو أنها أصلاً من هذه البلاد «دارفور»، وإنما نقلت إلي دارفور من البلاد المجاورة للنيل من دنقلة وسنار وغيرهما ويبدو أن الأهالي لا يجيدون استغلال أشجار النخيل ذات المحصول النافع، وربما لا يمكنهم هذا الجذب الشديد من التوسع والنهوض بهذا المحصول. لزيادة عدد النخيل وتحسين نوعه." [ص ٢٧٥ Broune]

السكان في دارفور:

لقد أمدنا برون بمعلومات عن السكان في إقليم دارفور (عام ١٧٩٣ - ١٧٩٦)، شملت عدد السكان في ذلك الوقت، ونظام البيوت التي يعيشون فيها، وعناصر السكان

المختلفة التي يضمها إقليم دارفور، كما حدثنا عن علاقات أهل دارفور بسكان الأقاليم المجاورة لهم، وكذلك ببعض الأقطار الخارجية التي كانت تربطها بهم روابط تجارية ودينية مثل مصر وشبه الجزيرة العربية. يقدر عدد السكان (عام ١٧٩٢ - ١٧٩٦) بما لا يزيد على ٢٠٠ ألف نسمة. وكوبة أكثر المدن سكاناً ويقدر عدد سكانها بما فيهم العبيد بما يزيد كثيراً على ٦ آلاف نسمة، على أن الجزء الأكبر منهم من العبيد". [ص ٢٨٤] ويصف البيوت في دارفور: "بانها منفصلة بعضها عن بعض مساحات واسعة، لأن كل شخص يختار سكنه في البقعة القريبة من الأرض التي يقوم بزراعتها. لذلك لا نجد علي امتداد المسافة التي تقدر بميلين أكثر من مائة بيت". ويصف القرى "بأن عددها كبير ولكن عدد سكانها قليل، إذا أن أكثرها سكاناً لا يزيد عدد سكانه على مئات قليلة من الأنفس. ولا يوجد سوى ثمانية أو عشرة مدن تمتاز بكثرة سكانها". [ص ٢٨٥] ويصف برون عناصر السكان في دارفور بقوله "ويشتمل سكان دارفور على ناس أصلهم من ضفاف النيل، وعلى بعض من أهالي الأقاليم الغربية، وهم إما قهها جاءوا إلى دارفور، أو تجار أتوا إلى تلك البلاد بقصد التجارة. وبعضهم استوطن البلاد ولا يستطيع مغادرتها. وهم من قبائل مختلفة، ولكن الجزء الأكبر منهم رحل يتنقلون على الحدود". [ص ٢٨٥]

ويحدثنا عن العلاقات بين أهل دارفور وأهل كردفان "لقد كان سلطان دارفور لمدة سنتين مشغولاً في حرب خطيرة مع مغتصب سلطنة كردفان. ويبدو أن هناك عداً تقليدياً بين أهل دارفور وأهل كردفان. وهم دائماً في حرب". [ص ٢٨٩] ويوضح برون أسباب العدا: "ويبدو أن أسباب ذلك العدا هو التجاور، فكردفان تقع على الطريق بين دارفور وسنار، وهو طريق هام برغم أنه ليس طريق الاتصال المباشر بين دارفور ومكة. ولا تستطيع القافلة القادمة من سواكن (على البحر الأحمر) أن تتابع سيرها إلى دارفور كما يبدو دون تصريح من حكام كردفان. كذلك فإن الحسد والتنافس في مضمار التجارة هو أصل ذلك العدا بين الشقيقتين". [ص ٢٨٩] وفي موضع آخر من كتاب رحلته يحدثنا عن علاقة أهل دارفور بالحجاز بقوله "وبخصوص الاتصال بين دارفور ومكة فإنه لا توجد قوافل تغادر دارفور إلى الحجاز بانتظام، وإن كان بعض المواطنين في دارفور يذهبون إلى مكة إما عن طريق قوافل التجارة الذاهبة إلى مصر (عن طريق درب الأربعين الصحراوي) أو عن طريق سواكن - جدة (عبر البحر الأحمر)". [ص ٢٥٢]

الزراعة في دارفور:

يقول الرحالة برون عن الزراعة في إقليم دارفور: "إن الأمطار التي تسقط بصفة دائمة من منتصف يونيو إلى منتصف سبتمبر والتي كثيراً ما تسقط شديدة تكون فجأة على سطح الأرض طبقة خضراء بهيجة تجف بعد ذلك، فتصبح الأراضي جديداً، ما عدا الصحراء

التي تحول طبيعة تربتها دون نمو النبات فيها. [ص ٢٥٤] ويصف طريقة بذر الحبوب في الأرض، والأدوات البدائية التي كانوا يستخدمونها لهذا الغرض، وكذلك الغلات الزراعية التي كان الفلاحون في دارفور يحرسون على زراعتها لحاجتهم الضرورية إليها، فيقول "وبمجرد ما تبدأ الأمطار في السقوط يخرج كل واحد إلى حقله ومعه من استطاع جمعه (من معاونيه)، ويقومون بعمل حفر في الأرض بواسطة معزقة، بين الحفرة والأخرى مسافة قدمين. ثم تلقى بذور الدخن في هذه الحفر، وتغلى بالتراب بالقدم [ص ٢٨٣] إذا أن الفلاحة عندهم لا تتطلب أدوات زراعية كثيرة. ويذر القمح في نفس الميعاد تقريبا. والدخن لا يكاد يمضى على بذره شهران حتى ينضج. والقمح يمضى عليه ثلاثة أشهر حتى يتم نضجه. وهو يزرع بكميات قليلة. [ص ٢٥٤] ويصف برون طريقة جمع المحصول "ويجمع المحصول بطريقة بسيطة للغاية. فالمالك ومعه عبيده ورجاله يذهبون إلى الحقل، حيث يقطفون السنابل ويتركون السيقان التي يستخدمونها بعد ذلك في أعمال البناء وغيرها. وتحمل الحبوب في سلات على رؤوسهم. وتعرض للشمس حتى تجف تماما. ثم يعدون حفرة في الأرض يغطون قاعها وجوانبها بالتبن لحمايتها من الحشرات. وبعد أن يملأ المخزن (الحفرة) يغطي بالقش (التبن) أيضا. ثم تسد الحفرة بالطين. وبهذه الطريقة تحفظ الذرة جيدا" [ص ٢٨٢].

أما الغلات الزراعية الأخرى التي كان أهل دارفور يقومون بزراعتها إلى جانب الدخن والقمح، فيذكر الرحالة برون "أنه تعم زراعة المبريك Mabriek، وهي غلة أكبر من الدخن. ويزرعون أيضاً السمسم بكميات قليلة، والبامية والملوخية والعدس واللوبيا وبعض أنواع الخضر الأخرى" [ص ٢٥٥]. أما أنواع الفاكهة التي اشتهر بها إقليم دارفور، فيقول الرحالة برون "أن البطيخ وبعض الفاكهة الأخرى تكثر في فصل الجفاف" [ص ٢٥٥] ويضيف برون إلى ذلك "أن السلطان تيراب كان مهتما بجلب ما اشتهرت البساتين المصرية بزراعتها إلى بلاده، إلا أن السلطان الحالي لا يعير التفاتاً لهذه الوجهة الإصلاحية، ومن ثم لم تظهر إلا نتائج قليلة لنشاط سلفه في هذا السبيل" [ص ٢٥٥].

ويذكر برون أنواع النباتات من الخضر والفاكهة التي تزرع في إقليم دارفور (عام ١٧٩٣ - ١٧٩٦)، وقد عرضها علي النحو التالي:

- (١) الباذنجان: وقد جلب أصلا من مصر ويستخدم في الطعام.
- (٢) الحنّاء: وأصلها من مصر وقد أخذت زراعتها في الشيوخ.
- (٣) السنّاء البرية: وهي نوع بلدى ينمو بكثرة بعد سقوط الأمطار.
- (٤) الفول: ويستخدم بكثرة في الطعام. والنساء يستخدمونه في الزينة، إذ تعقد حبّاته في خيط مثل الخرز، ذلك أنها عندما تجف تماما تصبح صلبة جداً.

(٥) البصل: ويزرع بوفرة فى دارفور. ولكن النوع المصرى يفوقه فى الحجم واللون والطعم.

(٦) الثوم: ويقوم الأهالى بزراعته ويستخدم فى الطعام.

(٧) البطيخ: وينمو نمواً برياً فى جميع الأراضى الصالحة للزراعة تقريباً.

(٨) القواون: ويزرع من حين لآخر، وقد أدخل الجلابة زراعته، ولكن قلما يجد العناية اللازمة.

(٩) الخيار: وقد أدخل أيضاً الجلابة زراعته فى دارفور.

(١٠) القرع: ويوجد بكثرة، وعندما ينمو يصبح حجمه كبيراً. ويستخدم الجاف منه كأوان للشرب وغيرها. وأما الطازج منه فيؤكل. وعندما يطهى مع اللحم يكون طعمه لذيذاً جداً. القرع هناك نوعان من القرع الذى يؤكل ليس هو الذى يصنع منه أوانى الشرب.

(١١) الحنظل: وهو أيضاً تنتشر زراعته فى دارفور.

(١٢) العشر: وهذا النبات ينمو بكثرة فى إقليم دارفور، حتى أنه يغطى جميع السهول تقريباً. ولا يستفاد منه اللهم إلا فى استخدامه لوقاية الخضر والبضائع من الترميس Termis أو النمل الأبيض، إذ تنشر فروعه وأوراقه تحتها.

(١٣) عنب الديب.

(١٤) الحشيش: وقد أصبح الآن (١٧٩٣ - ١٧٩٦) يزرع بانتظام (بصفة دائمة)، ويستعمل بطرق مختلفة كمادة مهيجة للجنس. ويمضغ وهو فى حالة الصلابة، أو يدخن بواسطه الغليون، أو يخلط بمواد أخرى. ومصر تستهلك من هذه السلعة أكثر مما تستهلكه دارفور، بيد أن أجود الأنواع هى التى توجد فى إنطاكية وسوريا.

(١٥) الأرز: ويأتى به العرب الرحل من الأماكن التى يترددون عليها، حيث ينمو نمواً طبيعياً. والكميات التى يأتون بها قليلة. ويقل تقديره واستخدامه كمادة غذائية. والواقع أن نوعه لا يغرى على الإقبال عليه.

(١٦) الشطة: وتعم زراعتها بكثرة فى منطقة معينة، بينما تنتشر زراعتها فى المناطق الأخرى، وتستخدم مع الطعام.

(١٧) اللوبيا والملوخية والبامية: والبامية توجد بكثرة. كما يوجد نبات آخر فى حجم الملوخية لونه أخضر داكن ذو رائحة نفاذة وطعم قوى. وينمو بكميات كبيرة، وهو

غذاء رئيسى للأهالى ويسمونه كويل Cowei .

(١٨) السمسم : يستخرج منه الزيت . يهرس فى الهاون ، ويخلط بالطعام . ويستخدم أيضاً لتسمين الخيل .

(١٩) الدخن والمبريك : وهما غذاؤهما الرئيسى ، وبخاصة الدخن .

(٢٠) التبغ : وينمو بكثرة فى فريت ودار فنجارو . ويبدو من المؤكد أن هذا النبات أصلاً من هذه البلاد . [ص : ٢٧١ - ٢٧٣]

الثروة الحيوانية :

. تناول برون أنواع الحيوانات التي اشتهر أهل دارفور بتربيتها ، وبخاصة العرب الرحل ، مشيراً إلى الموطن الأصلي لبعض هذه الحيوانات ، وكيف انتقلت إلى دارفور ، مع مقارنتها بالأنواع المماثلة فى البلاد الأخرى مثل مصر . كما تناول الدور الذى لعبته هذه الثروة الحيوانية فى العلاقات التجارية بين دارفور ومصر يقول : " ومن الحيوانات التي توجد فى دارفور الخيل . والخيول التي يملكها الأهالى أصلها من دنقلة ، حيث يقوم العرب إلى الشرق من النيل بتربيتها . وهى أكبر حجماً من الخيول المصرية ، ومشهورة بتحملها التعب " . [ص ٢٥٥]

ويصف ثروة دارفور من الأغنام ، ويقارن أغنام دارفور بالأغنام المصرية بقوله " الضأن فى دارفور . يتميز بأنه أقل جودة من الضأن المصرى . كما أن صوفها من النوع الردى ، الذى يشبه الشعر ، وغير صالح لأى صناعة . أما الماعز فهي أكثر عدداً من الضأن ولحمها أرخص بعض الشيء " ، [ص ٢٧٥] وأما الحمير " فإن أجود أنواعها ما يأتى به الجلابة من مصر ويكثر استخدامها فى الركوب عليها ، لأن ركوب الخيل قاصر على الجنود ورجال البلاط الملكى (بلاط السلطان) " .. [ص ٢٥٧] ويصف الرحالة برون ثروة دارفور من الماشية ، بقوله " وتوجد فى دارفور الماشية ذات القرون بكثرة لدى القبائل المجاورة للنيل . والضريبة التي تدفع من هذه الماشية تكون مورداً كبيراً من دخل السلطان . كذلك يصف ثروة دارفور من الإبل إذ يقول " أما الإبل فى دارفور فهي من أصل خليط وذات ألوان وأحجام مختلفة . " ولا يفوق دارفور فى وفرة الإبل بها إلا بلاد قليلة . "

الحيوانات المفترسة :

أما الحيوانات المفترسة التي تعيش فى بعض المناطق فى إقليم دارفور ، فحدثنا الرحالة برون عن أنواعها وعن أماكن تواجدها والوسائل التي يتبعها الأهالى لدرء خطرها بقوله

"والحيوانات المفترسة التي توجد في دارفور هي الأسود والنمور والضباع والذئاب وابن أوى والجاموس الوحشى. بيد أن هذه الحيوانات لا ترى دائماً في الأراضى الزراعية ما عدا الضبع وابن أوى. فالضباع تسير فى هيئة قطع من خمسة أو ثمانية. وغالبا من عشرة وتزحف على القرى ليلاً وتأخذ ما تستطيع حمله. وهى تفتك بالكلاب والحمير حتى لو كانت داخل البيت. ويحفر الأهالى حفراً (أشراكاً) لاصطيادها. وأما ابن أوى فهو غير مقترس إلا أن صرخته المزعجة تسمع عن بعد". [ص ٢٨٥]

ويستطرد: "إن هذه الحيوانات تكثر فى البلاد المجاورة لسلطنة دارفور، وبخاصة على شواطئ بحر العادة Bahr-el-Ada، ويضاف إلى تلك الحيوانات التى تعيش فى دارفور التيتل والخرتيت والزراف وقرس النهر والتمساح". [ص ٢٦٠] ويستطرد: "إن الفيلة توجد فى الأماكن التى تتردد عليها فى شكل قطعان كبيرة تتراوح بين ٤٠٠ و ٥٠٠ فيل. ويقال إنها تكون فى بعض الأحيان ٢٠٠٠ فيل. ويصيد الأهالى الفيل وهم على ظهر الحصان بأن يعزلوا فيلاً شارداً عن القطيع. أو يصوبون عليه السهام من فوق الأشجار، أو يحفرون حفراً حيث يسقط فيها. وشحمه دهان ثمين. وأسنانه كما هو معروف تدر على التجار أرباحاً طائلة". [ص ٢٦٠] ويضيف فى موقع آخر: "والتيتل والنعام ينتشر بكثرة فى كل أنحاء سلطنة دارفور. وقط الزباد يتردد بعيداً إلى الجنوب. وكثيراً منه يحفظ فى أقفاص فى بيوت الأغنياء، ويستعمل النساء الرائحة التى تستخلص منه للتجميل والإغراء. وهكذا نجد أن ما لا يستحق أن يباع يصبح سلعة تجارية ذات قيمة". [ص ٢٦١]

وأخيراً يحدثنا "والأسود والنمور رغم أنها تكثر فى منطقة معينة، إلا أنها لا توجد بالقرب من مقر الحكومة. ويصيد العرب النمر والأسد لأخذ جلدتهما، وغالباً يأكلون لحمهما، إذ يعتقدون أن ذلك يخلق فى الإنسان الشجاعة والقدرة على القتال. كما أنهم يصيدون الصغير منها لبيعه للجلابة الذين يقدمونه كهدية للعظماء فى مصر". [ص ٢٢٢]

أنواع الطيور:

« إن فى دارفور أنواعاً مختلفة من الطيور يعتبر بعضها سلعة تجارية مربحة تصدر إلى مصر مثل الدجاج الغينى Guinea Fowl والبيغاء الأخضر Green Peroquet الذى يصاد وريشه لم يثبت بعد. ثم يؤخذ للمنازل حتى يستأنس ويعلم نوع من الحديث ثم يصدر إلى مصر حيث يباع بأثمان مرتفعة». [ص ٢٦٤] ويصف النحل الذى تشتهر به دارفور "بأنه يوجد بكثرة. ولكنه لا يعيش فى خلايا. كما أن العسل الذى يخرج من النوع القاتم اللون وطعمه غير مقبول". [ص ٢٦٦]

وأخيراً يتحدث الرحالة برون عن أنواع النمل فيقول "وأما النمل الأبيض فيوجد بكثرة. وهو متلف للغاية، فلا يصل إلى شىء إلا يأكله سواء كان نباتاً أخضر أو قماشاً أو جلدأ أو

ورقاً أو مواد غذائية وغير ذلك. وجلد الثور إذا لم يغط بطبقة من القطران فإنه لا يقوى على مقاومته". [ص ٢٦٦] وأما الجراد فيقول "إن جراد بلاد العرب ينتشر بكثرة ويأكله الأهالي وبخاصة "العبيد" بعد شيبه". [ص ٢٦٦]

تجارة دارفور مع مصر :

يقول الرحالة برون في وصف طريق الأربعين الصحراوي (من مصر إلى دارفور) عام ١٧٩٣ - ١٧٩٦ "تمر القافلة (في بداية رحلتها) بالواحات. وعندها يدفع الجلابة للمغاربة مبلغاً من المال يقدر بـ "باتاك" على كل جمل ليقوموا بحمايتهم أو بمعنى آخر لكسب ودهم، حتى لا يعتدوا عليهم بالسلب والنهب. ويحدث أن يصل هؤلاء المغاربة (مغاربة الواحة) إلى سليمة Selime مخترقين الصحراء إلى دنقلة (وهو طريق يستغرق قطعه ثلاثة أو أربعة أيام). وهناك يسلبون البضائع، ويخطفون الأولاد الأحرار من البنين والبنات ويقومون ببيعهم في مصر. ثم تمر القافلة بعين ديزيه Aine Dizé الواقعة في أقصى شمال الواحة الكبرى، وهي أول مكان تصادف فيه القافلة الماء بعد مغادرتها أسيوط. وعلى مسيرة أربع ساعات من ديزيه تقع الخارجة، حيث يوجد في كل مكان منهما جندى أو ضابط من قبل إبراهيم بك الكبير، ومهمتهما رعاية شئون القافلة في أثناء إقامتها هناك. وعلى مسيرة ست ساعات من الخارجة تقع بولاك Bolak وهي قرية شديدة الفقر، بيوتها من الطين أو الطوب اللبن وغير مسقوفة. وهي تمد القوافل بالماء العذب، ويعيش أهلها على التمر. وعلى مسيرة ما يقرب من أربع عشرة ساعة من بولاك في طريق مجدب تقع باريز. وعلى مسيرة ساعتين من باريز تقع مجس Mughess وهي قرية تقع في أقصى جنوب الواحة. وعلى مسيرة خمسة أيام تقع شب Sheb حيث يمكن الحصول على الماء على عمق قليل. ويستخرج منها الشبة بكميات كبيرة كما يدل على ذلك اسم المكان. وعلى مسيرة يومين من شب تقع سليمة Selime، وفيها يتوافر للقوافل أعذب مورد للماء يصادفها في طريقها. وبالرغم من أنها بقعة خضراء تقر بها العين إذا قورنت بما حولها من بقاع مجدبة من قريب أو بعيد، فإنه لا يتوافر فيها الخضر التي تقيم أود الإنسان أو الحيوان، وهي ملتقى الجماعات التي تعبر الصحراء من مختلف الطرق. وعلى مسيرة خمسة أيام تقريبا من سليمة تقع لقيه Legheu، وفيها يندر الماء الذي لا يقارن بعذوبة ماء سليمة، إذ أن ماءها آسن. وعلى مسيرة ستة أيام تقريبا من لقيه يقع بئر الملح. والمنطقة المجاورة لهذا البئر تشتهر بملح النطرون الذي يختلف عن نطرون تيرانة Teerane بأنه ناصع البياض ويحمل الجلابة كميات قليلة منه إلى مصر، حيث يبيعهونه بأسعار مرتفعة. ويستخدم بوجه خاص في صناعة النشوق. والماء في هذه البقعة يتميز بأنه آسن وطعمه غير سائغ. ويتردد على هذا البئر جماعة من أهل زغاوة على مسيرة عشرة أيام متكبدة

مشاق السفر لتبقي للمسافرين ما يحتاجون إليه من مواد غذائية بأسعار باهظة في وقت يكون فيه كثير من المسافرين قد نفذت موادهم الغذائية وهلك الكثير من إبلهم، فيصبحون في أشد الحاجة إلى المؤونة ويغير الكبابيش على المنطقة المجاورة لبئر الملح، حيث يمتطون الهجين السريعة لسلب المسافرين عند وقوفهم هناك. ونظراً لأن هؤلاء الكبابيش الذين يعيشون على السلب والنهب لا يملكون الأسلحة النارية، فإن الكثير من المسافرين لا يتعرضون كثيراً لخطر هجماتهم. وعلى مسيرة ثمانية أيام تقريباً من بئر الملح تقع مدوة Medwa، وهي خالية من الماء.

وعلى مسيرة يومين أو أكثر من مدوة توجد آبار وادي مرزوق Wadi Masuk وهي تقع على أول حدود الفور. وعندها يكثر النمل الأبيض (Termis) الذي يتلف كل ما يصل إليه. ويلى وادي مرزوق جنوباً قرية سويني Sweini، وفيها يقيم ملك أو حاكم من قبل سلطان دارفور. وعند سويني لا يجوز لرجال القافلة غرباء أو مواطنين أن يتبعوا سيرهم إلا بعد أن يتحرى عنهم الحاكم ويصدر الأمر من السلطان (سلطان دارفور) بالسماح للجلابة منهم بمتابعة سيرهم إلى مقارهم بعد دفع المكوس المقررة عليهم. [ص: ١٨٤ - ١٨٥] وهذا يقتضى منهم أن يمضوا بضعة أيام في تلك القرية قبل مغادرتها إلى كوبة Cobba. ويعلق الرحالة برون: "وهذه التقارير التي يدعى الحاكم (حاكم سويني) تقديماً عن الجلابة للسلطان ربما كانت خدعة ترمى إلى تعطيل الجلابة ومعهم الرقيق عن المضى في المسير، بحيث ينتظرون مدة لا يعرفون مداها ينفقون خلالها على الرقيق نفقات باهظة في الوقت الذي يكون فيه عملاء السلطان قد سبقوا هؤلاء الجلابة إلى مصر بفترة من الزمن يتمكنون فيها من بيع مالداهم من السلع". [ص ٢٢٥ - ٢٢٦] ويختم تعليقه قائلاً "وهكذا يلحق الضرر بالجلابة من جراء احتكار السلطان الذي يذيع بوقاحة منقطة النظر أنه قد أرسل ليتفاوض مع البكوات (المماليك) على أن يتسلموا السلع السودانية بشروط أكثر سخاء من ذي قبل". [ص ٢٢٦]

بعد هذا الوصف لطريق الأربعين يحدثنا الرحالة برون عن السلع التي كان يحملها الجلابة والتجار الفور مع قافلة دارفور إلى مصر عبر هذا الطريق الصحراوي. وهي تشمل السلع والمنتجات التجارية التي اشتهر بها إقليم دارفور وكذلك التي كانت ترد إلى دارفور من أقاليم السودان الأخرى مثل كردفان، وسنار، ومناطق الزنوج في الجنوب. وقد حددها في كتاب رحلته على النحو التالي: "الرقيق من الذكور والإناث، الإبل، العاج، قرون الخرتيت، أسنان أفراس النهر، ريش النعام، الكرابيج المصنوعة من جلد فرس النهر، الصمغ، الفلفل الأحمر والأخضر، التمر هندي على هيئة كعك مستدير، القرب الجلدية لحفظ الماء والسلع الجافة، الببغاوات بوفرة وبعض القروود، والدجاج، والطيور الغينية Guinea Fowl، النحاس الأحمر بكميات قليلة". [ص ٢٠٤] أما أهم السلع والبضائع التي

كان الجلابية والتجار في قافلة دارفور يعودون بها من مصر فهي كما وردت في كتاب رحلته: "عقود الكهرمان، قطع الصفيح الصغيرة، عقود المرجان، عقود العقيق، عقود البندقية، العقيق اليماني، الحلقات الفضية والنحاسية التي توضع حول الرقبة وحول المعصم، الأبسطة الصغيرة، المنسوجات القطنية المصرية الزرقاء اللون، القطن الأبيض، الأقطان وأنواع الشاش الهندي والموسلين الهندي، المنسوجات المصرية ذات اللون الأزرق والأبيض التي تعرف باسم الملايات، السيوف المستقيمة المصنوعة في المانيا والواردة إلى القاهرة، المرايا الزجاجية الصغيرة، الدروع النحاسية لحماية رؤوس الخيل، الأسلحة النارية، كحل العيون، رهية وهو نوع من الطحالب التركي يستخدم كطعام وكنوع من العطر، الشاي وهو نوع من التوابل يستخدم كرائحة وكعلاج له فائدة ملحوظة، البن، المحلب والقرنفل والسمبل والصندل، الدسر Dusr وهو نوع من أصداف أسماك البحر الأحمر يستعمل كعطر، الحرير المنسوج، أسلاك من النحاس الأصفر والحديد، عقود حباتها من الزجاج الخشن المصنوع في الشام، أوان نحاسية للطبخ والإقبال عليها قليل، نحاس أحمر خام لصهره واستخدامه في الصناعة، طرايش مغربية، خيوط كتان مصرية (استهلاكها قليل)، منسوجات فرنسية خفيفة، منسوجات حريرية من سكيو Scio، منسوجات حريرية من طرابلس ودمشق وغيرها، أحذية جلدية حمراء، فلفل أسود، ورق للكتابة (ورق ذات ثلاثة خطوط) وهو سلعة هامة، صابون من سوريا". [ص ٣٠٢]

يصف الرحالة برون مكانة سلطان دارفور في تجارة بلاده بقوله "إن السلطان يعتبر أكبر تاجر في البلاد. وهو لا يكتفى بأن يرسل مع كل قافلة ذاهبة إلى مصر كميات كبيرة من بضائعه، بل يستخدم عبيده ورجاله في التجارة في البضائع المصرية لحسابه الخاص في الأقاليم المجاورة للسودان". [ص ٢٩٨] ويضيف:

١- إن السلطان يفرض ضريبة على جميع البضائع الواردة تصل في كثير من الحالات إلى ما يقرب من عشر قيمتها. فالبيع الذي يأتي من مصر محملاً بالبضائع القطنية إذا كان يحمل مائة قطعة - وهو ما يحدث عادة - يأخذ السلطان من التجار المصريين عشرين قطعة. أما أهل البلاد والعرب الخاضعين لحكومته فيدفعون أكثر من ذلك. إلا أن هناك بعض السلع لا يدفع عليها كثيراً.

٢- يضاف إلى ذلك أنه عند ما يصبح التجار على وشك مغادرة دارفور إلى مصر يطلب منهم ضريبة أخرى على العبيد المصدرين إلى مصر بحجة إعفاء عبيدهم من الفحص". [ص ٢٩٨] ويستطرد برون قائلاً "إن القافلة التي كنت برفقتها وكانت تضم حوالي خمسة آلاف عبد ويقدر ثمنها بسبعة آلاف محبوب دفعت للخبير عند وصولها مصر بين ستمائة وسبعمائة جنيه". [ص ٢٩٨]

٣- إن من حق السلطان أن يأخذ عشر البضاعة التي تأتي أيضاً من جميع الجهات

الأخرى غير مصر، وبخاصة الرقيق الذى يجلب على حد قولهم - من الطرق".

أما موارد السلطان من الهدايا التى تقدم له فى المناسبات المختلفة، فيحدثنا عنها الرحالة برون بقوله: "وعندما تضرب الطلبة فى يوم ٢٧ من شهر ربيع الأول من كل عام تذهب جميع الشخصيات البارزة فى كل مدينة وقرية إلى الفاشر تحمل الهدايا إلى السلطان كل حسب مكانته الاجتماعية وقدرته المالية". ويرى أنها تمثل موردا للسلطان لا يستهان به". ويضيف إلى ذلك "أن هدية ملك الجلالة فى إحدى هذه المناسبات بلغت قيمتها ٩٠٠ محبوب، أو ما يعادل حوالى ٢٠٠ جنيه" ويستطرد قائلاً "ويصل إلى السلطان يومياً، بل كل ساعة الهدايا المختلفة من أكابر رجال الدولة، ومن التجار الذين يأتون إليه لتصريف بعض الأعمال. أما هدايا التجار فهى بصفة عامة من نوع المنسوجات مثل المنسوجات الصوفية، والأبسطة، والأسلحة وغيرها. أما هدايا أهل البلاد فهى عادة من الإبل والرقيق الذكور والإناث والثيران والضأن وغير ذلك".

يقول الرحالة برون "وإن من أهم موارد السلطان الضريبة التى يدفعها العرب الذين يقومون بتربية الماشية والإبل والخيل والضأن. فأولئك الذين يقومون بتربية الخيل عليهم أن يقدموا له كل ما تلده هذه الخيل من ذكور، وإن كان غالباً ما يتحايلون على عدم دفعها. ولقد حدث أن أهمل العرب دفع هذه الضريبة لمدة سنتين (فى أثناء زيارة دارفور) فأرسل إليهم السلطان قواته التى استولت على كل ما امتدت إليه أيديهم، فبلغ عدد الثيران التى اغتصبوها ١٢ ألف ثور".

أما عن قيمة الضريبة المفروضة فيقول "إن هذه الضريبة إذا ما دفعت بانتظام سنوياً تقدر بـ ٤ آلاف ثور، ولكن نظراً لأن هؤلاء العرب يسكنون فى خيام، فهم دائماً يتنقلون من مكان لآخر. كما أنهم عندما يستشعرون تضامنهم ووحدتهم تضعف رغبتهم فى دفع الضريبة. كذلك الذين يقومون بتربية الإبل عليهم أيضاً أن يقدموا سنوياً عشر ما يملكون، أخذت مواظبتهم على دفع الضريبة تقل. وهم كغيرهم يتمردون فى بعض الأوقات".

ويصف نظام التعامل الذى كان سائداً بين أهل دارفور بقوله "إنه لا يوجد فى دارفور ما يشبه العملة المتداولة. اللهم إلا حلقات صغيرة من الصفيح من مختلف الأحجام. وقيمتها فى بعض الحالات عرفية. وهم لا يتعاملون بها إلا فى مدينة الفاشر، حيث تستخدم فى شراء بعض السلع البسيطة التى يمكن فى الوقت نفسه الحصول عليها مقابل الملح والخرز. أما الدولارات النمساوية وغيرها من العملات الفضية التى تأتى من مصر فجميعها يُباع لاستخدامه كنوع من الحلوى للنساء. وهم يحصلون على بعض الربح من بيعها". ويستطرد قائلاً "ولأن الذهب لا يوجد فى دارفور، فإنه يندر وجوده فى الأسواق. وهو إن وجد يكون على شكل حلقات تزن الواحدة ربع أوقية. وفى هذه الحالة يأتى من سنار. وأما

المحبوب المصري، وغيره من العملات ذات القيمة الثابتة فإنها لا تستخدم في شراء أى سلعة. أما السلع المتداولة التي يتعاملون بها فيما بينهم، فهي غالبا ما ترتبط بزيتهم، مثل الأقمشة القطنية والحريية والكهرمان والكحل. وهم يبادلونها بالثيران والإبل والعبيد".

المدن التجارية في دارفور

كوبه Cobbe (١٧٩٣ - ١٧٩٦)

تناول برون في وصف كوبه موقع المدينة الجغرافي وأهميتها التجارية وطبيعة الحياة فيها، والقرى التي تحيط بها، والجاليات التي تعيش فيها من أقاليم السودان الأخرى ممن استوطنوا في المدينة منذ عدة سنوات، والنشاط التجاري الذي تمارسه، إذ يقول "إن كوبه تتمتع بميزات العواصم. فهي مركز تجارى هام تقع على الطريق الذي يخترق دارفور من الشمال إلى الجنوب. وتكثر بها أشجار النخيل وأشجار النبق. ويحصل الأهالي على الماء اللازم عن طريق الأحواض في موسم الأمطار، وعن طريق الآبار التي لا تراعى الدقة والمهارة في حفرها، فيترتب على ذلك تدهور جدرانها وعدم إمكان الانتفاع بها أكثر من ثلاثة أو أربعة أشهر متلاحقة". [ص: ٢٣٤، ٢٣٥]

ثم يحدثنا عن سكان كوبه من التجار موضحا الدور التاريخي الذي قام به سكان ضفاف النيل الذين هاجروا إلى دارفور في فتح طريق الاتصال التجاري المباشر بين دارفور ومصر يقول "إن الجانب الأكبر من سكان كوبه من التجار. ومعظم هؤلاء التجار يتاجرون مع مصر. كما أن بعضهم من أهل دارفور، لكن العدد الأكبر منهم جاءوا من على ضفاف النيل. ويبدو أن هؤلاء الأخيرين هم الذين بدأوا بفتح طريق الاتصال المباشر بين المصريين والفور، ذلك أنه منذ عدة سنوات كانت أوطانهم في دنقلة والمحس وجميع ضفاف النيل حتى سنار جنوبا ذات الموارد والخيرات الطبيعية التي تفوق موارد وخيرات دارفور، مسرحا للنهب وسفك الدماء. فكانت الانقسامات الداخلية تمزق شملها على الدوام، فهاجروا من بلادهم، ولاذ الكثير منهم بالجهات الغربية (دارفور). ولما كان هؤلاء قد اعتادوا الاتصال بمصر بأسهل الطرق وأقصرها، وكانوا يجنون من وراء ذلك أرباحا طائلة، فإنهم عندما حلوا بالبلاد الغربية راودتهم فكرة إمكان الاتصال بمصر مرة أخرى عن طريق آخر يحصلون منه على ما كانوا يحصلون عليه سابقا من أرباح، ففتحو ذلك الطريق الذي يسلكه الجلابة الآن من مصر إلى كوبه بدارفور". [ص ٢٤٠] وعن سكان كوبه الآخرين يقول: "وفي كوبه بعض المصريين، وبخاصة من الصعيد، وقليل من التونسيين ومن مواطني طرابلس، وبعضهم يأتون مع القوافل لبيع بضائعهم ثم يعودون إلى بلادهم، إلا أن البعض الآخر تزوجوا مع أهل دارفور وتطبعوا تماما بطباع الفور وأصبحوا

من رعايا السلطان. [ص ٢٤٠] ويصف النشاط التجاري لسكان مدينة كوبة بقوله "وباقى سكان كوبة من دنقلة والمحس وسنار وكردفان المشهورين بنشاطهم الفائق فى مضمارة التجارة. ولكنهم مغامرون شجعان مثيرون للفتنة مما دفع السلطان الحالى إلى بذل الجهد لإقصائهم من بلاده. كما توجد أيضاً سلالة الذين كانوا قد هاجروا إلى دارفور وولدوا فى دارفور ذاتها". [ص ٢٤٠] وعن تجارة الرقيق فى سوق المدينة يقول: "إنه برغم أن الرقيق يؤتى به إلى السوق فى بعض الأوقات، إلا أنه يباع سرا على انفراد، إذ ينظر إليه على أنه عمل شرير، طالما فيه تيسير لبيع أشخاص مسروقين من بقاع أخرى". [ص ٢٤٣]

ويتعرض برون للمدن الأخرى مثل سوينى وكرمة [ص ٢٢٨] (تيسيرا Teiara) وكويكاييا [ص ٢٢٨] ورييل ببعض التفصيل. كما يصف مدناً أخرى أقل أهمية بإيجاز مثل شبة Shaba [ص: ٢٣٦ - ٢٢٧] وجديد Gidid وكورس Cors وجله Gelle وفى كل هذه المدن يقدم رصداً للنشاط الاقتصادى والسكان.

مصادر البحث

أولاً- المصدر الأصلى

1- Broune, W.G. Travel in Africa, Egypt and Syria from the year 1792 - 1788, London, 1799.

ثانياً- المصادر الثانوية

1- Budge, A.E.W. The Egyptian Sudan: In history and Monuments. (2 Vols), London, 1907.

2- Hill, R.L.A Biographical Dictionary of the Anglo Egyptian Sudan, Oxford, 1951.

3- Des Cription de L`Egypte, Tome.

الفصل الثالث

الرحالة "لويس بوركهارد Burchard" (١٧٨٤ - ١٨١٧م)

ظروف رحلته في النوبة والسودان (١٨١٣ - ١٨١٤م):

هو عمدة الرحالة الأوربيين الذين زاروا بلاد النوبة والسودان في العصر الحديث، لما امتاز به من دقة الملاحظة والمشاهدة، وتحري الصدق والأمانة فيما أمدنا به من معلومات قيمة شملت مختلف نواحي الحياة في أقاليم النوبة والسودان التي قدر له زيارتها ولقد حاز إعجاب وتقدير الرحالة الذين زاروا النوبة والسودان من بعده، وشهدوا له بصدق رواياته. ولذلك تحظى المعلومات التي جاء بها عن النوبة والسودان باهتمام وتقدير الدارسين والباحثين في تاريخ السودان الحديث خلال تلك الفترة.

ولد "جون لويس بوركهارد" Burchard في لوزان عام ١٧٨٤م. والتحق وعمره ستة عشر عاماً بجامعة "ليبيج Leipzig"، حيث درس بها أربع سنوات. ومن "ليبيج" سافر إلى كوتنجن "Cöttigen". ثم تركها عام ١٨٠٥ إلى "بازل Basle" ثم سافر إلى لندن عام ١٨٠٦ وعرض خدماته على الجمعية الإفريقية وقبل طلبه. وفي يناير عام ١٨٠٩ تلقى تعليمات الجمعية عن الرحلة المزمع أن يقوم بها إلى الشرق العربي. ومنذ ذلك الوقت أخذ "بوركهارد" يعد نفسه لهذه المهمة فدرس اللغة العربية التي تفيده في رحلته، وتلقى محاضرات في الكيمياء والتعدين، والطب، والجراحة. وفي فترات الفراغ بين هذه الدراسات أخذ يعد نفسه ويدربها على القيام بالرحلات الطويلة مشياً على الأقدام حافي الرأس تحت وطأة حرارة الشمس. وكذلك النوم على الأرض، والاعتماد في الطعام على أنواع من الخضر [ص: ٢٩ Budge].

وفي عام ١٨٠٩م أبحر من إنجلترا إلى طرابلس الشام. وظل في سوريا عامين ونصف العام. وكان يعرف هناك باسم "إبراهيم بن عبد الله" وهو الاسم الذي كان قد اتخذته لنفسه أول الأمر في مالطة. ثم أصبح بعد ذلك يقترب بلقب "حاج" وقد ساعدت إقامته في سوريا على زيادة معلوماته في اللغة العربية زيادة كبيرة واتساع دائرة معرفته وخبرته بها. كما أحاط علماً بالعادات والتقاليد الشرقية التي اشتهر بعد ذلك بالإلمام بها. وفي فبراير عام ١٨١٢ غادر "بوركهارد" طرابلس الشام إلى القاهرة التي وصل إليها في ٤ سبتمبر من نفس العام. وفي نوفمبر من العام نفسه كتب "بوركهارد" إلى مجلس إدارة الجمعية الإفريقية في لندن يخبره بأنه عزم على الرحيل إلى النوبة في شهر ديسمبر ويقول في

رسالته "إن هذه البلاد أبعد من الدر ولم يقم أى سائح بزيارتها من قبل، مع أنها كما علمت تكثر بها المعابد القديمة وغيرها من الآثار الشبيهة بآثار الأقصر وجزيرة فيلة. وأن استقرار وهدوء الحالة في مصر يجعل القيام بهذه الرحلة أقل صعوبة مما نتصور خلال القرن الماضي، لأن باشا مصر هو السيد المطلق للبلاد، وعلى علاقة ودية مع أمراء النوبة. ولو أنه على غير ذلك مع المماليك الذين استقروا في دنقلة وامتلكوا هذا الإقليم وإنى أمل أن أصل إلى ذلك الإقليم، ولكن سوف لا أعرض نفسي لغدرهم. وسوف أكون مسروراً بالتقدم في رحلة تستغرق خمسة أو ستة أيام إلى الجنوب من دنقلة. وربما يكون ذلك بالتوغل في الصحراء النوبية."

غادر "بوركهارد" القاهرة في ١١ يناير عام ١٨١٣، ووصل إلى أسوان في ٢٢ فبراير (عام ١٨١٣). وقد أمده حاكم المدينة بدليل حتى الدر التي وصل إليها بعد أربعة أيام. وبعد ثلاثة أيام أخرى وصل إلى الشلال الثاني شمال وادى حلفا. ثم إلى السكوت وجزيرة صاي بعد أن اخترق صحراء بطن الحجاز الصخرية. وبعد أن وصل إلى "تنارة" Tanara (التي تقع جنوب أسوان بمسافة تقدر بين ٤٣٠ و ٤٥٠ ميلاً) رجع إلى مصر بعد أن استغرقت رحلته من أسوان إلى تلك المدينة ذهاباً وإياباً ٣٥ يوماً [ص ٣٠] وعند رجوعه سكن في إسنا. واستمر يرتدى زى تاجر مسلم فقير. وأخيراً عزم على مرافقة إحدى قوافل سنار عند مغادرتها دراو التي تبعد حوالي عشرين ميلاً شمال أسوان، أملاً في الوصول إلى نهر العظيرة بعد رحلة عبر الصحراء النوبية شرق النيل. وقد غادر "بوركهارد" بالفعل دراو مع قافلة سنار في مارس عام ١٨١٣ وعبر صحراء النوبة، وهو نفس الطريق تقريباً الذي سلكه "جيمس بروس James Bruce" عند رجوعه من الحبشة قبل ذلك التاريخ بأكثر من خمسين عاماً. ونزل بربر على النيل، ثم انتقل إلى شندي، حيث السوق الرئيسية لتجارة الرقيق، والتي تقع عند ملتقى طرق القوافل بين مصر شمالاً وسنار جنوباً ودارفور وكردفان غرباً. ومن شندي سلك طريق نهر العظيرة إلى قوز رجب، ومنها إلى التاكا أو كسلا، حيث كان يهدف إلى عبور المرتفعات شرقاً إلى مصوع على البحر الأحمر. ولكن وجد أن ذلك غير ممكن. ولذا غادر التاكا إلى سواكن التي وصل إليها في ثلاثة عشر يوماً. ومن سواكن أبحر إلى جدة التي وصل إليها في ٤ أغسطس عام ١٨١٤م [ص ٣١ - ٣٢]

بوركهارد في إقليم النوبة:

الأوضاع السياسية في النوبة الشمالية قبل مجيء حملة إسماعيل لقد كشف الرحالة "بوركهارد" أثناء رحلته في بلاد النوبة عام ١٨١٣ عن حقيقة الأوضاع السياسية في ذلك الإقليم السوداني في الفترة التي سبقت مجيء حملة إسماعيل

بن محمد على باشا والى مصر، لضمها إلى الإدارة المصرية (١٨٢٠/١٨٢١م)، وهو ما يعتبر في واقع الأمر صفحة هامة مطوية في تاريخ السودان الحديث لم يسبقه في الكشف عنها أو دراستها أحد من الرحالة الأوربيين الذين سبقوه إلى زيارة بلاد النوبة، مثل الرحالة "جيمس بروس James Bruce" الذى زار تلك البلاد عند عودته من الحبشة إلى مصر عام ١٧٧٢م. وإذا كنا نفتقر إلى المزيد من المعلومات عن الأوضاع السياسية فى أقاليم السودان الأخرى فى تلك الفترة التى قامت فيها سلطنات وممالك وطنية مثل سلطنة الفونج فى إقليم سنار، وما تبعها من بلاد النوبة الجنوبية، وسلطنة الفور فى إقليم دارفور، ومملكة تغلى بالسودان الغربى، فإن معلوماتنا عن الأوضاع السياسية فى النوبة الشمالية وقتذاك أقل بكثير، وتكاد أن تكون مجهولة لنا لولا ما أمدنا به الرحالة "بوركهارد" فى هذا الشأن، بالإضافة إلى ما جاء به الرحالة "وادنجتون" الإنجليزي الأصل. بيد أن "وادنجتون" لم يتناول ما تناوله الرحالة "بوركهارد" من أحداث وأوضاع سياسية أخرى بالتفصيل فى بلاد النوبة الشمالية قبل قدوم حملة إسماعيل إليها.

يقول عن الحكام الكشاف "إنه فى أثناء زيارته للنوبة (عام ١٨١٢) كان هؤلاء الحكام ثلاثة يطلق عليهم اسم كشاف. وهم إخوة أولهما حسن كاشف، وحسين كاشف. [ص ٥٨] وهؤلاء الإخوة هم أبناء سليمان كاشف، وأن أحدهم المدعو حسن يقيم فى الدر [ص ٢] وحدود أمراء النوبة تقع عند الجبهة الجنوبية لبريه Bribe، وهى قرية صغيرة مقابل فيلة التى تدخل فى نطاق هذه الحدود [ص ١٢٩ ، ١٣٠]. وإلى الشمال من فيلة تبدأ حدود أسوان التابعة لمصر [ص ٥ ، ١٣٠] ويضيف بوركهارد "أن مختلف المزارع الممتدة من هنا إلى أسوان شمالاً تكون جزءاً من حدود قرية بريه، وهى تتمتع بمقتضى فرمانات قديمة من الباب العالى بإعفاء شامل من جميع أنواع ضريبة الأرض. وأن الحكومة التى تخضع لها حكومة الرؤساء النوبيين".

أما عن علاقة هؤلاء الحكام الكشاف بمحمد على والى مصر فيذكر "بوركهارد" أن أولئك الحكام كانوا يؤيدون المماليك ويعارضون محمد على. ويستدل "بوركهارد" على ذلك "بأن محمود كاشف ظنه عند قدومه إلى بلاد النوبة أنه سائح من رجال محمد على" [ص ٥٨] ولكن حدث أن وقع خلاف بين الإخوة الثلاثة حكام النوبة [ص ١٣٦]. كما يروى "بوركهارد" - فاستعان أحدهم وهو محمود كاشف بإبراهيم باشا الذى أرسل جيشاً إلى بلاد النوبة وصل إلى جنوب الشلال الثانى عند وادى حلقا. ويضيف "بوركهارد" إلى ذلك "أن هدف حملة إبراهيم كانت القبض على أتباع حكام النوبة (المماليك) الذين لاذوا بالفرار، ولكن الحملة فشلت. [ص ١٣٦]

ويقول "بوركهارد" "ومجرد أن انسحب الأتراك عاد الكشاف إلى الدر وفى عودتهم جمعوا هم أيضاً ضريبة الأرض من رعاياهم الذين أصبحوا معرضين لطمع الأتراك وطمع حكامهم. وكل منهما لا يرحم وذلك لعدم استقرار الحكم فى تلك البلاد". [ص ١٣٦] ويصف طابع الظلم والاستبداد الذى تميز به حكم هؤلاء الحكام الكشاف لرعاياهم من

النوبيين وصفاً معبراً يقول فيه "إذا عسكر الحكام فى بقعة ما أثناء انتقالاتهم، فإن أهالى تلك البقعة يهجرون قراهم، إذ يفضلون ترك حقولهم ومحاصيلهم على الخضوع لابتزاز أتباع أولئك الحكام الذين يتركون عادة خيولهم وإبلهم ترعى وسط الحقول (حقول الشعير)، بينما يقومون هم بجمع الحصر من البيوت التى هجرها أهلها، لنقلها إلى معسكر الحكام، حيث تستخدم كوقود." [ص ٥٨] وهناك بقايا أخرى من الحكم التركى فى شمال بلاد النوبة حدثنا عنها الرحالة "بوركهارد" خلال زيارته فى هذه الجهات (عام ١٨١٣) بقوله "حكام صاى واسون وإبريم بما يتبعهم من حدود، مستقلون عن حكام النوبة. وعلى كل منطقة من هذه المناطق حاكمها الخاص أو الأغا. ويرجع تاريخ هؤلاء الأغوات إلى عهد سليم الأول (سلطان تركيا) الذى أرسل جنود البوشناق لحراسة تلك الجهات وقد ظلت سلالات هؤلاء الجنود تعيش فيها بعد ذلك." [ص ٥٥]

ويحدثنا "بوركهارد" عن وضعهم السياسى بالنسبة للقوى الحاكمة فى شمال بلاد النوبة، ونشاطهم التجارى، وما فعله المماليك الفارين من مصر بشرواتهم عند مرورهم ببلادهم خلال تدهورهم نحو الجنوب قائلاً "إنهم خاضعون لأغا إبريم مستقلين عن حكام النوبة، أحرار من دفع الضرائب. وهم أيضاً لا يدفون شيئاً للأغا. وقد استطاعوا بمضى الزمن أن يكونوا لأنفسهم ثروة مالية وحيوانية عن طريق بيع التمر. ولكن المماليك فى أثناء تدهورهم عام ١٨١٢ أبادوا فى بضعة أسابيع ما جناه هؤلاء الأتراك فى قرن. إذ استولوا من إبريم على ما يقرب من ١٥٠٠ رأس من البقر، وجميع الضأن والماعز. وسجنوا الشخصيات البارزة منهم، وطالبوا بمليون دولار أسباني فدية لهم. وعند رحيلهم (رحيل المماليك) قتلوا الأغا، وسلبوا ونهبوا كل المؤن التى صادفتهم فى طريقهم. وأعقب ذلك مجاعة..." [ص ٣٣]

ويصف "بوركهارد" حالة الحرب المستمرة بين هذه السلالات التركية وحكام النوبة بقوله "وسكان إبريم فى حالة حرب دائمة مع حكام النوبة. وبالرغم من قلة عددهم فإنهم يمثلون شوكة فى حلق هؤلاء الحكام، إذ أنهم مزودون بالأسلحة النارية. وبالنظر إلى عدم خضوعهم للأغا خضوعاً مطلقاً، ومستقلين عن أى سلطة أخرى فهم دائماً فى معارك فيما بينهم." [ص ٣٤]

وهؤلاء الرؤساء كانوا حكاماً على القبائل العربية التى تقطن مناطق النوبة المختلفة، وفى الوقت نفسه يدفعون الجزية عن شعوبهم لحكام النوبة (الكشاف) الذين سبق الحديث عنهم. وهو ما يكشف عن حقيقة الرحالة "بوركهارد" أثناء زيارته لهذه المناطق. ويضيف "بوركهارد" إلى ذلك "أن هؤلاء الأشراف يدفعون جزية بسيطة لملكهم الذى يدفع بدوره جزية إلى حكام النوبة الذين يستولون على ما يصادفونه فى طريقهم من ممتلكات هؤلاء العرب عند مرورهم بطن الحجاز." [ص ٦٣]

ويذكر أيضاً الرحالة "بوركهارد" فى موضع آخر من كتاب رحلته "أنه على واد حميد يوجد ملك قبيلة حميد العربية. وهو يدفع الجزية لحكام النوبة." [ص ٥٦] كذلك يذكر أنه

في المحس، حيث يدعى السكان أنهم ينتمون إلى قبيلة قريش، وأنهم جاءوا إلى هنا في فترة زحف القبائل العربية على مصر والنوبة، يوجد ملك يجمع الدخل من مملكته ويقدم جزية سنوية أخرى لهؤلاء الحكام. [ص ٦٤] ويستطرد الرحالة "بوركهارد" قائلاً "وإلى الجنوب من المحس عبر النيل حتى سنار يوجد ما يقرب من عشرين مملكة أو ملك يتمتعون بالاستقلال ولهم سلطة غير مقيدة (مطلقة) على رعاياهم ويستبدون بممتلكاتهم. [ص ٦٤]

اتساع سطوة الشايقية وسيطرتهم على دنقلة:

يضيف "بوركهارد" نزعة الشايقية القتالية وقوتهم العسكرية التي كانت في واقع الأمر يكمن من ورائها اتساع سطوتهم في بلاد النوبة وخارجها في أقاليم السودان الأخرى المجاورة بقوله "إن الشايقية يعتبرون من أقوى الشعوب التي تقع إلى الشمال من سنار. وهم خيالة مهرة كما هو شأن المماليك في مصر. يميلون إلى القتال وهم في حرب دائمة بينهم، إذ يتكونون من عدد من القبائل. كما أنهم يقومون بغارات النهب والسلب التي تمتد أحياناً إلى دارفور غرباً وإلى وادي حلفا شمالاً. وهم مستقلون تمام الاستقلال ولا يدفعون أية ضريبة لرؤسائهم." [ص ٦٩ ، ٧٠]

ثم يصف الأوضاع السياسية في دنقلة، وما كان من أمر ازدياد نفوذ الشايقية فيها، وبخاصة السيطرة عليها قبل قدوم المماليك الفارين إليها من مصر عقب مذبحه القلعة فيقول "إن دنقلة منذ زمن كانت تحكمها أسرتان: أسرة الزبير وكانت تحكم المقاطعات الشمالية، وأسرة "فنية" Funnya وكانت تسيطر على الجهات الجنوبية. بيد أن هذه الأسر لم يكن لها سوى السلطة الإسمية. أما السلطة الحقيقية فقد كانت بيد الشايقية الذين اعتادوا أن يشنوا غارات السلب والنهب على دنقلة، ويقومون بتخريب مقاطعاتها. وقد قاوم رؤساء دنقلة هؤلاء الشايقية حتى قتل أغلب زعماء قبيلة "فنية". واضطر الباقي منهم إلى الدخول في اتفاق أو معاهدة مع هؤلاء الغزاة تعهدوا بمقتضاها أن يسلموا الشايقية نصف دخل الإقليم ثمناً لامتناعهم عن أعمال السلب والنهب الذي اعتادوا القيام بها." [ص ٧١]

ويستطرد "بوركهارد" "ومنذ ذلك الوقت عاشوا في سلام ولكن نظراً لاستقرار الشايقية في دنقلة والخندق وأرقو بقصد جمع نصيبهم من الدخل، فقد ترتب على ذلك انتشار نفوذهم في جميع أجزاء إقليم دنقلة. وسرعان ما أخذ سلطانهم في هذه الجهات في الرجحان. وعندما وصل المماليك إلى أرقو على أثر فرارهم من مصر رحب بهم زعيم الشايقية الأكبر محمود عدلاناب Adelanab بحكم طبيعة الكرم التي جبل عليها قومه. لكنهم انقلبوا عليه لاحقاً وقتلوه. [ص ٧١ ، ٧٢]

فشل محاولة المماليك الاستيلاء على مروى :

ويعرض "بوركهارد" في وصف تلك الأحداث، فيحدثنا عن نشوب الحرب بين المماليك والشايقية، وما كان من فشل محاولة المماليك الاستيلاء على مروى أهم مراكز الشايقية "ومنذ ذلك الوقت استمرت الحرب سجلاً بين الشايقية والمماليك الذين زحفوا في يناير عام ١٨١٣ بكل قوتهم نحو مروى. ولكن بينما هم متجهين جنوباً عبرت جماعة من الشايقية الجبال ودهمت مؤخرة المماليك، فقتلوا أتباعهم القلائل الذين تركوهم في أرقو والخندق، ونهبوا ما تبقى من ممتلكاتهم. وقد ترتب على ذلك عدم استطاعة بعض بكوات المماليك في الدر الاتصال برفقائهم، فظلوا في حصن الحنك والمخس، حيث المواقع المنيعه. على أن المماليك وقد فشلوا في محاولتهم ضد مروى رجعوا إلى دنقلة." [ص ٧٢، ٧٣]

خطط المماليك التوسعية خارج السودان :

ويشرح لنا "بوركهارد" الخطط التوسعية التي جالت بخواطر المماليك بعد فشل محاولتهم للاستيلاء على مروى وعودتهم إلى دنقلة قائلاً "وكان أمام المماليك خطتان إما أن يضربوا ضربتهم اليائسة على مصر العليا إذا واتتهم الظروف رغم أن يقظة محمد على لم تكن لتدع لهم أقل فرصة لنجاح خططهم في هذه الجهات. أو أن يحاولوا الاستيلاء على ميناء على البحر الأحمر، حيث يمكنهم عن طريقه أن يجددوا قواهم باستيراد الرقيق الصغار من جورجيا. وقد كان ميناء مصوع خير مكان مناسب لتنفيذ هذا المشروع، إذ يبعد عن مقرهم الحالي مسافة ٢٢ يوماً، منها ٤ أيام عبر الصحراء إلى شندى و١٨ يوماً منها إلى مصوع عبر طريق معظمه أراضٍ زراعية." [ص ٧٣]

أحوال المماليك في دنقلة (عام ١٨١٣) :

ويصف "بوركهارد" أحوال المماليك في دنقلة وقت زيارته لها عام ١٨١٣ بقوله "والآن ليس لديهم (المماليك) المال. بيد أنهم يملكون عدداً كبيراً من العبيد الذين بواسطتهم يستطيعون شراء كل شيء. فالعبد يمثل نوعاً من العملة المتدولة في المناطق الجنوبية. وقد مات عدد كبير منهم في صيف عام ١٨١٣ تحت تأثير الحمى التي تجتاح عادة دنقلة في الفصل الحار، فتتقضى على عدد كبير من السكان. ونظراً لعدم قدرتهم على تحمل الحرارة بملابسهم الصوفية السمكية التي اعتادوا ارتداؤها، فإنهم شيدوا عدداً من الأكواخ الخشبية التي كانوا يظلونها بالحصر. وقد كان عبيدهم يحرصون على حفظها دائماً مبللة، ويقضون طول مدة الصيف على أسطح تلك الأكواخ الخشبية." [ص ٧٣]

مشاهدات «بوركهارد» ودراساته في إقليم بربر

نظام الحكم في إقليم بربر :

يقدم لنا "بوركهارد" في حديثه عن نظام الحكم في إقليم بربر خلال زيارته للإقليم عام ١٨١٣ معلومات تاريخية هامة عن النظام الذي اتبعه ملوك سنار - زمن حكم أسرة الفونج- في حكم أقاليم السودان الذي امتد نفوذهم إليها، ومن بينها إقليم بربر، ويحدد لنا في الوقت نفسه الحدود الشمالية لامتداد نفوذهم، إذ يقول "عندما بسط ملك سنار سلطانه - زمن حكم أسرة الفونج- على البلاد الواقعة شمالاً عبر النيل حتى حدود المحس الجنوبية، أخذ يعين على قبائل تلك الجهات ملوكاً يختارهم من بين هذه القبائل. وكان الملك لا يتوارث، إذ عقب وفاة الملك أو الملك يقوم ملك سنار باختيار من يعجبه من أسرة المتوفى، أو يبيع هذا المنصب لمن يدفع أكثر من بين أفراد تلك الأسرة. وهذا النظام كان متبعاً في قبيلة الميريفاب القاطنة بإقليم بربر." [ص ٢١١] وعدا ذلك فقد كانت سلطة سنار على هذه الجهات اسمية.

ويصف "بوركهارد" نفوذ الملك الذي يعينه ملك سنار على أفراد قبيلته بقوله: "إن نفوذ الملك ضعيف على أفراد قبيلته، وبخاصة الذين ينتمون إلى أسر قوية، كما أنه لم يكن يستطيع أخذ ضرائب على حقولهم ومنتجاتهم. بيد أنه كان يظلم الغرباء، الذين كان يجمع منهم أكبر نصيب من الدخل." [ص ٢١١]

الزراعة في إقليم بربر :

يصف "بوركهارد" الزراعة عند الميريفاب سكان إقليم بربر الأصليين وصفاً معبراً عن حقيقة مكائنتها في حياة هؤلاء السكان "بعض الميريفاب يشتغل بالزراعة والبعض الآخر بالرعي (١). ويقومون بزراعة الأرض عقب الفيضان. وهم يزرعونها ذرة وقليل من الشعير. ويملكون عدداً قليلاً من السواقي لا يزيد عددها على أربعة أو خمسة في قرية أنقهيري Ankheyre وقرية الحصا Hassa (وهي من القرى الأربع التي يتكون منها إقليم بربر)" [ص ٢٢٠]

ويصف وسيلة أهل بربر في زراعة الأرض والنظام المتبع في ربيها، ويقارن ذلك بما هو متبع في مصر العليا بقوله "وقبل زراعة الأرض يقومون بتقليبها بلوح من الخشب. وأما المحراث فغير متداول بينهم. وقد استخدمه أحد المصريين عام ١٨١٣ لأول مرة. وهم

يزرعون الأرض مرة واحدة في السنة (عقب الفيضان). ولما كانت شواطئ النهر مرتفعة في جملتها أكثر من الوجه القبلي (مصر العليا) ، فإن كثيراً من البقاع الصالحة للزراعة تظل دون أن تفيض عليها مياه النهر. وهذا القصور لا يعوض بالرى الصناعي كما هو حادث في مصر العليا من أجل الحصول على عدة محاصيل من نفس الأرض. ولذلك كثيراً ما تنتشر بينهم (سكان بربر) المجاعة كما حدث عام ١٨١٣م، حيث بيع مد (كيل من المكاييل الذي تكال به الحبوب) بنصف دولار أسباني. [ص ٢٣٠] ويقارن بين حال الزراعة في بربر وقت زيارته لها عام ١٨١٣ وما كانت عليه في الماضي القريب قائلاً "ويبدو أن الزراعة كانت منتعشة في هذا الإقليم من وقت غير بعيد أكثر من الوقت الحاضر، لأنه يلاحظ في الحقول آثار قنوات عميقة أصبحت الآن مهملة للغاية، بالرغم من أنه في الإمكان أن تحول بواسطتها حتى الأجزاء المجاورة للصحراء إلى سهل صالح للزراعة". [ص ٢٣٠، ٢٣١]

أما الغلات الزراعية التي كان أهل بربر يقومون بزراعتها "فهى الذرة، المحصول الرئيسي، بل والغذاء الرئيسي للإنسان والحيوان. والقمح يزرع في بربر، وقليل منه يوجد في الأقاليم المجاورة. والذرة من النوع الذي يوجد في مصر العليا، وإن كان يختلف عنه في السيقان التي تمتاز بأنها أكثر صلابة وطولاً، حيث يصل ارتفاعها بين ١٦ - ٢٠ قدماً. ويضيف "أنه لا ينمو من الخضر في إقليم بربر سوى البصل واللوبيا والبامية التي يطلق عليها في هذه الجهات اسم "ويكة"، والملوخية. وجميع هذه الأصناف شائعة في مصر. ولا تزرع الفاكهة في هذا الإقليم. وشجرة النبق هي النوع الوحيد المعروف هناك". [ص ٢٣١]

نظام المساكن في قرى إقليم بربر:

يصف "بوركهارد" منازل القرى التي يضمها إقليم بربر، ويقارنها بمنازل القرى في مصر العليا بقوله "من الملاحظ على القرى الأربع التي يشتمل عليها إقليم بربر وهي قرية أنقهييرى Ankheyre وقرية قوز السوق Goz Souk أو قوز وقرية قوز الفينة Goz el Funny وقرية الحصا cl Hassa على مسيرة نصف ساعة من النهر وقائمة في صحراء رملية على أطراف تربة صالحة للزراعة، ومنازلها مقسمة إلى أقسام (نزلات جمع نزلة) ولا توجد بينها شوارع منتظمة، بيد أنها مبنية بطريقة جيدة من الطمي أو الطوب اللبن، ولا تقل جودة عن منازل مصر العليا. وجميعها من طابق واحد. والمنزل مقسم إلى أقسام: قسمان منها مخصصان عادة لسكنى الأسرة، وقسم ثالث يستخدم كمخزن، وقسم رابع لاستقبال الضيوف، وقسم خامس يشغله عادة النساء العوام". [ص ٢١٢]

ويستطرد "بوركهارد" في وصف المسكن في قرى إقليم بربر قائلاً "ولا يوجد في

الحجرة سوى شبك صغير لا يعطى إلا ضوءاً بسيطاً. ومن هنا كان باب الحجرة دائماً مفتوحاً. والأبواب مصنوعة من الخشب، ولها أقفال ومفاتيح من الخشب، كما هو شائع في مصر وسوريا. بيد أنها صناعة رديئة. [ص ٢١٢]

نشاط أهل بربر الرعوى وثروتهم الحيوانية :

يتحدث عن نشاطهم الرعوى وثروتهم الحيوانية. وقد تناول في حديثه أنواع الحيوان التي يعنى أهل بربر بتربيتها بكثرة المراعى الطبيعية فى بلادهم، وهى البقر والإبل والأغنام، إلى جانب حرصهم على اقتناء الخيل لما تؤديه من خدمات فى حروبهم مع جيرانهم. وقد أشاد بصفة خاصة بالإبل التى تربي فى بربر والمكانة التى تحتلها فى الأسواق المصرية. بيد أنه أشار فى الوقت نفسه إلى حاجة أهل بربر المستمرة إلى أنواع الحمير التى تربي فى مصر والتي تمتاز بسرعتها، والأغراض التى تستخدم فيها.

يقول "بوركهارد" فى وصف نشاط أهل بربر الرعوى على مدار فصول السنة "إن أهل بربر يقومون بتربية أعداد كبيرة من القطعان التى تمتاز بأنهما من أجود الأنواع. وهم يراعون هذه القطعان فى الشتاء والربيع. عقب سقوط الأمطار على مرتفعات البشارية، حيث يعيشون عيشة البدو فى الأكواخ والخيام. ويضيف "أن الأبقار تربي فى بربر من أجل ألبانها، وأساساً من أجل لحومها. والقليل منها من أجل إدارة السواقي". [ص ٢٢١ - ٢٢٢]

أما عن إبل أهل بربر فيصفها الرحالة "بوركهارد" بأنها من أجود الأنواع ويقارنها بالإبل المصرية قائلاً "إنها أكثر قوة وتحملاً للتعب من أنواع الإبل المعروفة فى مصر". ويضيف "أن الهجين فى بربر تفوق أنواع الهجين الموجودة فى سوريا وبلاد العرب. [ص ٢٢٢] ويصف "بوركهارد" إقبال محمد على والى مصر والمصريين عامة على إبل بربر وقت زيارته لمصر والسودان (١٨١٣ - ١٨١٤) بقوله "يلاحظ فى الوقت الحاضر إقبال كبير على إبل بربر فى أسواق مصر، حيث يشتريها باشا مصر من أجل إرسالها إلى بلاد العرب لنقل المؤن. وفى كل شهر يخترق الصحراء ثلاثمائة أو أربعمئة جمل. والجمل يساوى فى بربر ما بين ثمانية وأثنى عشر دولاراً، بينما يباع فى دراو بثمانين يتراوح بين ثلاثين وأربعين دولاراً، وفى القاهرة بين خمسين وستين دولاراً". [ص ٢٢٢]

وعن اقتناء الحمير والخيول فى بربر يقول "إن كل أسرة تمتلك تقريباً حمارين وهو من النوع القوى، ويستخدم أساساً فى نقل المحاصيل الزراعية من الحقول إلى المنزل، وكذلك حمل "السيخ" (السماد) الذى يحصلون عليه من الجبال. والفلاحون يغطون حقولهم بهذا النوع من التراب (السماد) قبل بذر البذور ليزيد من خصوبة الأرض". [ص ٢٢٢] أما الخيل فإنها تكثر (فى بربر)، وكل عائلة محترمة تحتفظ بواحد منها

على الأقل. ويركب عرب المناطق النوبية ذكور الخيل (الفحول) فقط. ويستخدم الميريفاب (سكان بربر) الخيل في خروجهم مع جيرانهم. والفرسان هم الذين يقررون عادة مصير المعركة. [ص ٢٣٢ - ٢٣٣] ويقول "بوركهارد" عن تربية الخيل في بربر: "والخيل (في بربر) تربي على الذرة. وتستخدم أوراقها الجافة بدلاً من العشب. وفي الربيع لعدة أسابيع ترعى الخيل على الشعير الأخضر. ويتراوح سعر الخيل من خمسة عشر إلى أربعين دولاراً. ولا يسمى في بربر باسم حصان كما هو شائع في مصر، وإنما يطلق عليه اسم "حافر". [ص ٢٣٣] ويستطرد قائلاً "والسرج المستعملة في دنقلة وسنار والحبشة تشبه تلك التي يستخدمها فرسان أوروبا. ولبس الخيل التي تغطي به ظهرها وجوانبها ورقبتها وصدرها مصنوع من الصوف والقطن السميك، وهو يحمي هذه الخيل من السيوف والرماح أثناء الحرب. ويلاحظ أن هذا اللبس الذي يستخدمه أهل بربر مصنوع بطريقة أكثر إتقاناً ورغم أنه خفيف الوزن إلا أنه متين أكثر مما يستخدمه البدو والشرقيون." [ص ٢٣٣]

الصناعات البسيطة في بربر:

لقد أشار "بوركهارد" إلى بعض الصناعات البسيطة التي كان أهل بربر يقومون بصناعتها لخدمة بعض أغراض الحياة في إقليمهم، ومنها ما أشار إليه في حديثه عن نظام المساكن، وهي الأبواب الخشبية ذات الأقفال والمفاتيح المصنوعة من الخشب التي وصفها "بأنها شبيهة بما هو شائع في مصر وسوريا، ولكنها صناعة رديئة"، [ص ٢١٣] لذلك ذكر عدم وجود أثاث في المسكن سوى كنية أو سرير وأن مثل هذا السرير له مقعد من القصب الغاب ويطلق عليه اسم سرير. وأما النوع المصنوعة قاعدته من جلد الثور والذي يطلق عليه اسم "العنجريج"، وهو من أجود الأنواع، فيستورده أهل بربر من سنار. [ص ٢١٣]

على أن هناك صناعة أخرى تتعلق بالدهون المعطرة، يبدو أن أهل بربر قد اشتهروا بصناعاتها وأتقنوا تركيبها. وقد وصفها بقوله "إن أهل بربر يقومون بصناعة دهان معطر، يدعون أن له تأثيراً كبيراً في تنبيه الجسم وتنشيطه، بالإضافة إلى قدرته على تنعيم الجلد." [ص ٢١٦]

ويضيف أنه استخدم شخصياً هذا الدهان، إذ دهن منه أطراف جسمه وصدره، فوجد أنه يخفف من حدة حرارة الشمس. [ص ٢١٦] ويستخدمه الرجال عادة قبل الاجتماع بنسائهم ويستخدمه الرجال والنساء. [ص ٢١٥، ٢١٦] ويصف مكونات هذا الدهان بأنه يتكون من دهن الكباش الممزوج بالصابون والمسك وخشب الصندل، مضافاً إليه المحلب والسنبيل. [ص ٢١٥] "إن هذا الدهان المعطر له رائحة طيبة" [ص ٢١٥]

التجارة في إقليم بربر :

تناول "بوركهارد" في حديثه عن التجارة في إقليم بربر جوانب هامة من النشاط التجارى فى هذا الإقليم تضمنت نزعة أهل بربر التجارية وميلهم إلى الاشتغال بالتجارة فى الأوقات التى لا يعملون فيها بالزراعة، وأثر ذلك فى اتساع نطاق التجارة فى بربر، فضلاً عن أهمية مركزها التجارى، حيث تمر بها قوافل التجارة القادمة من سنار وشندى وهى فى طريقها إلى مصر. [ص ٢٣٣] وقد شرح ظاهرة تفضيل التجار المصريين الذهاب إلى بربر عن التقدم جنوباً إلى شندى وسنار. لذلك تناول حركة السوق التجارية فى بربر وقارنها بشندى. كما تناول نظام التعامل التجارى بين أهل بربر، ووصف أيضاً حركة القوافل التجارية القادمة إلى إقليم بربر، وبخاصة قافلة دراو بمصر العليا. وأشار إلى المخاطر التى كان يتعرض لها من جانب اللصوص وقطاع الطرق، والجهود التى بذلها محمد على والى مصر قبل أن يضم السودان إلى مصر (عام ١٨٢٠/١٨٢١) - فى تأمين هذا الطريق الحيوى بمعاونة العباددة.

السوق التجارية فى بربر :

ويصف السوق التجارية فى بربر ويقارنه بشندى بقوله "إن أنواع التجارة التى يشتغل بها أهل بربر هى ذاتها التى يشتغل بها أهل شندى. بيد أن تجارة أهل بربر أقل من تجارة شندى، وذلك لعدم وجود علاقات تجارية مباشرة بين بربر والمنطقة الجنوبية، بخلاف شندى التى تزورها قوافل الرقيق من جميع الأقاليم، وهى تعتبر فى الوقت الحاضر (عام ١٨١٣) المدينة التجارية الأولى ربما فى أفريقيا وجنوب مصر وشرق دارفور. والرقيق وكل سلعة أخرى تعرض للبيع فى بربر تأتى من شندى." [ص ٢٣٥]

ويفسر لنا لماذا يفضل التجار المصريون - رغم ذلك - الذهاب إلى السوق التجارية فى بربر عن السفر إلى الأسواق الجنوبية مثل شندى وسنار، إذ يقول "إن المصريين يفضلون دائماً هذا السوق عن الأسواق الجنوبية رغم ازدياد الأسعار، لأنهم يستطيعون أن ينجزوا أعمالهم فى بربر بسرعة أكثر، كما أنه يمكنهم أن يلحقوا فى أول فرصة بأية قافلة من قوافل الإبل والرقيق التى تغادر بربر إلى دراو عبر الصحراء." [ص ٢٣٥] ويضيف "أن هناك عدداً كبيراً من التجار المصريين (من دراو بمصر العليا) يأتون إلى بربر ويبيعون بضائعهم، وحيث توجد عائلاتهم، كما أنهم ينتظرون القوافل القادمة من شندى. وأيضاً يوجد فى بربر عدد كبير جاءوا إليها من سنار." [ص ٢٣٧، ٢٣٩]. ويستطرد قائلاً "وبالرغم من ذلك فإن سوق بربر لا زالت لا تحوى إلا مقادير صغيرة من البضائع ولا تناسب إلا التجار المصريين من أصحاب رءوس الأموال الصغيرة." [ص ٢٣٦].

ويحدثنا عن بعض السلع التي شاهدها في سوق بربر وكان أهل إقليم بربر يستوردونها عن طريق بعض التجار بقوله "إن إقليم بربر يستورد التمر الجيد من المحس عن طريق تجار دنقلة، ويستخدم الأهالي هذا النوع من التمر في مناسبات غير عادية، فهم يغلونه مع الخبز واللحم واللبن. كما يستخدم الأهالي البن الذي ينمو في المرتفعات الجنوبية الغربية للحبشة، عن طريق تجار سنار. وهو يباع بسعر أرخص من السعر الذي يباع به بن مخا في مصر بمقدار ٢٠٪، مع أن النوعين متشابهان في الشكل والطعم. ولا يتناول البن في بربر إلا التجار والناس الذين يحتلون المقام الأول في المجتمع، وحتى الأخيرين لا يستخدمونه يومياً." وهناك أيضاً المنسوجات المصرية الراقية "إن نساء الطبقات الراقية في بربر يلبسن فوق قمصانهن ملابس ذات بطانة حمراء مصنوعة في المحلة الكبرى بدلنا مصر."

يصف نظام التعامل التجاري بقوله "إن التعامل بوجه عام في إقليم بربر، وجميع البلاد على الطريق الممتد منها إلى سنار يقوم على الذرة والدولارات الأسبانية. وجميع الأشياء ذات القيمة القليلة يقدر سعرها بالذرة التي وحدة كيلها "السلقا" (Salgas) أو اليد المملوءة. والثمانية عشرة "سلقا" تقدر "بمد". و"السلقا" عبارة عن كمية الذرة التي تسعها يد الإنسان البائع في حالة امتدادها. وعادة تحدث مشاجرات بين البائعين والمشتريين بسبب اختلاف أحجام الأيدي. وفي مثل هذه الحالة يستدعى شخص ثالث ليقوم بكيل الذرة. والعشرة "أمداد" (جمع "مد") تقدر بدولار. وبالرغم من وجود المكاييل الخشبية، فإن الأهالي لا يثقون فيها ويفضلون استخدام الأيدي عنها. [ص ٢٢٤]. ويضيف "أنه إلى جانب الذرة كوسيلة للتعامل في إقليم بربر يوجد الدمور وهو قماش من القطن رديء الصنع، ويصنع في الجهات المجاورة لسنار ويستخدمه أهالي تلك الجهات في صناعة ملابسهم. والقطعة الواحدة من الدمور تكفي لعمل قميص لرجل بالغ. ويطلق على هذه القطعة اسم "ثوب"، و"الثوب" ينقسم إلى "فردتين"، و"الفردة" الواحدة يستخدمها العبيد ليلفوا بها وسطهم. و"الفردة" تحتوي على "فتقتين لا تستخدم في شيء إلا كوحدة معاملة لشراء بعض الأشياء مثل التبغ." [ص ٢٢٤] ويوازن "بين التعامل بالذرة والتعامل بالقماش" "الدمور" في إقليم بربر قائلاً "والذرة على العموم وسيط للتعامل أكثر قبولاً لأن البائعين لا يأخذون دائماً "الدمور" بسعر السوق الحقيقي الذي يختلف عند قدوم كل قافلة من الجنوب." [ص ٢٢٤، ٢٢٥]

أما عن التعامل بالدولارات في إقليم بربر فيقول "إن العبيد والإبل والسلع الأخرى ذات القيمة الكبيرة يدفع ثمنها بالدولارات أو بثوب "الدمور" بيد أن السمسار يأخذ نصيبه ذرة يستبدلها في الحال بدولارات. وفي التعامل التجاري الدولاران يسميان "قسمة"، والأربعة دولارات عبارة عن مثقال، والثمانية دولارات نصف "وقية". والستة عشر دولاراً تسمى "بوما" Puma أو "وقية". وهذه المسميات مأخوذة أصلاً من أوزان الذهب. "فوقية"

الذهب تساوى فى الأصل حوالى ستة عشر دولاراً. ولكن هذه التقديرات أصبح لها مسميات ثابتة. فالسنة عشر دولاراً تسمى "وقية" حتى لو كانت وقية الذهب تساوى ثمانية عشر أو عشرين دولاراً." [ص ٢٣٥].

حركة القوافل التجارية إلى بربر :

إن المتتبع لحركة القوافل التجارية القادمة إلى بربر، كما يصفها "بوركهارد" يرى أنها كانت تأتي من خمس جهات مختلفة: وأول هذه القوافل وأهمها تلك التي كانت تأتي من دراو بمصر العليا، والثانية من شندى، [ص ٢٣٨] والثالثة من دنقلة، والرابعة من التاكا، والخامسة من سواكن على ساحل البحر الأحمر. ولقد وصف "بوركهارد" الطريق الصحراوي بين دراو بمصر العليا وبربر عبر صحراء النوبة الذي اعتادت أن تسلكه قوافل التجارة بين البلدين وصفاً دقيقاً أشار فيه إلى الآبار والأحواض الطبيعية التي تتجمع فيها المياه، وحدد المسافة بالأيام والساعات بين كل بئر وأخرى، ونوع المياه التي توجد فيها من حيث صلاحيتها أو عدم صلاحيتها للشرب، وأماكن استراحات القوافل على طول الطريق. كما قدر المدة التي يقطعها التجار عادة بين دراو وبربر بـ ١٦ أو ١٧ يوماً في حين قدرها بين بربر ودراو بـ ١٢ يوماً، وعلل الفرق في الوقت بين الرحلتين "بأن التجار عند رحيلهم من بربر يكونون مزودين بعدد وفير من الإبل يسهل لهم مهمة السفر وحمل السلع والمؤن." [ص : ١٧١ - ١٧٨ - ١٨٣ - ١٨٩].

ويقول "إن هذا الطريق الذي وصفه هو الطريق الوحيد الذي تسلكه القوافل من بربر إلى مصر، وهو أيضاً الطريق العام لقوافل سنار وشندى. وإن هناك طريقاً آخر إلى الغرب يمتد من بربر إلى سبع وهي قرية على النيل لا تبعد كثيراً عن الدر، ويقوم أهلها بتجارة الرقيق بهمة ونشاط. وهذا الطريق لا يجد فيه المسافرين إلا بئراً تسمى "مرات" وتتميز بوفرة مياهها ولكنها مرة المذاق." [ص ٢٠٧ ، ٢٠٨] يصف المخاطر التي كانت تكتنف طريق القوافل التجارية بين دراو بمصر العليا وبربر عبر الصحراء، إذ يقول "وأهم خطورة كانت تعترض هذا الطريق اللص نعيم زعيم عرب مقرات Magrat القاطنة بالقرب من النيل. هذا اللص اعتاد أن يعترض طريق القوافل عند بئر نعيم Nedjeym، إذ كان يحاط علماً بكل قافلة تغادر بربر. وكانت القوافل التي تحاول تجنبه بالسير إلى الشرق من تلك المنطقة يكون مصيرها أن تضل الطريق. وإذا ما حاولت السير على ضفاف النيل، فإنها تتعرض لكثير من الضرائب التي تفرضها عليها القبائل المتعددة القاطنة على تلك الضفاف. أضف إلى ذلك أن كثيراً ما يكون تجار القافلة في حالة عداة مع القبائل القاطنة بجوار النيل، الأمر الذي يجعلهم يتجنبون المرور بها، وبخاصة بعد مقتل نعيم على يد شيخ العبادة الذين اعتادوا قيادة القوافل في هذا الطريق. فأصبح عرب مقرات القاطنين بالقرب من النيل والذين ينتمى إليهم نعيم في حالة عداة مستحکم مع العبادة الذين كانوا

يتجنبون الاقتراب بالقوافل نحو تلك الجهات." [ص ١٩٠ ، ٢٠١]
وهناك خطر آخر كان يتهدد طريق القوافل التجارية بين دراو بمصر العليا وبربر أشار إليه الرحالة "بوركهارد" وقت زيارته لبلاد النوبة عام ١٨٨٢ بقوله " وفي الوقت الحاضر أصبح لا يوجد إلا اتصال بسيط بين بربر ومقرات أو الجهات النائية من إقليم الشايقية باستثناء الحجاج والزنوج الذين يسلكون الضفاف المسكونة على جانب النيل في طريقهم إلى مصر. فالحرب القائمة الآن بين الشايقية والمماليك وفي دنقلة لا تساعد على وجود علاقات تجارية." [ص ٢٥٦]

وأخيراً يصف الرحالة "بوركهارد" وصول القافلة القادمة من دراو بصعيد مصر إلى بربر "أنه عندما تصل القافلة إلى إقليم بربر ينزل التجار في منازل أصدقائهم بقرية أنكهييري "Ankheyre" [ص ٢١٩] (وهي من أشهر القرى التي يتكون منها إقليم بربر، ومن ثم يطلق اسمها على الإقليم بأكمله)" [ص ٢١٠]. وفي موضع آخر يعلل الرحالة "بوركهارد"، نزول التجار من مصر في منازل أصدقائهم في بربر بعدم وجود حانات عامة هناك [ص ٢٠٩].

أما القوافل التجارية القادمة إلى بربر من دنقلة وشندى فيحدثنا عنها "بوركهارد" بقوله: "لقد اعتادت القوافل فيما مضى أن تذهب من بربر إلى دنقلة ليس عبر النيل لأنها تتعرض لرسوم تفرض عليها عند كل قرية، ولكنها تمر بالمرتفعات على الشاطئ الغربي للنيل. ومنذ أن كانت قبيلة الرباطاب في حالة حرب مع جيرانهم، فإن هذا الطريق أصبح يكثر فيه هؤلاء، ومن ثم لم يعد مطروقا. وفي الوقت الحاضر يتم الاتصال بدنقلة عن طريق شندى فقط. فمنها ترحل القوافل في اتجاه مستقيم عبر المرتفعات." [ص ٢٣٨ ، ٢٣٩]

وأما القوافل التجارية التي اعتادت أن تأتي إلى بربر من التاكا وسواكن، فيحدثنا عنها بقوله "إن القوافل تأتي عادة من التاكا عبر المرتفعات الشرقية في رحلة تستغرق من ١٠ إلى ١٢ يوماً لشراء الأشياء التي سبق ذكرها أو للحصول عليها مقابل الثيران والإبل. وهناك أيضاً قوافل صغيرة تأتي دائماً من سواكن في رحلة تستغرق ١٠ أيام محملة بالتوابل والبضائع الهندية، وبخاصة الأقمشة البيضاء الرفيعة التيلة." [ص ٢٣٩]. ويضيف "أن هذا الطريق غير مطروق دائماً من قبل التجار الأجانب خوفاً من بطش وخيانة البشارية، وإذا تصادف وجود حجاج في بربر في طريقهم إلى مكة، فإنه عند رجوع هذه القوافل يسلكون هذا الطريق نفسه حيث توجد المياه بكثرة. والطريق المعتاد للحجاج الزنوج إما عبر ضفاف النيل أو عن طريق (صحراء) التاكا." [ص ٢٣٩].

ويصف المخاطر التي تكتنف طريق القوافل من بربر إلى سواكن عبر صحراء التاكا بقوله "والطريق عبر صحراء التاكا إلى سواكن لا يطرقه الأجانب، بل حتى أهل بربر أنفسهم لا يثقون في السير فيه إلا إذا كانوا في أعداد كبيرة، ومعهم البشارية الذين قد يقتلون رفقاهم إذا كانوا يأملون في أبسط ربح. والرجال الذين يزكيهم المك ليسوا أقل

تعرضاً للخطر. وينبغي على المسافر أن يحمل معه دائماً بعض البضاعة القليلة والأمتعة من أجل مبادلتها بالمتونة اللازمة له في الطريق، إذ أن ذلك يجعله أقل تعرضاً لخطر البشارية وإثارة حقدهم عليه. ورغم أن المسافر قد يعطى تزكية من المك يحصل عليها مقابل بعض الهدايا، إلا أنه يتعرض لانتقام هؤلاء البشارية الذين يستطيعون بدورهم من تسوية الأمر مع المك بهدية بسيطة يشترطون بها سلامتهم معه. [ص ٢٤٠] ويعلق على هذا الجو من عدم الثقة السائد على العلاقات بين المسافرين ومك بربر والبشارية في هذه الجهات قائلاً "إن نجاح المسافر (السائح) في هذا الجزء من العالم يعتمد كثيراً على مرشديه ورفقائه المسافرين وحسن ظنهم به، ومعرفته بلغة أهالي الإقليم. فبدون معرفته بلغة القوم معرفة تامة لا يستطيع أن يختار من بينهم الأشخاص اللائقين لإرشاده أو مرافقته وفوق ذلك لا ينبغي أن يلاحظه القوم وهو يقوم بكتابة مذكراته، أو ما شابه ذلك. وعلى المسافر أن لا يعتمد على ثروته أو يعتبرها كفيلاً بالحصول على الرجال المخلصين والأمناء الذين قلما يوجدون في مثل هذه الجهات التي يقطنها جنس غير جدير بالثقة". [ص ٢٤١]

وأخيراً يصف الرحالة "بوركهارد" إقامة التجار الغرباء أثناء وجودهم في بربر بقوله "والتجار يفضلون دائماً الإقامة مدة وجودهم (في بربر) في منازل الشخصيات البارزة، وإذا أمكن، الشخصيات التي تكون على صلة بالرئيس مقابل بعض الهدايا. وذلك ليحتموا بنفوذ وسلطان هؤلاء الأشخاص الذين يصدون كل إساءة أو اعتداء قد يوجه إلى ضيوفهم. أما المرشدون من العبايدة الذين لا يخافون لجاجة أو وقاحة الميريفاب، فإنهم ينزلون في منزل فقير، حيث يتمتعون براحة أكثر من المسافرين". [ص ٢٤٢، ٢٥٢]

دخل مك (ملك) بربر من القوافل:

لقد كان مك (ملك) بربر يفرض ضريبة معينة على كل فرد من أفراد القافلة القادمة من مصر. ويحدثنا الرحالة "بوركهارد" عن نوع هذه الضريبة ومقدارها، والذين كان يجب عليهم دفعها، والذين أعفوا منها، وكيف كان المك يتصرف في حصيلتها. كذلك حدثنا عن النظام الذي كان المك يتبعه مع القوافل الأخرى القادمة من الجنوب والتي تمر ببربر في طريقها إلى مصر. كما حدثنا عن الهدايا التي كان يحصل عليها مك بربر من التجار ووسائل الحصول عليها. وأخيراً أشار "بوركهارد" إلى مقدار دخل المك السنوي من القوافل، وكيفية إنفاقه لهذا الدخل، كما أشار إلى ثروة الشخصيات الأخرى البارزة في بربر بعد المك.

يقول "بوركهارد" في الحديث عن الضريبة التي فرضها مك بربر على القوافل القادمة من مصر "إنه يجب على القوافل أن تدفع في بربر ضريبة للمك. ويستمر جمع هذه الضريبة من كل فرد عدة أيام. فالمك يحصل على خمسة أثواب من قماش الدمور من كل شخص يأتي من مصر بصرف النظر عن عدد الأحمال أو الإبل التي تكون معه، سواء أكان

هذا الشخص سيداً أو عبداً. كما يجب أن يدفع ثوباً لمأموريه وآخر لعييده . وعندما يلتقى رؤساء البشارية من قبائل العرياب Are-ab والعلياب Ali-ab أو أقرباؤهم بقافلة هنا فإنهم يطلبون ثوباً آخر . وهذا الطلب يكون بناء على أن البشارية أسياد الصحراء من هنا إلى أبار ناييه Naby . ومن شمال ناييه يدخل الإقليم في نطاق مقاطعات العبادة الذين يدفعون ضريبة لحكومة مصر . [ص ٢٣٦] . ويستطرد قائلاً "والأثواب السبعة التي يجمعها المك يقوم بتوزيع حصة رجاله منها . والبشارية يقومون بجمع ثوبهم بأنفسهم . وإذا تضادف عدم وجود أحد منهم فإن القافلة لا تدفع لهم شيئاً بعد ذلك . والمك يأخذ نصيبه من الضريبة بالدولارات أو الدامور . وإذا لم يكن لدى رجال القافلة نقوداً يدفعونها حال وصولهم - وهذا ما يحدث عادة إذ يستغلون أموالهم في شراء البضائع قبل أن يغادروا مصر - ففي مثل هذه الحالة يأخذ المك نصيبه من الضريبة بضاعة يحدد هو قيمتها . والعبادة معفون من ضريبة المرور لأنهم - كما يقال - أهل سلطان ... وتجار البشارية معفون أيضاً من هذه الضريبة . ولكن عددهم ضئيل منهم فقط ثلاثة أو أربعة تجار من قبيلتهم يسلكون هذا الطريق . " [ص ٢٣٧] .

أما عن نظام الرسوم الذي اتبعه مك بربر مع القوافل القادمة من الجنوب مثل قافلة شندی وسنار فيذكر أن الرسم الذي يفرضه المك على القوافل القادمة من الجنوب ، والتي تدخل بربر في رحلتها الصحراوية ليس ثابتاً لأن هؤلاء التجار يأتون من عاصمة مملكة . بيد أنه يأخذ منهم هدايا بسيطة من كل منهم تتناسب مع عدد الإبل والرقيق (الذين برفقتهم) . [ص ٢٣٧] . وعن الهدايا التي كان مك بربر يحصل عليها من التجار القادمين من مصر يقول "إن الضرائب السابقة ليست الوحيدة التي يحصل عليها المك وجماعته ، بل إنهم يقومون بالتحري عن البضائع التي يحملها كل تاجر من مصر . ثم يطالبون بالهدايا التي يستحقونها . ويساعد المك في تحريه هذا التجار أنفسهم الذين يدسون ضد بعضهم بعضاً لدى المك تقريباً إليه . " [ص ٢٣٧] . أما دخل مك بربر السنوي من القوافل فيقدره "بوركهارد" خلال زيارته لبربر عام ١٨١٣ "بما يقرب من ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف دولار أسباني" [ص ٢٣٨] . ويتحدث عن أوجه إنفاق هذا المبلغ من دخل المك بقوله "وينفق هذا المبلغ في الاحتفاظ بعدد كبير من الرقيق الذكور والإناث ، وكذلك الخيول والهجين الجميلة ، وأيضاً في إطعام ما يقرب من خمسين شخصاً يومياً في داره مثل الغرباء . وعليه أيضاً أن يهدى بصورة دائمة أقرباءه وأتباعه الهدايا ليقوى من نفوذه عليهم . ومن أجل ذلك فهو لا يستطيع أن يجمع أى ثروة أو رأس مال محترم . " [ص ٢٣٨] ويستطرد قائلاً "وأكبر شخص ثرى يلي المك يملك حوالى ألفي دولار ربحها العام الماضى (١٨١٢م) أثناء حدوث المجاعة ، لأنه كان يملك مخزناً كبيراً للحبوب . " [ص ٢٣٨] . ويضيف "أن الشخصيات البارزة (في إقليم بربر) تنحصر في أولئك الذين يملكون ثروة تتراوح بين ثلثمائة وستمائة دولار للشخص الواحد ، بما فيها القطيع وأثاث المنزل الذي يملكه . " [ص ٢٣٨] .

العبادة ودورهم الرئيسى فى قيادة القوافل بين السودان ومصر

لعب العبادة منذ زمن بعيد دوراً هاماً ورئيسياً فى قيادة القوافل التجارية عبر الطريق الصحراوى الشرقى الذى يخترق صحراء النوبة ويربط بين شطرى الوادى، وأهمها قوافل بربر وشندى وسنار، بالإضافة إلى توليهم مهمة حراستها وحمايتها من اللصوص وقطاع الطرق فى الصحراء. بالنظر إلى درايتهم التامة وخبرتهم النادرة بمسالك ودروب الصحراء، وما عرف عنهم بين جميع القبائل من الشجاعة وشدة البأس. ولقد كان للعبادة فروع وعائلات بعضها يقطن فى مصر العليا والبعض الآخر يقطن فى بلاد النوبة والسودان، بل منهم من كان له بيت وأسرة فى بعض مناطق صعيد مصر مثل دراو أو أسوان، وفى الوقت نفسه كان يملك بيتاً آخر وأسرة فى بربر أو شندى أو سنار. ومن ثم فقد جمع العبادة فى حياتهم بين شطرى وادى النيل شماله وجنوبه، حتى يمكن القول أنهم يمثلون فى الواقع مظهراً حقيقياً للوحدة والتضامن بين مصر والسودان جديراً بالبحث والدراسة.

ولقد أمدنا "بوركهارد" بمعلومات وحقائق على جانب كبير من الأهمية عن هؤلاء العبادة وقد عايشهم واختلط بهم عن قرب، إلى جانب التحرى عن جوانب أخرى من حياتهم. وإن بعض الرحالة الأوروبيين الذين جاءوا إلى السودان من بعده حين تعرضوا للحديث عن العبادة أشاروا إلى بعض ما ذكره "بوركهارد" عنهم، إذ اعتبروا ما ذكره عن العبادة مصدراً ومرجعاً موثقاً به. وقد تتبع مواطن العبادة فى البلدين، [ص ٢٤٥] وكذا أوجه النشاط التى كانوا يمارسونها فى تلك البلاد من زراعة وتجارة، [ص ٣٨٥] ورعى، إلى جانب دورهم الرئيسى فى قيادة القوافل التجارية وحمايتها عبر الصحراء، وكذلك مكاتبتهم الاجتماعية وبعض الخصال والطباع التى تميزوا بها.

يتحدث بوركهارد عن مواطن العبادة فى مصر العليا وطبيعة الحياة التى يعيشونها بقوله "إن القوافل التى ترحل من مصر تبدأ رحيلها من دراو... وهى تقف على مسيرة عشر ساعات شمال أسوان. وهى قرية كبيرة يقطنها بعض الفلاحين من المصريين والبعض الآخر من العبادة الذين استقر الكثير منهم فى القرى الواقعة إلى الجنوب من قفط حتى أسوان. ولكن الذين استقروا منهم على الجبال يعيشون هناك عيشة البدو خلال الموسم الذى لا تتطلب فيه زراعتهم البقاء على ضفاف النيل. وأما المدة الباقية من العام، فإنهم يقطنون خلالها فى القرى كما هو شأن الفلاحين المصريين." [ص ١٦٥] ويضيف "أن هؤلاء العبادة بالإضافة إلى مهمتهم فى إرشاد القوافل عبر الصحراء لخبرتهم بطرقها، فإنهم يقومون أيضاً بحماية تلك القوافل التى كثيراً ما يعترضها فى الطريق قطاع الطرق، إذ يسلمون أنفسهم استعداداً لمثل هذه الطوارئ. وربما كانت هذه المهمة الأخيرة أكثر

قيمة، إذ أنه لا يمكن لقافلة أن تعبر الصحراء في أمان دون أن يكون برفقتها بعض العباددة. فبالرغم من أن كثيراً من التجار الفلاحين يعرفون الطريق جيداً، إلا أنهم لا يخاطرون بقيادة القافلة بمفردهم. وكثير من شيوخ العباددة يطالبون بضريبة عند نجاة القافلة في حالة الاعتداء عليها. إلا أن بعضهم لا يتظاهر بهذه الرغبة، إذ يرى أن من واجب خبير القافلة ومرشدها القيام بحمايتها ضد هذه الأنواع من السلب والنهب. [ص ١٧٢] ولقد لعب العباددة نفس الدور في قيادة القوافل وحراستها في طريقها عبر صحراء النوبة من بربر وشندى وسنار إلى مصر. وهو ما عبر عنه بقوله "والقوافل التي تأتي إلى مصر من الأقاليم الجنوبية إما أن تأتي عبر الصحراء الشرقية (صحراء النوبة) أو الصحراء الغربية. وأما التي تأتي من الصحراء الشرقية فإنها تشمل قوافل سنار وشندى وبربر والمحس وسبوع. وكل قافلة تصل من الجنوب إلى بربر تظل فيها بعض الوقت من أجل أخذ المرشدين اللاتنيين، والقيام بالاستعدادات الأخرى اللازمة لرحلة الصحراء. وكثير من العباددة يقيمون في بربر وهم على استعداد لمرافقة القافلة في رحلتها مقابل عشرين دولاراً. وهم يعملون مع القافلة كمرشدين وحماة لها في الوقت نفسه." [ص ٢٣٦].

إن "بوركهارد" يصف لنا موقف مك بربر من العباددة، ويفسر لنا الأسباب من وراء إعفائهم من الضريبة التي فرضها على غيرهم بقوله "والعباددة معفون من ضريبة المرور لأنهم - كما يقال - أهل سلطان أو رجال مستقلون في جبالهم، ولا يمكن لرئيس أن يأخذ ضريبة من زعيم أو رئيس آخر. ولكن الحقيقة أن أهل بربر يخشون العباددة، لأنه إذا وقعت مشاجرات بين أهل بربر والعباددة، فإن الأخيرين ينزلون من مرتفعاتهم ويشنون غارات السلب والنهب على أهل بربر فيسلبونهم قطعانهم وعبيدهم." [ص ٢٣٧] أما عن موقف العباددة من قطاع الطرق واللصوص في الطريق الصحراوي بين دراو بمصر العليا وبربر، وهو الطريق الشرقي الرئيسي بين مصر والسودان عبر صحراء النوبة الذي اعتادوا أن يطرهوه دائماً ذهاباً وإياباً أثناء قيادة القوافل وحراستها بين البلدين، كما قدمنا، فقد حدثنا عن دورهم البارز في تأمين هذا الطريق عندما استعان بهم محمد علي باشا وإلى مصر في القضاء على أحد اللصوص الخطيرين في هذا الطريق عام ١٨١٢، وهو ما يؤكد عظم مكانة هؤلاء العباددة وشدة بأسهم في الفترة التي سبقت امتداد الحكم المصري إلى السودان (عام ١٨٢٠/١٨٢٠م).

يصف لنا بشئ من التفصيل قصة العباددة مع هذا اللص الخطير سابق الذكر نعيم بقوله "إن أكثر خطورة كانت تعترض هذا الطريق هو اللص نعيم زعيم عرب المقرات ... فقد اعتاد اعتراض القوافل بين بربر وأبار "نجيم" Nedjeym. وبعض الأحيان كان يتبعها بعيداً حتى "شقرية" Shigre. وقد استطاع أن يجمع ثروات ضخمة من سلب القوافل المصرية. وكثيراً ما صوبت النار عليه ولكن كان ينجو منها بفضل متانة الدرع الذي كان يحمله.

وقد اشتهر بأن الرصاص لا يؤثر فيه بفضل التمايم التي تجعله بمنأى عن الموت. والواقع أن تمايم نعيم كانت تتمثل في قدرته على التصويب بسرعة، وفي سوء نية الراغبين في قتله. [ص: ١٩٠، ٢٤٥، ٢٥٥] ثم يضيف بقوله "وكثير من العباددة قتلوا على يده في إحدى هجماته، وأصبحت القبيلة كلها تأمل في الانتقام منه. ولم يمض وقت طويل حتى وانتهت الفرصة، فالقافلة التي غادرت سنار إلى مصر عام ١٨١٢ بصحبة رسل من الباشا كانوا مزودين بمئات عديدة من العباددة المسلحين. وقد استقرت القافلة لعدة أيام في بربر من أجل الاستعداد لرحلتها عبر الصحراء. وقد تمكن رئيس القافلة برفقة ما يقرب من ١٠٠ راكب جمل مسلحين من محاصرة منزل نعيم بمقره، وإشعال النار فيه. وقد قتل هو وبعض رفقاته وأرسلت رأسه إلى مصر، كما أرسلت أذنيه إلى محمد على باشا ثم إلى الحجاز". [ص ٢٥٥] وبواصل حديثه قائلاً "على أن سوء المصير الذي كان يصيب نعيم لم يمنع من ظهور لص آخر يخلفه في هذه المرتفعات (الصحراء) واسمه كيرار وهو رئيس العباددة من قبيلة "عشيباب Asheybab وقد سلب عام ١٨١٤ عدة قوافل معظمها من أهل بربر، وعاد بالغنائم إلى معسكراته بمرتفعات "أوتابي" Otaby. وقد قام باشا مصر بعدة محاولات للقبض عليه ولكن لم تكمل بالنجاح". [ص ٢٥٥، ٢٥٦]

على أن هناك جانباً هاماً من علاقة العباددة بجيرانهم البشارية الذين يعيشون على المرتفعات المجاورة للبحر الأحمر تناوله الرحالة بوركهارد - كما سيأتي بعد - في حديثه عن أوطان البشارية المجاورة للبحر الأحمر في أثناء وصفه لجغرافية الإقليم الذي يقع فيه ميناء سواكن، إذ يقول "إن المقر الرئيسي للبشارية فيما يبدو - هو علبه Oha وهي ميناء صغير يقع على مرتفع يبعد ١٠ أو ١٢ يوماً من سواكن وحوالي ١٥ يوماً من دراو بمصر العليا. ورؤساء البشارية الأصليين يعسكرون في أودية هذا الموقع الذي يقال أنه غني بالمرعى ودائماً تقطنه قبائل كثيرة قوية واسمه معروف جداً في مصر العليا. وبدو العباددة كثيراً ما يذهبون إلى هناك بالذرة والمنسوجات القطنية المصنوعة في مصر. كما يزوره زعماء العباددة من أجل جمع ضريبة يدفعها لهم هؤلاء الجبليون من أجل السماح لهم برعى ماشيتهم في فصل المطر في هذا الجزء من مرتفعات النوبة الشمالية التي يعتبرها العباددة إرثاً لهم. ولكن لما كانت القبيلتان دائماً في حرب، فإن الضريبة لا تدفع بانتظام". [ص ٤٤٥، ٤٤٥].

مشاهدات الرحالة "بوركهارد" ودراساته في الدامر

إذا كان "بوركهارد" قد صدم بسلوك بعض الجماعات السودانية مثل جماعة البشارية الذين اعتادوا الاعتداء على القوافل في الطريق بين بربر وسواكن عبر صحراء التاكا، ونسب إليهم بعض الصفات والخصال الرذيلة - كما مر بنا - فإنه على النقيض من ذلك قد أعجب كثير بخصال وطبائع أهل الدامر، وسلوكهم الطيب مع الناس، واحترام جميع الناس وتقديرهم لهم. حتى القبائل والجماعات التي اشتهرت بنزعتها العدوانية مثل البشارية، إلى الحد الذي جعل بعض القوافل التجارية تلجأ إلى أحد فقهاء الدامر لمرافقتها بقصد حمايتها من عدوان هؤلاء البدو الذين كانوا يعملون حساباً كبيراً لهؤلاء الفقهاء. ولقد عنى بدراسة هذه الظاهرة وبحث أصولها، حين أشار إلى اهتمام أهل الدامر بالعلم والدين، وحرص فقهاءها على الذهاب إلى الجامع الأزهر بالقاهرة أو إلى مكة للتزود والتفقه بعلوم الدين والشريعة الإسلامية، فزاد عدد الفقهاء في الدامر، وكثرت المدارس بها، التي يقصدها الدارسون من شباب دارفور وسنار وكردفان.

وصف الدامر (عام ١٨١٣):

يقول "بوركهارد" "إنها تقع على الطريق بين بربر وشندى. وهي قرية كبيرة تتكون من حوالي خمسمائة منزل. وهي نظيفة وأكثر تنسيقاً من بربر. وبها أبنية حديثة، ولا توجد بها بقايا منازل قديمة. والمنازل مشيدة بإتقان. وتوجد بينها شوارع منظمة. كما أن الأشجار المظللة توجد في عدة أماكن فيها". [ص ٢٦٥، ٢٧٥] ويضيف "بوركهارد" أنه يوجد بالدامر مسجد فسيح مبنى بناء حسناً من الطوب الأحمر. [ص ٢٦٧] ويضيف "أن فقهاء الدامر يذهبون كذلك إلى مصر، ليدرسوا في الأزهر وهم أيضاً يشتركون الكثير من الكتب من سوق الكتب بالقاهرة". [ص ٢٦٧]. ويصف كيف كانت تدار شؤون الدامر وقت زيارته لها عام ١٨١٣ والمكانة التي كان يحظى بها فقهاؤها بين جيرانها بقوله "وجميع شؤون تلك المقاطعة تدار بالحكمة والاتزان. كما أن جميع السكان المجاورين لها يحترمون الفقهاء، وحتى البشارية القادرون يظهرون لهؤلاء الفقهاء كل احترام وتقدير، لدرجة أنهم لا يجزؤون على الاعتداء على أحد من أهل الدامر عند سفرهم من الدامر عبر المرتفعات إلى سواكن فهم يخشون من قوة الفقهاء أن تمنع عنهم المطر فيؤدي ذلك إلى موت قطعانهم". [ص ٢٦٨] لذلك يذكر الرحالة "أن الطريق بين بربر وشندى محفوف بالأخطار، والسكان على جانبه لصوص. ولكن مرافقة أحد فقهاء الدامر كافية لحماية

المسافرين والقوافل. والقوافل القادمة من الجنوب تقف عند الأطراف الشمالية لشندى حتى يصل فقيه من الدامر فيرافقها في رحلتها. [ص ٢٧١].

ويصف "بوركهارد" النشاط التجاري لأهل الدامر بقوله "القوافل ترحل دائماً من الدامر إلى سواكن، إذ أن كثيراً من الفقهاء تجار. وتجارة الدامر الرئيسية تقوم مع دنقلة وشندى [ص ٢٦٨]. وأما بربر فتوجد معها علاقة بسيطة، إذ استثنينا الاتصالات بالقوافل المصرية التي تمر في هذا الطريق (بين بربر وشندى). وتوجد معظم سلع مصر التجارية في مخازن تجار الدامر. ولا توجد سوق يومية، بل هناك سوق تعقد أسبوعياً يعرض فيها كل تاجر بضائعه." [ص ٢٦٨]. ويضيف "أن الدامر تشتهر ببيع الأغنام، والحصر الدامرية المصنوعة من أوراق شجر الدوم وعليها إقبال شديد في المناطق المجاورة. كما توجد في الدامر صناعة الأقمشة رديئة الصنع مقلدة دمور سنار." [ص ٢٦٨] أما عن نظام التعامل التجاري في الدامر فيصفه "بوركهارد" بقوله "أنه لا توجد عملة معدنية في الدامر أقل قيمة من الدولار في شراء الأشياء ذات القيمة المنخفضة مثل مقدار بسيط من الذرة." [ص ٢٦٩].

أما عن نشاط أهل الدامر الزراعي فيبدو أنه لم يكن يقل عن نشاطهم التجاري، إذ يصفه قائلاً "إن زراعة الأرض يوجه لها أهل الدامر عناية أكبر تفوق ما يوجه لها في أي مكان آخر بين دنقلة وشندى. وهم يستخدمون الري الصناعي بالسواقي العديدة التي تديرها الأبقار، كما هو الحال في مصر. وهذه الوسيلة تساعد المزارعين على الحصول على محصولين في العام. ولقد قاست الدامر أقل مما قاسته الأقاليم المجاورة خلال المجاعة الأخيرة. بيد أن عدداً كبيراً مات بالجدرى." [ص ٢٧٠]. ويضيف "أن المحصول الرئيسي للأرض في الدامر هو الذرة ويزرع قليل من القمح. ولكن ليس للتصدير، وإنما يستهلكه كبار الفقهاء. وقد تعلموا هذا الترف في مصر. وتزرع كمية كبيرة من الشطة التي يصدر جزء منها. والأهالي مغرمون باستعمالها في الطعام. والإقليم ينتج القطن بكثرة. كما يزرع الدخان الرديء النوع الذي يباع للبشارية." [ص ٢٧٠] وعن النشاط الرعوي لأهل الدامر يقول "بوركهارد" "إنهم يعتنون بتربية القطعان أكثر من أهل بربر. ويوجد عدد قليل من الخيول، بينما تكثر الحمير. ويشترى التجار الإبل، وفي الوقت نفسه يبيعون بضائعهم." [ص ٢٧٠] وأخيراً يفسر لنا السبب الرئيسي من وراء انتعاش الدامر اقتصادياً، إذ يقول "ولا تدفع ضرائب مرور للفقهاء الذين يتكون دخلهم من الزراعة والتجارة. وهذا هو سبب انتعاش الدامر، وعدم استياء القوافل من إقامتها هناك لأيام قلائل." [ص ٢٧٠].

مشاهدات "بوركهارد" في شندي

لقد أمدنا الرحالة "بوركهارد" بمعلومات وحقائق هامة ومستفيضة عن أحوال شندي في ذلك الوقت. وتضمنت كتاباته وصفاً للمدينة عام ١٨١٣ ومقارنتها ببعض المدن الكبرى في السودان مثل بربر وسنار وكوبة (في دارفور)، والأوضاع السياسية التي كانت سائدة فيها في الفترة التي سبقت مجيء حملة إسماعيل بن محمد علي إليها، إذ تشير إلى الحرب التي استمرت سنوات بين المك نمر والشايقية، واضطرار الشايقية إلى عقد الصلح معه ليتفرغوا لمواجهة المماليك القادمين من مصر والذين اشتبكوا في حرب سجال معهم. ثم ما كان من أمر عصيان أخيه (أخ المك نمر) وقيام الحرب بينهما عدة سنوات دون أن ترجح كفة أحدهما. وهو ما يصور لنا أن حياة نمر مك شندي كانت سلسلة من المعارك والحروب تارة مع الشايقية وأخرى مع أهله، حتى كان خراب مملكته على يد الدفتردار صهر محمد علي باشا على أثر اتهامه بحرق إسماعيل في شندي. وإليك تفاصيلها بعد أن قمنا بتنظيمها وتبويبها تحت عناوين رئيسية ليسهل الانتفاع والاستفادة بها.

وصف مدينة شندي (عام ١٨١٣م):

يصف "بوركهارد" مدينة شندي "بأنها أكبر مدينة في السودان الشرقي، وهي تلي من حيث الأهمية سنار وكوتيه. وهي حسب تقرير التجار أكبر من عواصم إقليم دنقلة وكردفان". [ص ٢٧٧] ويصف أحياء شندي ومنازلها بقوله "وتحتوي شندي على عدة أحياء بينها عدد من الأماكن الهامة أو الأسواق. وتضم هذه الأحياء من ٨٠٠ إلى ١٠٠٠ منزل مبنية على سهل رملي على مسيرة ساعة من النهر. ومنازلها تشبه منازل بربر، وإن كانت تضم عدداً كبيراً من المنازل الواسعة، وقليل من بقايا البيوت. ولا يوجد شارع منتظم بين المنازل. وإنما تنتشر على السهل في صورة غير منتظمة إلى درجة كبيرة. والمباني ليست مشيدة بالأجر. ومنازل الرئيس وأقربائه تحتوي على أفنية مساحتها عشرين قدماً تحيطها جدران مرتفعة. وهذا هو الوصف العام لمساكن شندي". [ص ٢٧٧، ٢٧٨].

نظام الحكم في شندي (عام ١٨١٣م):

ويصف الرحالة نظام الحكم في شندي بقوله "إن الحكومة بيد المك، ويدعى في الوقت الحاضر نمر. والأسرة الحاكمة من نفس القبيلة التي تتربع على عرش سنار وهي ولد

عجيب. وهي فرع من "الفنية" Funnye. ووالد نمر من أصل عربي من قبيلة الجعليين، ولكن أمه من دم ملكى من ولد عجيب والملك الذى فى شندى مثل الملك عند توليه الحكم والهدايا التى يرسلها فى كل مناسبة للملك ووزير الملك فى سنار، [ص ٢٧٨] فإنه يعتبر مستقلاً تماماً، ويحكم مقاطعته التى تمتد على مسيرة يومين وفق رغبته وهواه. [ص ٢٧٨].

ويضيف "بوركهارد" قائلاً "وحكومة شندى أفضل كثيراً من حكومة بربر، فالسلطة الكاملة التى فى يد الملك لا يضعفها تأثير العائلات القوية التى تميل فى هذه الأقطار إلى عدم استتباب الأمن. كما أنه لا يؤخذ بنظام الخطف الذى يجعل الغرباء فى بربر يحسون بالخوف. وقوة مك شندى المطلقة ترجع إلى تنوع القبائل العربية التى تقطن فى شندى، بحيث لا تستطيع إحداها أن تبارى أسرته وفروعها العديدة." [ص ٢٧٩] ويستطرد فى وصف نظام الحكم فى شندى قائلاً: "ولا توجد مصالح فرعية لحكومة شندى، إذ يبدو أن الملك يجمع فى شخصه كل فروع السلطة وأقاربه هم حكام القرى. وبلاطة يتكون من الكاتب والإمام والصراف والحرس الذى يتكون أساساً من العبيد." [ص ٢٨٠]

ويحدثنا "بوركهارد" عن الأوضاع السياسية التى كانت سائدة فى شندى قبيل زيارته لها عام ١٨١٣، إذ يقول "وقبيل وصول المماليك إلى دنقلة كان نمر مك شندى فى حرب مع الشايقية لعدة سنوات. وقد قتلوا عدداً كبيراً من أقربائه فى القتال، واجتاحوا بجموعهم الكبيرة من الفرسان مقاطعته، وخربوا كل الشاطئ الغربى للنهر. وفى ذلك الوقت أعلن أخوه المنوط به حكم الشاطئ الغربى العصيان عليه، واستمرت الحرب بينهما عدة سنوات دون أن تلحق خسارة كبيرة بقوات أحد الطرفين. وقد أصبح كل منهما منفصلاً عن الآخر. ولا يستطيع أحدهما أن يعبر النهر إلا برفقة جماعات صغيرة." [ص ٢٨٠].

مجتمع مدينة شندى :

يصف عناصر السكان فى شندى وقت زيارته لها عام ١٨١٣م وصفاً دقيقاً بقوله "إن سكان شندى كلهم من العرب الأحرار. ومن هؤلاء الجعليين وهم الأكثر عدداً ويليهم ١- العباددة وهم يدعون أنهم ينتسبون إلى من ينتسب إليه عباددة مصر العليا وهو سلمان من عرب بنى هلال القبيلة الشرقية العظيمة التى هاجرت إلى الأجزاء الشمالية من إفريقيا حتى تونس عقب الفتح الإسلامى. ٢- البطاحين ٣- الحامدية وهم أقرباء للعرب الذين يحملون هذا الاسم ويقطنون بجوار الأقصر والكرك فى مصر العليا، ومن هنا أخذت الأقصر اسم الحامدية، وهى أكثر معرفة بهذا الاسم فى مصر العليا..." [ص ٢٤٥].

ويصف "بوركهارد" طبقات المجتمع فى شندى بقوله "إن طبقة التجار هى أكثر الطبقات احتراماً فى شندى. ويوجد بينهم عدد كبير من التجار الأجانب المقيمين فيها من سنار

وكردفان ودارفور ودنقلة. والأخيريون أكثر عدداً، فهم يشغلون حياً بأكمله في المدينة. ولكن دولتهم أقل اعتباراً من أى دولة أخرى. وهم محقرون لعدم كرمهم. فشحهم يضرب به المثل. وأعمال السمسرة التى هى خاصة بهم تقريباً زادت من مقت الناس وكراهيتهم لهم. لذلك فإن العربى فى شندى يعتبرها إساءة إذا ما أطلق عليه اسم دنقلاوى. وهذا الاسم يناظر اسم البرمودى فى أوروبا. [ص ٢٧٩] وهناك طبقة أخرى كانت تعيش فى شندى فى ذلك إليها بقوله "وأصحاب الحرف فى شندى هم الحدادون والصياغ الذين يصنعون الحلى للنساء. وهذه الحلى رديئة الصنع للغاية. وكذلك الدباغون، والتجارون، وصناع الأوانى الفخارية." [ص ٢٧٩].

ويصف "بوركهارد" بعض العادات والتقاليد السائدة بين سكان شندى، إذ يقول "والذهب معدن متداول بكثرة فى سوق شندى لذلك فإن النساء يكثرن من وضع الحلقات الذهبية فى أنوفهن وأذانهن أكثر مما نلاحظه بين سكان بربر. كما أن السكان يملكون أيضاً ثروة أكبر من العبيد. وإنه لأمر عادى أن ترى أسرة تملك اثني عشر عبداً كخدم فى منزل أو كعمال فى حقل." [ص ٢٨٠]. ويضيف "أن ملابس وأخلاق السكان فى شندى هى نفسها التى نلاحظها فى بربر. ويبدو أنها تعم أيضاً فى دارفور وسنار." [ص ٢٨٠]. ويستطرد قائلاً "ولقد لاحظت أناساً فى شندى يلبسون ملابس أحسن مما يلبسه أهل بربر ويبدو استخدام الملابس الكتانية النظيفة بكثرة دائماً." [ص ٢٨٠].

يحدثنا عن الجريمة والعقاب فى شندى بقوله "إن أخلاق أهل شندى تشبه أخلاق أهل بربر. ولكن الوقاحة وعدم العدل يسود سلوكهم، لأنهم يدركون أن تأثير القانون على منع حدوث الجريمة ضعيف، وأنه من النادر أن يعاقبوا." [ص ٢٨٠]. ويضيف "بوركهارد" أن اللصوص والسكيرين الذين يهاجمون الغرباء. وكذلك اللصوص الذين يوجدون أو يكتشفون فى السوق وغيرهم، يعرضون أمام المك. بيد أنه يكتفى عادة بسجنهم لمدة يومين أو ثلاثة أيام. ولا يسمع عن أحد حكم عليه بالإعدام أو حتى ضرب بالسياط بالرغم من أن مثل تلك الجرائم التى ذكرناها ترتكب يومياً فى شندى. والمجرمون يسمح لهم بالرجوع إلى بيوتهم عقب دفع غرامة للمك ورجاله، بينما فى كردفان يعاقب اللصوص دائماً بالإعدام." [ص ٢٨٠]

ويشير إلي: "إن القبائل العديدة فى شجار دائم مع بعضها البعض، وبخاصة ما يتعلق بمسألة الأخذ بالثأر. ويساوى ثمن الدم بين الجعليين ألف ثوب من قماش الدمور، وهو ما يعادل من ٢٠٠ إلى ٣٠٠ دولار أسباني. وإذا وافق أقارب القتيل على أخذ هذا المبلغ، فإن القاتل يدفع المبلغ بالتقسيم. وقد تمضى أعوام كثيرة قبل أن يسدد القاتل المبلغ. وفى خلال ذلك يحافظ الطرفان على السلام." [ص ٣٤٥].

أوجه النشاط الاقتصادي في شندی

١- الزراعة :

يصف طبيعة الحياة الزراعية في شندی بقوله: "إن أهل شندی -كما هو الحال في بربر- رعاة وتجار وفلاحون . والمواطنون لا يكرسون كثيراً جهودهم للزراعة، وإنما يتركون شؤونها للفلاحين العرب المجاورين لهم . والأرض الزراعية التي تحيط بمدينة شندی ضيقة، ولكن إلى الشمال والجنوب منها توجد بعض السهول الجيدة الصالحة للزراعة . وتعم السواقي، وهي تشيد بوجه عام على الشواطئ فوق الجهات المرتفعة التي لا تفيض عليها مياه الفيضانات الغزيرة . وبواسطة هذه السواقي ينتج الفلاحون محصولاً شتوياً واحداً . أما الغلات الزراعية التي حرص أهل شندی على زراعتها في الأراضي الصالحة للزراعة فيصفها بقوله "والذرة هي المحصول الرئيسي . والدخن والقمح يزرعان بكميات قليلة . والمحصول الأول من أجل استهلاك تجار الجهات الغربية الذين يزورون شندی . والأخير من أجل استهلاك العائلات الكبيرة . كما يزرعون كميات كبيرة من البصل، وبعض الفلفل (ينقل من كردفان) . والبامية والحمص والملوخية والتمرس توجد دائماً في السوق إما خضراء أو جافة." [ص ٢٨١] .

ويضيف "بوركهارد" أنه في أثناء الفيضان يزرع بعض البطيخ والخيار، من أجل استهلاك حريم المك فحسب . ثم يقول "وما تنتجه حقول شندی وما جاورها لا يكفي مئونة السكان لحاجتهم المتزايدة إليها، بسبب استمرار وصول القوافل . وتستورد شندی الذرة رأساً من أبي حراز على الطريق إلى سنار . وتأتي القوافل من هناك محملة بالذرة إلى شندی . وسعر الذرة كان عبارة عن ١٢ كيلاً بدولار واحد ثم نزل إلى ٢٠ كيلاً بدولار . وسعر الحبوب يختلف كل يوم تقريباً . والسوق يتأثر بوصول كل قافلة من التجار الذين يشترون كميات كبيرة من أجل إطعام رقيقهم وإبلهم . والمك يحتكر أيضاً الحبوب حسب قدرته . وفي أبي حراز وسنار توجد الذرة بكميات زائدة . وأربعون كيلاً تباع بدولار . وهذا النوع من الذرة من نفس شكل وحجم النوع الذي يزرع في شندی ومصر العليا، وإن كانت تختلف في اللون، كما يقال أنها أقل فائدة، ومن ثم أقل قيمة ومكانة من النوع الآخر." [ص ٢٨٥] .

٢- الرعي وثروة شندی الحيوانية :

الرعي من الحرف الرئيسية التي كان يمارسها أهل شندی فهم كما وصفهم "رعاة وتجار وفلاحون" . وقد وصف ماشيتهم "بأنها جيدة جداً"، وحجمها ونوعها كما أكد له أهل شندی أنفسهم، "يستمر في الزيادة كلما صعدنا النهر." [ص ٢٨١] . كذلك وصف الخيل في شندی "بأنها توجد بكثرة إذا ما قورنت بما هو ملاحظ في بربر وأن إناث الخيل مفضلة في ركوبها عن الذكور عند بدو الجعليين، وإن كانت الأخيرة مفضلة عند

سكان المدينة". [ص ٢٨٥]. ويصف "بوركهارد" المراعى فى ضواحي شندى والنشاط الرعى لسكانها من عرب الجعليين "بأنه عند قرية داوه" Dawa يبلغ عرض السهل عشرة أميال على الأقل وهو مغطى بنباتات برية مختلطة بجميع أنواع أشجار السنط الشوكية. ويوجد فى هذه الجهات عدد كبير من الأكواخ والقرى المتناثرة. ويقوم عرب الجعليين هنا برعى قطعانهم العديدة من الأبقار والإبل والضأن. كما يملكون عدداً قليلاً من السواقي، ويزرعون كميات كبيرة من البصل الذى يوردونه إلى سوق شندى. والأكواخ مصنوعة من الحصر (وتكثر الألبان بينما تقل الذرة). [ص ٢٨٥، ٢٨٦].

وأما عن الحيوانات البرية فى شندى ودورها فى حياة أهلها المعيشية، فيحدثنا عنها "بوركهارد" بقوله "والنمور تكثر فى الأودية الشرقية لشندى، وفى مرتفعات الدندر Dender وهى المقاطعة التى تقع تجاه نهر العطرة. وعلى مسيرة ست أو ثمانى ساعات جنوب شرقى شندى توجد الزرافة وتصاد بواسطة عرب الشكرية والكواهلة. وسعرها مرتفع من أجل جلدها الذى يصنع منه التروس. وترد إلى سوق شندى الماعز الجبلية من أكبر الأحجام، ولها قرون طويلة منحنية حتى وسط الظهر. ويعتبر لحمها من النوع اللذيذ جداً. ويسمى هذا النوع أرييل Areal، وهو الاسم الذى يطلق على الغزال الأحمر فى سوريا. ويسمى فى مصر العليا باسم تيتل، وفى سوريا باسم "بدن" Beden. ويقوم بدو الجعليين بصيده عن طريق مسكه من أنفه. وهى نفس الطريقة التى يمسكون بها النعام الذى يكثر أيضاً فى المناطق المجاورة. ومهما يكن فإن ريش النعام هنا فى شندى أقل جودة من النوع الموجود فى الصحراء الغربية. والأنواع الأكثر تقديراً فى مصر هى التى تأتى من كردفان ودارفور. ويضيف "بوركهارد" أن الفلاحين الجعليين يحملون ريش النعام إلى السوق فى حزم مخلوطة بالنوع الجيد والردئ. وهم يستبدلونها بالذرة".

أما الحيوانات البرمائية التى تعيش فى شندى فقد أشار "بوركهارد" إلى وجود فرس النهر بقوله "إن فرس النهر لا يكثر فى شندى، وإن كان يظهر فى بعض الأحيان. وليس لدى الأهالى وسيلة لقتله. وفى سنار حيث يكثر فرس البحر (النهر) يصاد فى الخنادق التى تغطى بالحشائش وتقع فيها أثناء تجوالاتها الليلية. ويقال إن الرصاص لا يستطيع أن يوقعه أرضاً ما لم يضرب على المنطقة القابلة للجرح و الطعن فوق أذنه، والكرابيج التى تعمل من جلوده تصنع فى سنار". [ص ٢٨١] كذلك أشار إلى وجود التماسيح فى شندى، وفى أماكن أخرى من نهر النيل فى مصر السفلى تختفى تماماً. بالرغم من عدم وجود سبب يفسر عدم نزولها إلى النهر. بينما توجد فى مصر العليا فى المناطق المجاورة لإخميم ودندرة وأرمنت وإدفو، فهى من المناطق المحببة للتمساح. وفى مصر الوسطى يوجد عدد قليل من التماسيح فى النهر". [ص ٢٨٢]. ويقارن موقف أهل شندى من التماسيح بموقف أهل بربر وسنار منها قائلاً "والأهالى فى بربر لا يخشون التماسيح، إذ يستحمون فى وسط مجرى النهر. أما فى شندى فعلى العكس يخاف الأهالى من هذا

الحيوان خوفاً عظيماً، ويتخذون الحيطة التامة عند الاستحمام أو غسل ملابسهم أو ملئ قربهم من النهر. فهم لا يتقدمون مسافة كبيرة داخل النهر. وفي الواقع أن هذا الحيوان قد يقبض على الإنسان ويقتله. وفي سنار تحمل التماسيح دائماً إلى السوق ولحمها يباع علانية هناك." [ص ٢٨٢]

٣- الصناعة في شندی :

لقد قامت في شندی بعض الصناعات التي تخدم أغراض الحياة فيها. وقد حدثنا الرحالة "بوركهارد" عن بعض الصناعات الريفية التي اشتهر أهل الريف بصناعتها حيث شاهدها في سوق شندی ويصفها بقوله "وسكان الريف يحملون إلى السوق الحصر والأسبته وجلود الثيران والحيوانات والأواني الفخارية وسروج الإبل والأطباق الخشبية والأشياء الأخرى التي من صناعتهم الخاصة." [ص ٢٩٦]. ويضيف: "أنه يوجد اثنا عشر من صانعي الأحذية والصنادل من الريف يعملون في السوق في هذين اليوميين (الجمعة والسبت) وفي الإمكان عمل جوز صندل في ساعة." [ص ٢٩٦] ويصف "بوركهارد" صناعة الجلود في شندی بأنها صناعة جيدة. وتدبغ الجلود بنبات القرض الذي يؤخذ من أشجار السنط. [ص ٢٦٩] ويقارنها بصناعة الجلود في سنار بقوله "إن البدو القريبين من سنار - كما يقال - قد امتازوا بالمهارة في صناعة الجلود والجراب الجلدية تباع هنا أيضاً وتستخدم لنقل العفش والبضاعة، باستثناء الذرة والصبغ العربي والملح الذي يحمل في سلات." [ص ٢٦٩، ٢٩٧]. كذلك يذكر "بوركهارد" "أن كثيراً من الحدادين يأتون إلى شندی من الأرياف ويقومون بصناعة وبيع السكاكين الصغيرة ذات الحديد والتي يبلغ طول الواحدة حوالي ثمانين بوصات. وتوضع في جراب من الجلد يلبس عادة حول المرفق الأيسر [ص ٢٩٧]. وإلى جانب تلك الصناعات وجدت صناعات أخرى مثل صناعة حلي النساء من الذهب وقد وصفها بأنها رديئة للغاية." [ص ٢٩٧]، وكذلك النجارة التي يذكر "بوركهارد" "أن النجار في حالة بناء منزل يستدعي فقط من أجل وضع السقف وصناعة الأبواب، إذ يقوم صاحب المنزل وأقربائه وعبيده مع قليل من العمال بعملية البناء." [ص ٢٩٧].

وهناك حرفة رئيسية كانت شائعة بين سكان شندی وتمثل ظاهرة لفتت نظر الرحالة "بوركهارد" وعبر عنها بقوله "إنه لا يوجد نساجون في شندی. ولكن جميع النساء والأطفال الكبار وكثير من الرجال يلاحظون دائماً والمغزل في أيديهم يغزلون القطن الذي يبيعونه لسكان بربر. والمغزل يشبه الذي يستخدم في مصر وسوريا. والقطن يزرع في الجهات المجاورة. وهو بصفة عامة يزرع في جميع المناطق." [ص ٢٩٨]. على أن هناك صناعة هامة اشتهر بها أهل شندی في ذلك الوقت ويعنى بها صناعة الملح التي حدثنا عنها الرحالة "بوركهارد" بقوله "وفي إقليم بويضة Boeydha توجد منطقة تحتوى على قرى صغيرة منازلها تتكون عادة من حجرة واحدة فقط تستخدم في جميع الأغراض. وهنا توجد مصانع

الملح التي تمد جميع القطر حتى سنار بالملح. والتربة هنا لمسافة تقدر بعدة أميال مشبعة تشبعاً قوياً بالملح. وهذه التربة المشبعة بالملح تجمع بواسطة العرب في أكوام على جانب الطريق. ويفصل الملح عن التربة بواسطة الغليان في أواني فخارية كبيرة. والجزء الملحي يغلى بعد ذلك مرة ثانية في أوان صغيرة. والملح يعد بعد ذلك على شكل "كعكات" قطر الواحدة منها قدم وسمكها ثلاثة أقدام، ولونه أبيض تماماً. ويغلب عليه مظهر الملح الصخري. وكل ١٢ كعكة تربط سوياً في سلة، وخمس سلات تكون حمل جمل. [ص٢٧٦]. ويضيف "بوركهارد" "أن مصانع الملح ملك لملك شندي. ويوجد حوالي عشرين غلاية على النار" (وقد شاهدها بنفسه).

٤- التجارة في شندي:

احتلت التجارة في شندي مكاناً بارزاً وهاماً في حياة أهلها. وقد كان التجار كما ذكر "بوركهارد" أكثر الطبقات احتراماً في شندي [ص٢٧٩]. كما كانت شندي تلي سنار وكوبة (في دارفور) من حيث أهمية مكانتها التجارية في السودان كله. [ص٢٧٧]. ولا عجب إذا كانت ترد إليها القوافل التجارية من مختلف جهات السودان من دنقلة وبربر وسنار وكردفان ودارفور والتاكا وسواكن على ساحل البحر الأحمر [ص٢٤٩]، وخارج السودان من مصر والحبشة. وقد كانت شندي بصفة خاصة مركزاً رئيسياً لتجارة الرقيق في السودان وإفريقية في ذلك الوقت. ولقد قدم لنا "بوركهارد" عام (١٨١٢) وصفاً تفصيلياً ودقيقاً لأنواع السلع والبضائع التي كانت تأتي بها القوافل التجارية من الجهات المختلفة إلى شندي، حيث تعرض بصفة مستمرة في أسواقها سواء سوقها اليومي أو سوقها الأسبوعي الذي يصفه بأنه سوق كبيرة ويفد إليها دائماً العرب المجاورون لها. [ص٢٨٩]. يقول "بوركهارد" في وصف تجارة التبغ الذي كان يعرض في سوق شندي "إن تجار التبغ يوجدون في كل ركن من أركان سوق شندي. ويعتبر استهلاك التبغ من وسائل الرفاهية. وأجود أنواع التبغ ترد من سنارويطلق عليه اسم "تابا". كذلك تستورد أدوات تدخين التبغ من هذه الجهات وكثيرون يخلطون التباكو بالنطرون. وهم يكثرون من استعمال السعوط الذي يتكون من مسحوق التبغ مضافاً إليه ثلث المقدار نطرونياً. كما أنهم يخلطون النطرون مع التبغ قبل مدغه. وتستورد علب السعوط المصنوعة من الأصداف من سنار. [ص٢٩١، ٢٩٢]

ويستورد قاتلاً ويقوم تجار سواكن بشحن أحمال كثيرة من التبغ على الإبل لأسواق جدة واليمن. [ص٢٩٢، ٢٩٣].

ويصف "بوركهارد" تجارة العطاراة والتوابل في شندي بقوله "وتكثر حوانيت البقالين والعطارين الذين يبيعون القرنفل والفلفل والجبهان والتمر هندي الذي يطلقون عليه هنا اسم "العرديب" ويستورد من كردفان. وهو ينمو في الشمال الغربي وإلى الغرب من

دارفور بين هذا الإقليم ودار صليح . ويكثر أيضاً في الأقاليم المجاورة لكردفان . ويستعمله سكان شندى كمشروب منعش بإذابته في الماء الساخن . وتصل كميات كبيرة من هذه الفاكهة إلى القاهرة إذ تنقل إلى مصر على الإبل ويطلق عليها اسم تمر هندی في القاهرة ، لأن جزءاً منها يستورد من الهند الشرقية ، حيث يتاجر فيه التجار الهنود بكميات وفيرة في جدة " [ص ٢٩٣] . ويمضى قائلاً " وكذلك خشب الصندل ويستورد من الهند بكميات وفيرة ، وهو يكون أحد عناصر المزيج العطري الذي يدهن به الجلد . وفي حالة المرض تعطر حجرة المريض عن طريق وضع قطعة منه على النار . وهو يباع على هيئة قطع طولها حوالي ست بوصات . وكثيره منه يصدر إلى سنار . " [ص ٢٩٣] . " والحلبة : وتستورد من مصر وتوصف في بعض الجهات كمقوى " [ص ٢٩٣] . " واللبان : وهو نوع من الصمغ يجمع بواسطة العرب الذين يقطنون الصحارى بين كردفان والشلوكة على الطريق إلى سنار . ويقال إنه يستخرج من ساق الشجرة بالطريقة التي يستخرج بها الصمغ العربي . ويباع على هيئة حلقات . وهو ذو رائحة قوية يستعمله أهل الريف كمعطر ولكنه غالي الثمن . وتجار القاهرة يتسلمونه من جدة ، وأهل القاهرة يعتبرونه نوعاً من البخور ويطلقون عليه " إنسينسو " Incenso " [ص ٢٩٤] . والصمغ العربي : ويباع بكميات قليلة في أسواق شندى . ويأتى تجار سنار وكردفان بأحمال الصمغ . وأجود الأنواع التي تمتاز بلونها الأبيض الصافي تأتى من كردفان من المناطق التي يقطنها بدو فضل Fadhel [ص ٢٩٤] . " والسسم : يستورد من دارفور . ويستعمل لطلاء حقن العين في حالة الشعور بالألم . وتحمل قوافل دارفور كميات كبيرة منه إلى مصر ، حيث يكون الإقبال عليه أكثر من الأقطار الجنوبية . [ص ٢٩٤] . والكحل : ويباع بكميات كبيرة للأهالي من مختلف الأماكن والطبقات من أجل تسويد جفون العين . ويستعمل في الأرياف كعملة متداولة ، إذ أن زوجات الفلاحين على استعداد دائم لاستبدال ما يمكن أن ينتج منه في منازلهن بالكحل " [ص ٢٩٤] . والقرقة : وتستورد بواسطة تجار الغرب (كردفان ودارفور) . والمغلى منها في الماء يستعمل كقايض في حالة الحمى والدوزنتاريا . وهذا النبات ينمو أيضاً بالقرب من الحبشة في منطقة الشكرية " [ص ٢٩٥] . ويضيف " بوركهارد " أن هناك أيضاً فاكهة تسمى اللوبى Allobo تجلب من سنار وكردفان ، وهى في حجم بيض الحمام . وتستخدم مادتها الداخلية كعلاج لغازات المعدة التى يشكو منها كثير من سكان هذه الجهات ، وتعرف هذه الفاكهة أيضاً باسم تمر البر أو تمر السودان . وأهالى كردفان مغرمون بأكله للغاية " [ص ٢٩٥] .

يقول " بوركهارد " فى وصف السوق فى شندى " إنه يعقد فى مكان متسع بين الحيين الرئيسيين فى المدينة . وهناك ثلاثة صفوف من الدكاكين مبنية من الطمى ، الواحد وراء الآخر . ويبلغ طول الواحد منها ستة أقدام وعرضه أربعة أقدام . وهى مغطاة بالحصر . ويحتلها التجار المشهورون بثرائهم . وهم يحملون بضائعهم إلى متاجرهم الكبيرة كل صباح ، كما يرجعون بها فى المساء ، لأن هذه المتاجر ليس لها أبواب تحميها . أما التجار

فيجلسون على الأرض تحت ستار الحصر التي يقيمونها على الأعمدة لتقيهم هم وزبائنهم من حرارة الشمس." [ص ٢٩٠].

ويصف السلع التي تعرض للبيع في السوق اليومي بقوله "وتعرض لحوم البقر والإبل. وتندر لحوم الضأن. ولا توزن اللحوم وإنما تباع بكميات تتراوح بين الرطل والثلاثة أرطال. ويستخدمون في الميزان الأحجار التي يجد البائعون عن طريقها فرصة سانحة للغش. والرطل يساوي نظيره في القاهرة." [ص ٢٩٠]. أما الأسواق الكبرى التي تعقد مرتين في الأسبوع "فهي تعقد يومي الجمعة والسبت. ويأتي إليها الناس من جهات مختلفة على مسيرة ثلاثة أو أربعة أيام من شندی. والجزء الأكبر منهم يحمل معه القطعان من أجل بيعها، ومن هؤلاء بدو الجعليين الذين يأتون من الصحراء الشرقية. وكذلك السكان المقيمين على ضفاف النيل." [ص ٢٩٥] ويصف ما يعرض في هذه الأسواق الكبرى بقوله "إن مئات من البقر والحمير وعشرات الخيل تعرض في هذين اليومين. وكل تاجر يأخذ مكانه في أحد المتاجر المفتوحة أو في فناء السوق ويعرض جزءاً من بضاعته. وتجار مصر وسواكن وسنار وكردفان يكونون مجموعات كلاً على حدة في وسط كل منها دائرة من العبيد المعروفين للبيع. وسكان الريف يحملون إلى السوق الحصر والأسبنة وجلود الثيران والحيوانات الأخرى والأواني الفخارية غير المتقنة وسروج الإبل والطباق الخشبية والأشياء الأخرى التي من صناعتهم الخاصة. وحوالي اثني عشر من صانعي الأحذية والصنادل من الريف يعملون في السوق في هذين اليومين. وفي الإمكان عمل جوز صندل في ساعة. كذلك يأتي الحدادون من الأرياف ويقومون بصناعة وبيع السكاكين الصغيرة." [ص ٢٩٦]. ويحدثنا عن دور السماسرة في تجارة شندی قائلاً "إن السماسرة يلعبون دوراً كبيراً في تجارة الجملة في شندی. ومعظمهم من دنقلة، وهم أذكي وأخرق التجار الموجودين في هذا الإقليم." [ص ٢٩٨].

يقول "بوركهارد" في وصف نظام النقد والتعامل في شندی: "إن العملة المنتشرة في شندی هي نفسها المنتشرة في بربر أي الذرة والدمور. والعبيد والإبل على العموم يشترون بالدولارات، أو تستبدل كل مجموعات العبيد ببضائع مصر وسواكن. والدولارات المتداولة مسكوكة في أسبانيا وتسمى "أبو مدفع" لوجود شكل بندقية على قلب الدولار، أو "أبو عمود". والمتداول منها المحتفظ بقيمته هو المكتوب عليه كارلوس الرابع أو Carolus III الذي يسمونه ريال أبو أربع. وهذه الأرقام أو الخطوط ينبغي أن تكون ظاهرة على الدولار لكي تكون قيمته كاملة. ويقولون أن الدولارات المكتوب عليها كارلوس الثالث Carolus III قيمتها أقل. والدولارات المسكوكة في عهد فرديناند تفقد ثلث قيمتها. والدولارات النمساوية لا تقبل بالمرة. وهناك حداد يقوم سراً بإضافة رقم I إلى دولارات شارل الثالث Charles III ويأخذ مقابل ذلك مكيايين من الذرة عن كل دولار. وهذا التمييز للأرقام أو الأعداد يقال إن البدو هم أول من أوجدوه. ولأن هذا التمييز

معترف به بين التجار في الوقت الحاضر، فإنه توجد ثقة كبيرة فيه. [ص ٢٨٩]. ويضيف:
"أن النقود الذهبية غير متداولة، ولكن الذهب الخالص على شكل قطع صغيرة أو كتل أو
حلقات للأذن، يمكن الحصول عليه دائماً وبسهولة من تجار سنار بسعر السوق. ولا
يوجد لدى التجار معيار للذهب ضمن ممتلكاتهم [ص ٢٩٠]."

تجارة شندى مع مصر:

لقد أتاحت "لبوركهارد" الفرصة لأن يقف بنفسه عن كذب على طبيعة هذه العلاقة
التجارية. يقول في وصفه التفصيلي والدقيق للسلع والبضائع التي كانت تصل إلى شندى من
مصر: "إن السلع الأساسية التي تستورد من مصر هي السمبل والمحبب. وكلاهما عليه
إقبال شديد في السودان، فالأول يستعمل كعطر ودواء، والثاني يستعمل كنوع من
التوابل وعادة يستعمل كدواء. والتجار يبيعون الصنفين مختلطين ببعضهما البعض بنسبة
ثلاثة أجزاء من السمبل مضافاً إليها جزءاً واحداً من المحلب. ولذلك فإن حمل الجمل
يكون عادة بنفس النسبة، فيتكون الحمل من ٣٥٠ رطلاً تقريباً من الصنف الأول و ١٢٠
رطلاً من الصنف الآخر. ويشترى تجار سنار هذه الأصناف مقابل الدولارات أو الدولار أو
العبيد. [ص ٢٩٩]. ويمضى في وصف السلع والبضائع التي كان يأتي بها التجار المصريون
إلى شندى، فيقول "والصابون يرد إلى مصر وبلاد العرب مصنوع في غزة وياقا وحبرون
Habron وأورشليم. وحتى ذلك الوقت لا تنتج مصر نوعاً جيداً من الصابون. وعلى الرغم
من وجود عدة مصانع للصابون في أسبوط إلا أن الصابون المصنوع هناك من النوع الرديء.
فالزيت الذي يستخدم في هذه الصناعة من الخس وليس من الزيتون. بيد أن محمد علي
أنشأ أخيراً -تحت إشراف وتوجيه رجل إيطالي قدير- مصنعاً للصابون في الدلتا،
ويستحضر الزيت اللازم من "أركيبلاجو". كما أن بحيرات النطرون تغذى المصنع بالمادة
القلوية اللازمة". [ص ٣٠٠]. ويصف تجارة الصابون في السودان بعامة وفي شندى بخاصة
بقوله "والصابون سلعة مريحة وعليها إقبال شديد في جميع الأقطار الجنوبية"، ويقول عن
سلعة السكر التي كانت ترد أيضاً إلى شندى من مصر "إن السكر الذي يزن حوالى أربعة
أرطال ويبلغ سعره الإنتاجي في مصانع مصر العليا سدس دولار يباع في شندى بدولار.
ويرجع ارتفاع سعره إلى الأخطار الجسيمة التي تتعرض لها تلك السلعة أثناء نقلها، مثل
سقوط الأمطار فجأة على الطريق. الأمر الذي يترتب عليه هلاك الشحنة
بأكملها. [ص ٣٠٠]. ويصف شدة الإقبال على السكر المصرى الوارد إلى شندى بقوله "إنه
يوجد إقبال شديد على السكر في جميع الأجزاء لإرساله كهدايا للشخصيات الكبيرة
وللنساء. إذ أن أحدث الموضات بين نساء مدينة شندى أن يكسب ودهن بقالب سكر.
ويؤكل السكر بذاته دون استخدامه في أنواع الحلوى أو الطعام. [ص ٣٠٠]."

وبالإضافة إلى تلك السلع يذكر "أن هناك واردات من الصناعات المصرية (في شندى) وهى "التاكات" Takas التى هى نوع من القماش الخشن ذات اللون الأزرق. ويستخدمه النساء وبخاصة البدويات كغطاء لأجود ملابسهن. وهو يباع على هيئة قطع صغيرة يبلغ سعر القطعة الواحدة فى شندى دولاراً. وهى أكثر السلع التجارية تداولاً بقليل من المساومات. ويقوم تجار كردفان بشراء هذا النوع من القماش وهو مقبول فى كل مكان، ويستعمل فى التعامل فى حالة عدم وجود دولارات لدى الشخص." [ص ٣٠٠، ٣٠١]. ويصف المكانة التى كانت تحتلها بعض أنواع الأقمشة المصرية وبخاصة المصنوعة فى المحلة لدى بعض الطبقات والشخصيات البارزة فى المجتمع، إذ يقول "والأقمشة القطنية بيضاء اللون ذات الأطراف الحمراء المصنوعة فى المحلة فى الدلتا (دلتا مصر) تلبسها الشخصيات العظيمة، وبخاصة فى سنار، وأيضاً الملايات القطنية التى يلتف بها النساء من على القوم عند نومهن. كذلك تأخذ قوافل دارفور من مصر -كهدايا للملوك والشخصيات الأخرى البارزة- الأقمشة القرمزية وبعض الأقمشة القطنية والستان المطرزة بالذهب من النوع الخفيف من ليون وفرنسا، مع أنواع مختلفة من الأقمشة الإنجليزية، وقماش الكتان المصنوع فى أسبوت ومنفلوط، وهو مطلوب بكثرة لعمل الملابس، ولكن لارتفاع سلعه لا يععم استعماله." [ص ٣٠٠].

وعن السلع والبضائع المصرية الأخرى التى كانت ترد إلى شندى من مصر يقول: "وجلود الضأن المصرية المحتفظة بأصوافها (الفروة) تعتبر من السلع الهامة المستوردة، فهى تستعمل كسروج للخيل والحمير التى يستخدمها المواطنون. كما تستعمل كأبسطة يجلسون عليها فى حجرات نسائهم." [ص ٣٠٠]. كذلك يحدثنا عن الخرز الذى كان يمثل سلعة تجارية هامة تجد طريقها إلى شندى وأقاليم السودان الأخرى عن طريق مصر بقوله "والخرز يستخدم فى هذه الأقطار كنوع من العملة المتداولة. والنوع الأكثر شيوعاً هو المصنوع من الخشب ذى الحجم الصغير وهو يصنع بواسطة الخراطيين فى مصر العليا ويحمله البدو والفلاحون. والأصناف الأخرى التى تصنع فى دندرة فى مصر العليا إنما تعمل من أنوية الدوم، ويلبسها أولئك الذين يرغبون فى أن يميزوا أنفسهم بأنهم أهل تقوى. وأنواع مختلفة من الخرز الأحمر والأسود اللون يستورد من أورشليم. والخرز الزجاجى ليس متداولاً هنا بالدرجة التى نراه عليها فى الحبشة ودارفور رغم أنه يلاحظ دائماً فى السوق. والنوع الجيد هو الذى يرد من البندقية. ولكن الجزء الأكبر منه مصنوع فى الجليل (أو حربون Herbon بالقرب من أورشليم)، والزرجاج الأبيض اللون المصنوع فى بوهيميا يجد طريقه إلى دارفور." [ص ٣٠١، ٣٠٢]. ويستطرد الرحالة فيصف لنا أهمية الخرز الزجاجى التجارية فى شندى وأقاليم السودان الأخرى فى كردفان ودارفور، مشيراً إلى مناطقه الأصلية، والأنواع التى كان يحملها تجار سواكن إلى شندى قائلاً "ويحمل تجار سواكن إلى شندى أنواعاً من الخرز المسمى "ريش" Reysh الذى يقبل على شرائه

بكثره تجار كردفان حيث يحتل سلعة أساسية يستبدلون بها الرقيق في إقليمهم. كما أن هناك إقبالاً على هذا الخرز في دارفور ودار صليح وبرقو إلى الغرب من دارفور. و"الريش" يأتي من الهند الشرقية، وبخاصة من سرات. وألف (حبة) من هذا الخرز يمكن أن يشتري بها ست إناث من العبيد إذا جرى نقلهن إلى شندى أمكن بيعهن بمبلغ يقدر بمائة وعشرين دولاراً. و"الريش" يلبسه النساء كقلادة أو عقد حول الرقبة. وهو أكثر السلع التجارية ربحاً لسهولة نقل الخرز، كما يمكن حفظه بعيداً عن رقابة أعين رؤساء الإقليم. [ص ٣٠٢]. وإلى جانب الخرز هناك المزجان والكهرمان كأنواع أخرى من الحلى يستخدمها أهالي تلك الجهات، ولكن أقل قيمة.

وهناك أيضاً السلع والمصنوعات الأوروبية التي كانت ترد إلى شندى وأقاليم السودان الأخرى (الغربية) عن طريق مصر إلى جانب السلع والبضائع المصرية "والورق من جنوة ولجهورن والقصدير ذات القضبان الرفيعة يكون بكمية قليلة والنحاس الأحمر القديم، وبخاصة المصنع في شكل أوان كبيرة وأوعية ينقلها تجار الرقيق لاستخدامهم الشخصي. وسلك النحاس الأصفر الذي يلاحظ عليه إقبال شديد في جميع تلك الأقاليم لاستعماله في تزيين القلادات أو العقود. [ص ٣٠٣]. ويضيف قائلاً "ومن البضائع المعدنية الأكثر تداولاً الأمواس وهي تصنع في ألمانيا، والمبارد التي يحول جميعها تقريباً إلى سكاكين للحصول على أنصال جيدة من الفولاذ، والكستبان، والمقصات، والإبر من النوع الخشن المصنوعة في نورمبرج. والسيوف التي يعم استعمالها في جميع مواطن السودان تأتي من سولنجن Solingen في ألمانيا. وحوالي ثلاثة آلاف منها تباع سنوياً في القاهرة لتجار الأقطار الجنوبية. وحجر الكحل في شكل كتل صغيرة، والقطران الذي تطلّى به القرب كي تحتفظ بالمياه، كما تطلّى به ظهور الإبل لتحفظها من الجرب أو لعلاجها من هذا المرض. والحلى الفضية للنساء مثل العقود والحلقان تأخذ منها قوافل دارفور كميات وفيرة من مصر. والأجراس الصغيرة التي يزين بها أهالي سنار ودارفور سنام ولجام الإبل. . والمرايا المذهبة المصنوعة في البندقية وتريستا تعتبر سلعة بارزة في التجارة المصرية. والأنواع الأكثر انتشاراً هي التي تبلغ مساحتها ٤ بوصات مربعة، والبعض الآخر مستدير من نفس الحجم وذات مقبض طويل مصنوع في القاهرة. ولا تتزوج الفتاة هنا دون أن تزين حجرتها بمثل هذه المرأة". [ص ٣٠٤، ٣٠٥].

ويصف "بوركهارد" الأرباح الكبيرة التي كان التجار المصريون يحصلون عليها بصفة عامة من تجارتهم مع السودان، رغم صعوبة الرحلة إلى هذه البلاد ومتطلبات الحكام والرؤساء بقوله "إنه من الملاحظ أن أرباح المصريين عظيمة، فالواقع أنه لا توجد سلعة مصنوعة في مصر وأوروبا تباع في شندى بأقل من ضعف أو ثلاثة أضعاف السعر الذي تباع به في مصر. كما أن منتجات الأقطار الجنوبية تدر ربحاً كبيراً إذا بيعت في مصر". [ص ٣٠٦]. وبعد أن يعدد نفقات النقل عبر الصحراء والضرائب التي يتعرض لها التجار خلالها التي يصفها بأنها في الواقع عوائق ثقيلة [ص ٣٠٦] يقول "ولكن مع ذلك

فالأرباح لا زالت وفيرة، فمن المؤكد أن مجموعة من البضائع المتنوعة إذا اختيرت اختياراً حسناً، ونقلت من دراو إلى شندی من أجل بيعها، فإنه عقب بيع الشحنة العائدة (من شندی) في دراو يمكن الحصول على ربح يقدر بـ ١٥٠٪. فإن ما يحمله الجمل من السمبل والمحلّب عقب استبداله في شندی بالعبید یدر في القاهرة ربحاً يقدر بـ ٥٠٠٪ تقريباً. [ص ٣٠٦].

ويستطرد "بوركهارد" في وصف أرباح التجار المصريين من السودان قائلاً "ولقد وُجد التجار المصريون أخيراً أن الدولارات أعظم السلع المستوردة من أوروبا فائدة، لأنه بالدولارات يمكن الحصول حالاً على أكبر عدد من الإبل، ولكن هذا التفصيل سيستمر مادام الإقبال في مصر على الإبل مستمراً من أجل حركة النقل بين قنا والقصير، من أجل إمداد الجيش التركي في الحجاز. ولا يوجد إلا عدد قليل من التجار المصريين الأغنياء الذين أتوا إلى شندی بـروس أموال كبيرة." [ص ٣٠٦، ٣٠٧]. ويصف بصفة عامة حجم تجارة مصر مع السودان وقت زيارته (١٨١٣) "بأن جملة المبلغ الذي يستغله التجار المصريون في تجارة السودان بين ستين وثمانين ألف دولار. ولكن نظراً لأن هذا المبلغ یدر ربحاً مضاعفاً وفي بعض الأحيان ثلاثة أمثاله في العام الواحد حسب عدد الرحلات فإن جملة قيمة الواردات إلى تلك الأقطار من مصر يمكن تقديرها بمعدل ألف وخمسمائة أو ألفين دولار كل عام." [ص ٣٠٧]. ويضيف: "أنه لا تصدر من الأقطار الجنوبية دولارات، إذ أنها تبدد أو تخزن سراً عن طريق الرؤساء أو أشخاص آخرين ينفقونها لمصلحتهم الخاصة. ومن أجل ذلك فالسودان يضيع بصفة مستمرة جزءاً من فضة أوروبا." [ص ٣٠٧].

أخيراً يختم "بوركهارد" دراسته لتجارة شندی مع مصر، وبخاصة عن الطريق الشرقي عبر صحراء النوبة بإبداء رأيه فيها، بقوله: "إن التجارة (تجارة مصر مع السودان عن الطريق الشرقي) ينبغي أن تصلح شئونها كثيراً سواء أكان عن طريق تنظيم رحيل القوافل (إذ يجب أن تغادر دراو مثلاً مرة كل أسبوع)، أو عن طريق تأسيس شركات في بربر وشندی، لأنه في الوقت الحاضر تظل القوافل من جميع الجهات دائماً في انتظار قدوم القوافل الأخرى التي عن طريقها فقط تستطيع تصريف بضائعها. وصحراء النوبة يخرقها في الحقيقة كل أسبوعين جماعات صغيرة من المخاطرين، ولكنهم يتأخرون في مكان على الطريق. والبضائع المصرية قلما تتوافر في شندی (واعتقد أن ذلك يحدث أيضاً في سنار) إلا عقب مجئ القوافل الكبيرة التي أصبح رحيلها من دراو في الوقت الحاضر غير منتظم بالمرّة. وقافلة سنار ترحل من مصر العليا عادة مرة في العام وترجع في العام التالي. إنها تستريح في بربر والدامر وشندی. وعادة تستغرق من شهرين إلى ثلاثة أشهر في طريقها من دراو إلى سنار. وهذه القافلة تتكون من ثلاثمائة إلى أربعمائة رجل وعدد كبير من الإبل، وتتصل عند رجوعها بعدد كبير من تجار سنار، وبخاصة وكلاء ملك سنار ووزيره الذين هم أهم التجار الموجودين في ذلك المكان."

تجارة شندي مع سنار

قدم وصفاً عن تجارة شندي مع سنار، تناول فيه مواعيد وصول قوافل سنار إلى شندي وبعدها، والسلع والبضائع التي كانت تحملها إلى شندي من منتجات سنار ذاتها، والأقطار المجاورة لها مثل الحبشة التي كانت تربطها بسنار علاقات تجارية. كذلك ما كانت تعود به تلك القوافل من السلع والبضائع المختلفة التي كانت تزد إلى شندي عن طريق القوافل التي كانت تأتيها من مصر وأقاليم السودان الأخرى مثل دنقلة وسواكن ودارفور، وبخاصة الرقيق الزنوج. يقول في وصف قوافل سنار القادمة إلى شندي: "إن القوافل من سنار تصل إلى شندي كل ستة أسابيع أو شهرين. وعندما تحمل ذرة يبلغ عدد الإبل المحملة من خمسمائة إلى ستمائة، ولكن إذا كانت تحمل بضاعة وعبداً فقط فإنه قلما تضم مائة جمل". [ص ٣٠٨]. ويصف السلع والبضائع التي كانت تحملها قوافل سنار عادة إلى شندي بقوله "والشيء الرئيسي الذي يصدر من سنار هو الدمور أو القماش المصنوع من القطن الذي لا يستعمل على طول ضفاف النيل حتى دنقلة فحسب، بل وأيضاً في كردفان وفي جزء كبير من دارفور والحبشة، وفي جميع بلاد النوبة شرق النيل حتى البحر الأحمر. وهذه السلعة عليها دائماً إقبال شديد. ويمكن الحصول بها على جميع السلع التجارية تقريباً. ومصانع سنار وباقرمه Bagerme الواقعة إلى الغرب من دارفور تمد الجزء الأكبر من إفريقية الشمالية الشرقية بالأقمشة". [ص ٣٠٨].

ويمضي "بوركهارد" في وصف السلع والبضائع التي كانت تحملها قوافل سنار إلى شندي قائلاً "والذهب هو ثاني سلعة في تجارة سنار ويقوم تجار سنار بشراؤه من تجار الحبشة. ولكن لا نعلم بالتأكيد في أي مقاطعة من الحبشة الغربية يوجد ويبدو أن السوق الرئيسية للذهب في "رأس الفيل" Ras El Fil وهي علي طريق القافلة من سنار "لجوندار" Gondar علي مسيرة أربعة أيام. وهذا الطريق في الوقت الحاضر يطرقة كثيراً تجار سنار كما هو الحال بالنسبة لطبقة التجار الأحباش التي يطلق عليها اسم "جبرت" Jebert الذين هم رؤساء وتجار العبيد والذهب في ذلك الإقليم" [ص ٣١٠]. ويصف "بوركهارد" تجارة الذهب في شندي الذي كان يأتيها من سنار بقوله "والذهب الذي يرد من سنار يشتريه في المقدمه تجار سواكن الذي يحملونه إلى جدة، حيث يدفع ثمننا للبضائع الهندية. وقلما يشتريه التجار المصريون، لأنه لا يأتي بربح كبير. وفي سنار يبلغ سعر أوقية الذهب الخالص اثني عشر دولاراً، وفي شندي ستة عشر دولاراً، وفي سواكن عشرين دولاراً، وفي جدة إثنا عشر دولاراً وبالرغم من أن تجار سواكن في استطاعتهم أن يشتروا من شندي كثيراً من السلع الأكثر ربحاً من الذهب، فإنهم يفضلون الذهب بالنظر إلى سهولة نقله وإخفائه وتجنب دفع أي ضريبة في الطريق". [ص ٣١٠].

وكان تجار سنار يحملون الرقيق إلى شندي. ويصفه: "والرقيق إما أحباش أو من جنس يسمى «النوبا» [ص ٣١١]. والرقيق الأحباش يكونون عادة من نساء مالك «الجاله» وعدد قليل من «الأمرار» وعدد رقيق الأحباش الذي يرسل إلي الشمال عن طريق شندي قليل. وأحسن النساء من الخاصة. وفي بلاد العرب ومصر يكون سعر رقيق الأحباش الوارد من مصوع عن طريق التجار «الجبرتا» الذين يبيعونه في جده أرخص ويقدر عدد النساء الحبشيات اللائي يصدرن سنويا من سنار إما إلى سواكن أو إلى مصر حوالي المائة. وقد اشترى المماليك عددا كبيرا منهن. والحبشيات يفضلن عن النساء السود من أجل جمالهن وحرارة وثبات حبهن لسيدهن الذي يعلمهن كيف يحببهن» [ص ٣١٠، ٣١١]. ويضيف أن الرقيق النوباويين يفضلون في مصر، كما في بلاد العرب عن غيرهم في العمل. وهم يمتازون بخلق حسن. ويباعون في شندي وفي مصر بسعر يزيد ٢٠٪ عن الزنوج الآخرين. وعلى النقيض من ذلك الأحباش الذكور فهم مشهورون بقله صلاحيتهم للعمل الجسماني، ولكن يمتازون بإخلاصهم وصلاحيتهم كخدم في البيت. وعادة يعملون كتابة، ويفوقون الرقيق السود عقلية. ويقال إن تركيب بنية النوباويين أكثر قوة، كما أنهم أقل إصابة بالأمراض. والجزء الأكبر منهم يصدر إلى مصر، ولكن بعضهم يرسل إلى سواكن» [ص ٣١٢].

ومن السلع الأخرى التي كانت تحملها قوافل سنار إلى شندي العاج. وقد وصف "بوركهارد" تجارته بقوله "إن التجار المصريين يشترون أنياب الفيل ولكن بكميات قليلة. وهذا الفرع من التجارة يبدو أنه كان أول الأمر أكثر انتعاشا، بيد أنه في الوقت الحاضر أصبح الإقبال على العاج في مصر قليلاً. ومن المحتمل أن ذلك راجع إلى أن أوروبا تحصل الآن على حاجتها منه بسعر رخيص من بربرة والهند الشرقية. ومهما يكن من أمر فإن استيراد العاج كثيرا ما يعثره الكساد في سوق القاهرة" [ص ٣١٢]. كذلك قرون الخرثيت الذي يذكر: "أنها تستعمل في القاهرة للزينة كمقابض للسيوف والخناجر حسب موضحة (تقليد) المماليك وأنها غالية الثمن" [ص ٣١٢]. والكرابيغ التي يشير إلى أنها تستورد من سنار فقط [ص ٣١٣]. والأبنوس الذي يقول "إنه يجلب علي شكل قطع صغيرة، ويذكر "أن الغابة التي ينمو فيها تقع إلى الجنوب من سنار، ولكن على مسافة كبيرة، ولذلك فسعره مرتفع جداً، ومقابض السكاكين المصنوعة منه بدقة تأتي من سنار والجلابة أو تجار الرقيق لا يحملون الأبنوس إلى مصر. والقاهرة تحصل عليه من جدة" [ص ٣١٣، ٣١٤].

وهناك أيضا تجارة الجلود التي اشتهرت بهاسنار "إن أحسن مصانع الجلود في المنطقة الممتدة من دارفور حتى البحر الأحمر توجد في سنار" ... "إن مهارة الصناعات تظهر بصفة خاصة في صناعة سروج الإبل والأكياس الجلدية والصنادل. والأولى تصدر إلى مصر من أجل الإبل المعدة للركوب. وتباع هناك بسعر مرتفع يبلغ عشرين دولاراً. والأكياس الجلدية يقوم بشرائها تجار سواكن، ثم يبيعونها لأهالي اليمن الذين يستعملونها في حمل

مؤنهم أثناء السفر، وهى تحاك بإتقان تام، وبعضها يقفل بقفل. وقد بيع عدد كبير منها فى مكة للوهابيين بواسطة أهالى سواكن. والجلد من أجود الأنواع، ويفوق كثيرا المصنوع فى مصر وسوريا، وهو تقريبا مثل جلد الروسيا من حيث الجودة. وصنادل سنار يلبسها الرجال والنساء المعروفون بحسن هندامهم فى بلاد النوبة. ويبلغ سعر الصندل الجيد دولارين. وكل مكان فى هذه الأقطار له موضة خاصة به فى شكل الصندل الذى اعتاد سكانه أن يلبسوه. ولذلك عن طريق الخبرة يمكن التأكد من موطن الشخص بالنظر إلى قدمه" [ص ٣١٤، ٣١٥]. كذلك يذكر "بوركهارد" "أن العسل يستورد بكمية كبيرة من سنار. والعرب القريبون من سنار يجمعون العسل البري بكميات عظيمة [ص ٣١٥]. على أن الذرة والإبل كانتا أهم السلع التى ترد من سنار إلى شندى ولولا ذرة سنار لهددت شندى المجاعة [ص ٣١٥].

ويقارن "بوركهارد" بين درجة ثراء تجار سنار والتجار المصريين الذين يأتون إلى شندى من واقع ملاحظاته قائلا "وتجار سنار أكثر ثراء من التجار المصريين. وليس من النادر أن تجد تاجرا من سنار يملك عشرة أحمال إبل من قماش الدمور ومجموعة كاملة من الرقيق. وهناك تاجر من سنار اشترى وهو موجود فى شندى كل أحمال القافلة المصرية التى كانت تحتوى ثلاثين حملا [ص ٣١٥]. وأخيرا عن السلع والبضائع التى كان تجار سنار يعودون بها من شندى، مما كانت تأتى بها إليها القوافل من مصر وأقاليم السودان الأخرى فيقول: "ويأخذ تجار سنار عند رجوعهم من التجار المصريين السمبل والمحلب بكميات وفيرة وكذلك السكر والصابون، وتقريبا كل سلع أسواق مصر وسواكن. ومنذ أن انقطع الاتصال المباشر بين سنار وكردفان أصبح سكان سنار يشترون من شندى الرقيق الزوج الذين يأتون من كردفان إذ يمكن هنا الحصول على هذا النوع من الرقيق بأسعار منخفضة عن أسفار الرقيق النوباويين" [ص ٣١٦]. ويضيف: "أنه فى أثناء إقامته فى شندى أصبح الطريق عبر النيل إلى سنار خطرا بالنظر إلى المشاحنات التى قامت بين ملوك "الحلفاية وإربجى"، ولذلك فضلت القوافل أخذ طريق الصحراء، الذى يقع محازيا للنهر ولا تقع سوى بئر واحدة على هذا الطريق على مسيرة ثلاثة أيام من شندى تقريبا. وحتى هذا الطريق فى بعض الأوقات لا تسلكه القوافل نظرا لتردد بدو الشكرية الذين يخشاهم سكان سنار بشدة عليه" [ص ٣١٦]. وعن الدور الذى كان يلعبه ملك سنار فى تجارة بلاده مع شندى يذكر: "أنه لا تفرض ضرائب مرور أو جمارك فى سنار، وإن العائق الوحيد الذى يعوق التجارة هو أن الملك دائما يعرض بضائعه الخاصة على المشتري دون مساومة" [ص ٣١٦].

تجارة شندى مع كردفان

يصف "بوركهارد" طبيعة العلاقات التجارية بين كردفان وشندى بقوله: "إن وصول قوافل كردفان إلى شندى غير مؤكد، إذ يتوقف على تقلب خواطر حاكم كردفان الذى كثيرا ما يمنع التجار من الرحيل لأجل زيادة منافعه التجارية. وفى بعض الأحيان تنقضى ثلاثة شهور دون وصول أى قافلة، ثم يتتابع وصولها سريعا. والطريق من الأبيض عاصمة كردفان إلى شندى أمن للغاية. ويستغرق قطعه أربعة عشر يوماً، والخمسة أيام الأخيرة منها تمضى فى صحراء دون ماء. ويأتي مع قوافل كردفان أيضا تجار من دارفور. والعلاقة بين كوبة عاصمة دارفور والأبيض (عاصمة كردفان) يقال إنها فى حالة نشاط كبير واستقرار تام. وكردفان لا تملك عبداً آخرين أكثر مما يأتون إليها من دارفور. إذ يبدو أن سكانها لا يتعاملون مع أقاليم الزنوج الجنوبية. ومنذ أن وصل المماليك إلى دنقلة انفتح طريق التجارة بين ذلك الإقليم وكردفان التى يقال إن الأطراف الشمالية منها تقع على مسيرة ستة أيام فقط من دنقلة". [ص ٢١٦].

ويتناول "بوركهارد" الحديث عن السلع والمنتجات التى اعتادت قافلة كردفان أن تحملها إلى شندى قائلا "إن وصول أى قافلة من كردفان إلى شندى تملأ السوق بالرقيق الذين يمثلون الوارد الرئيسى من هناك. ويحمل تجار كردفان معهم أيضا الصمغ العربى، وهو من أجود الأنواع المعروفة فى أقطار السود وهو على شكل حبوب صغيرة ولونه أبيض ناصع [ص ٢١٧]. وكذا العرديب والصمغ اللبان والنطرون من دارفور والسمسم الذى يستخدم فى مصر لعلاج أمراض العيون. والبسلة الصغيرة التى تنمو فى كردفان ودارفور. والبسلة التى تزرع فى دارفور تمتاز بجمال منظرها، وتلبس فى خيوط على هيئة عقود. كذلك يبيع تجار كردفان فى شندى الحبال المصنوعة من الجلد. والسكان الذين يعيشون على ضفاف النيل يصنعون الحبال من الليف أو من النباتات التى تنمو على ضفاف النهر، ولكن جميع المناطق الغربية حيث لا ينمو النخيل يستعملون لربط أحزمتهم السيور الجلدية المفتولة وتمتاز بصلابتها وقوتها، وهى ذات أهمية كبيرة فى السفر عبر الصحارى بالإبل المحملة بالأحمال الثقيلة وهذه الحبال تباع لتجار مصر وسواكن، بالإضافة إلى الأكياس الجلدية المصنوعة من جلد الثور فى كردفان ودارفور. وهذه الأكياس تستعمل فى نقل خبز الذرة كطعام للرقيق. أما قرب الماء الكبيرة المصنوعة من جلود الثيران فيستعملها التجار الذين يكون معهم عدد كبير من الرقيق لنقل الماء عبر الصحراء. واثنان من هذه القرب تكونان حملاً على الجمل. وتلك القرب تحفظ كمية من الماء أكثر من القرب المصنوعة من جلد الماعز، كما أن سمك الجلد يمنع الماء من التبخير بسرعة والقرب تمثل سلعة تجارية هامة بين دارفور ومصر إذ أنها تستخدم فى كل مدن مصر، وبخاصة فى القاهرة لنقل الماء من النهر إلى المدينة لحاجة السكان اليومية. وتجار كردفان يحملون أيضا القرب المصنوعة من جلد الضأن، وتظهر المهارة الفائقة فى

صناعتها، إذ يسلخ الجلد بعناية دون إحداث أى قطع فيه. وهناك سلعة أخرى ترد من كردفان وهى الأطباق الخشبية المتسعة والسلطانيات (نوع من الأواني) كثيراً ما تحل محل الأنواع الصينية. والأواني والأطباق والفناجين وغيرها توضع على الرفوف فى حجرات الاستقبال كزينة فى البلاد المحترمة فى الشرق. وبعض هذه السلطانيات كبيرة الحجم بحيث تسع من الطعام ما يكفى اثنا عشر شخصاً، وهى مصنوعة بإتقان بحيث لا يلاحظ أثر الآلات التى تستعمل فى صناعة هذه الأواني" [ص ٢١٧، ٢١٨]. كذلك كان تجار كردفان يحملون إلى شندى ريش النعام عليه إقبال شديد [ص ٣١٨]. ويصف "بوركهارد" تجار كردفان الذين يترددون على شندى "بأنهم من ذوى الأملاك (رءوس الأموال) المتوسطة. والجزء الأكبر منهم له زوجات فى شندى وفى دارفور كما فى الأبيض. وهم يشترىون الرقيق من دارفور ويظنون بعض الوقت مع عائلاتهم فى الأبيض. ثم بعد ذلك يحملون عبيدهم إلى شندى وهم يمتازون بخلق حسن" [ص ٢١٨، ٢١٩]. ويقارنهم بسكان سنار "بأنهم أكثر أمانة منهم، ولكن هذه الفكرة الحسنة المعروفة عنهم لا تغرى أى إنسان بأن يعطيهم بضاعة بالأجل [ص ٣١٩].

ثم يحدثنا "بوركهارد" عن السلع والبضائع التى كان تجار كردفان يعودون بها إلى بلادهم من شندى بقوله "إنهم يأخذون عند رجوعهم إلى بلادهم من شندى القليل من السمبل والمحلب وبعض الكحل والخرز وكميات كبيرة من التوابل، وبخاصة القرنفل الذى يوجد إقبال شديد عليه فى الأقاليم الغربية. وقليل من المصنوعات المعدنية والدمور من إنتاج سنار، والكتان من إنتاج مصر. والأقمشة القطنية المستوردة من سواكن، وقليل من الملابس المصنوعة من الأقمشة الحريرية الواردة من الحجاز التى يلبسها الزعماء كعلامة مميزة لهم. وبعض حبوب القهوة [ص ٣١٩]. ولكن فوق كل ذلك "الريش" أو الخرز الزجاجى الهندى" [ص ٣١٣]. ويشير إلى نظام التعامل فى كردفان موطن هؤلاء التجار قائلاً "والعملة السائدة فى كردفان إلى جانب الذرة هى القطع الحديدية الصغيرة التى يمكن أن يشتري بها من السوق اللبن وخبز الدخن: وهذه القطع الحديدية تجمع ويعمل منها قئوس ورءوس الحراب. والأبقار تستعمل أيضاً كوسيلة للتبادل. والعبيد كثيراً ما يشتري بهم عدد كبير من الأبقار. والمروج البرية اللازمة لإطعام الأبقار من الوفرة بحيث لا يعترض أحد على الاحتفاظ بأعداد كبيرة من هذه الحيوانات فى الأحواش الخاصة" [ص ٣١٩].

تجارة شندى مع سواكن:

سواكن ميناء هام على الشاطئ الغربى للبحر الأحمر. وقد كان على مر العصور المنفذ الرئيسى لتجارة السودان مع بلاد العرب وأقطار جنوب شرق آسيا مثل الهند وجزر الهند الشرقية [ص ٣٢١]. وكانت تربطه بأقاليم السودان فى الداخل طرق ومسالك اعتادت قوافل

التجارة أن تسلكها دائماً. وقد اشتهر تجار سواكن من الحدارية برحلاتهم التجارية إلى بعض الأقاليم السودانية قبل سنار وكردفان وشندى. يقول: "بوركهارد" في وصف حركة التجارة بين سواكن وشندى والقائمين بأمرها "إن أكثر التجار ثروة الذين يترددون على سوق شندى في الوقت الحاضر هم من سكان سواكن، أو كما يعرفون باسم الحدارية أو الحضارمة أى سكان حضرموت جنوب بلاد العرب وهى الموطن الأصلي لهم. وبعض هؤلاء التجار موجودون دائماً فى شندى. وترحل القوافل من سواكن إلى شندى وبالعكس. ولا يمر شهر دون أن تأتى قوافل من سواكن. والحدارية يزورون أيضاً سوق سنار [ص ٣١٣، ٣٢١]. وقوافلهم التى تذهب إلى هناك تأخذ إما طريق شندى أو الطريق القريب وهو طريق قور رجب على نهر العظيرة ومنها يتقدمون فى اتجاه مستقيم عبر الصحراء إلى سنار. وبعض الحدارية يترددون على الأبيض فى كردفان. ولكن ليس بالعدد الكافى الذى يكون قافلة. لذلك فهم يتصلون بتجار سكان هذه البلاد فى شندى. وقوافلهم فى شندى تجد ترحيباً من أهالى كردفان وسنار. إذ أنهم أكثر المشتريين إقبالاً على بضائعهم، ولكنهم يخلقون غيرة كبيرة وسط التجار المصريين المنافسين لهم فى مختلف السلع الواردة" [ص ٣١٩، ٣٢٠].

وعن السلع والبضائع التى كان تجار سواكن يأتون بها إلى شندى يقول "بوركهارد": "وتجار سواكن يمدون شندى بالبضائع الهندية الرئيسية مثل الأنواع المختلفة من قماش البقطة، ونوع آخر يسمى "بنوه" من مدراس وسرات، وكذلك قماش الموسلين الخشن من البنغال الذى يستعمله بعض سكان شندى وسنار. ولكن الجزء الأكبر يعطى لتجار كردفان مقابل العبيد. ويأتون كذلك بالتوابل وبخاصة القرنفل والزنجبيل والسكر الهندى وخرز مخا كما يسمونه كذلك على الرغم من أن لا شىء من هذا القبيل يصنع فى مخا، وأيضاً خشب الصندل الذى له أهمية تجارية، إذ يجد طريقه من هنا إلى المناطق الغربية من دارفور حتى باقرمى Bagerme كذلك يحملون "الضفرة" الذى يشتريه تجار سنار ودارفور. و"الضفرة" صدف حيوان يعيش فى البحر الأحمر يقطع إلى أجزاء صغيرة، وتستخدم كعطر يأتى برائحة زكية عندما يوضع فوق النار. وأحياناً تقطع "الضفرة" إلى أجزاء مثل الخرز يستعملها السيدات فى الحجاز ومصر كقلادات ولونه أسود أو أزرق داكن ذات عروق براقة اللون. وسكان سواكن يصدرونه أيضاً إلى جدة" [ص ٣٢٠].

أما السلع والبضائع التى كان الحدارية من تجار سواكن يعودون بها من شندى إلى بلادهم فيحدثنا عنها بقوله "والحدارية يأخذون عند رجوعهم الذهب والعبيد (مفضلين الأحباش) وجميع السلع الأخرى التى تدخل فى نطاق تجارة السود، ماعدا الصمغ العربى، مع أنهم فى بعض الأحيان يأخذون هذه السلعة أيضاً ويبيعونها فى مخا للتجار الإنجليز والأمريكان. كذلك فإن كل قافلة من سواكن تشتري من شندى ويقارنهم بغيرهم من التجار الغرباء الذين يفدون إليها قاتلاً" هؤلاء التجار يتمتعون فى شندى بثقة أكبر من

غيرهم، لأنهم أكثر ثروة وعدداً. وهم عرب أحرار وليسوا فلاحين مثل أولئك الذين يأتون من مصر العليا أو سود مثل أولئك الذين يأتون من كردفان. ولكنهم ينتمون بوجه خاص إلى أرقى العائلات في سواكن. وهم على استعداد لأن ينتموا من أية إهانة توجه لواحد منهم. والمك يعاملهم دائماً بأدب، وإليه يقدمون هدايا أضخم من تلك الهدايا التي يقدمها التجار الآخرون" [ص ٣٢١].

تجارة شندي مع دنقلة

يصف "بوركهارد" تجارة دنقلة مع شندي "بأنها ذات أهمية قليلة" [ص ٣٢١]. ويضيف "أن أهل دنقلة يحملون إلى شندي التمر الذي يشترونه من المحس، والتبغ الذي ينمو في بلادهم. والتمر يجد طريقه إلي سنار وكردفان حيث يرسل كهدايا للرؤساء. وتعتبر التمور هناك أنفوس شيء، بعد السكر يمكن أن يمتلكوه" [ص ٣٢١]. وهناك تجارة أخرى اشتهر بها أهل دنقلة في شندي وغيرها. "فالرقيق من النساء اللاتي خدمن في المنازل بدنقلة في أعمال معينة عليهن إقبال شديد من جانب تجار الرقيق للاستعانة بهن في الطبخ أو في الخدمة في البيوت" [ص ٣٢١]. وربما كان لوجود المماليك في دنقلة أثره في زيادة حركة التجارة بين دنقلة وشندي، إذ يذكر "بوركهارد" أنه منذ أن استقر المماليك في دنقلة أصبحوا في حاجة إلى الحصول على السلع المصرية عن طريق شندي. وأقصر طريق هو الطريق الذي يسير عبر المرتفعات من كورتني في الأطراف الجنوبية لدنقلة، علي مسيرة خمسة أيام، لكن يبدو أنه طريق لا يسوده الأمن" [ص ٣٢١].

وأخيراً يصف لنا "بوركهارد" هذا التجمع الهائل للتجار من مصر وسنار وكردفان وسواكن ودنقلة في شندي وصفاً دقيقاً ومعبراً، إذ يقول "لقد ترتب علي التقاء جميع هؤلاء التجار في شندي أن أصبحت شندي المدينة التجارية الأولى في الأقطار السوداء لتجارة المصريين والعرب في الرقيق، وصارت فيها التجارة المصرية والعربية والسودانية متحالفة تحالفاً متيناً. كما أن تجار هذه الأقطار الثلاثة يقابلون بعضهم بعضاً من حين لآخر من على مسافات كبيرة نتيجة لظروفهم التجارية" [ص ٣٢٢]. ويضيف قائلاً: "إن سكان بربر وسكان شندي كما يتضح أمة من التجار بما في تلك الكلمة من معنى. ولدى بعض الملاحظات أضيفها على أهم فرع في تجارتهم وهي تجارة الرقيق" [ص ٣٢٤].

تجارة الرقيق:

لقد كانت شندي بحكم موقعها الجغرافي كملتقى لقوافل التجارة من مصر وأقاليم السودان المختلفة. من سنار وكردفان وسواكن ودنقلة مركزاً رئيسياً لتجارة الرقيق، باعتباره سلعة تجارية هامة في ذلك الوقت. وهو ما سبق أن عبر عنه بقوله "لقد ترتب علي

التقاء جميع هؤلاء التجار في شندى أن أصبحت شندى المدينة التجارية الأولى في الأقطار
السوداء لتجارة المصريين والعرب في الرقيق" [ص ٣٢٤]. "يقدر "بوركهارد" عدد الرقيق
الذين كانوا يباعون في سوق شندى سنوياً بحوالى خمسة آلاف عبد، منهم ما يقرب من
٢٥٠٠ عبد ينقلهم تجار سواكن و ١٥٠٠ عبد ينقلهم تجار مصر. والباقي يجد طريقه إلى
دنقلة وإلى البدو الذين يعيشون شرق شندى وتجاه عطبرة والبحر الأحمر" [ص ٣٢٤].
أما الجهات التي كان يأتي منها الرقيق فيحدثنا عنها "بوركهارد" بقوله: "إن أولئك
الرقيق الذين يؤتى بهم من دارفور إلى كردفان، الجزء الأكبر منهم من البلاد الوثنية مثل
بندا Bende، وفيتجو Fctigo، إلى الجنوب والجنوب الغربي من دارفور، على مسيرة
عشرين إلى خمسة وعشرين يوماً من كوبة. وكل بلد من هذه البلاد يتكلم لغة خاصة به.
ويتاجر تجار دارفور مع فريتيت التي تقع على مسيرة عشرين يوماً تقريباً من كوبة في
الاتجاه الجنوبي. والبلاد جبلية، وسكانها كلهم يجهلون الزراعة، ولكنهم ذاقوا وفرة الذرة
والدخن. ويقال إنهم في حالات المجاعة يبيعون كل شيء حتى أطفالهم للحصول على هذه
الغلات" [ص ٣٢٤].

ويصف "بوركهارد" أنواع الرقيق وأسعارها بقوله "إن الجزء الأكبر من هؤلاء الرقيق
الذين يوردون إلى شندى عمرهم دون الخامسة عشرة والتجار يقسمون الذكور والإناث
منهم إلى ثلاثة أقسام حسب أعمارهم: خماسى ويشمل أولئك الذين تبلغ أعمارهم أقل
من عشرة أو إحدى عشرة سنة، سداسى ويشمل أولئك الذين تبلغ أعمارهم فوق إحدى
عشرة سنة وأقل من أربع عشرة أو خمس عشرة سنة، والبالغ ويشمل أولئك الذين تبلغ
أعمارهم خمس عشرة سنة وما فوق ذلك السن. والسداسى هو المطلوب بكثرة. ويبلغ
سعر العبد الذكر من هذه المجموعة خمسة عشر أو ستة عشر دولاراً، والأنثى تساوى
من عشرين إلى خمس وعشرين دولاراً أسبانياً. وسعر الذكر من الخماسى إثنا عشر،
والأنثى خمسة عشر دولاراً. والذكر من البالغين قلما يباع بسعر يزيد على ثمانى أو
عشرة دولارات. ولا توجد إلا نسبة ضئيلة من هذه الطبقة، لأن الرأى السائد في مصر
وببلاد العرب أنه لا يمكن الاعتماد كثيراً على عبد يؤتى به إلى الأسرة وهو في سن
متقدمة. ومن هنا كان إحجام كبير عن شراء العبيد البالغين للخدمة في المنازل أو حتى
لاستخدامهم كعمال. والبالغون بصفة خاصة يقوم بشراؤهم البدو والذين يستخدمونهم
كرعاة. والبشارية لديهم عدد كبير منهم في جميع معسكراتهم. والنساء من الرقيق رغم
أنهن تجاوزن سن الجمال، إلا انهن يبعن أحياناً بسعر مرتفع يبلغ ثلاثين دولاراً، إذا كن
معروفات بمهارتهن في العمل مثل الحياكة والطبخ وغير ذلك. ويوجد في سوريا قليل من
الرقيق. والجزء الأكبر منهم تحمله القوافل من بغداد، ويؤتى به من سواحل Souahel على
شاطئ موزمبيق" [ص ٣٢٤، ٣٢٥].

ويصف ظاهرة تنقل الرقيق بين أيدي التجار وصفاً دقيقاً يقول "إن القليل من العبيد

الذين يجلبون إلى مصر ينتهى به المطاف إليها دون أن يكون قد تغير أسياده لعدة مرات قبل أن يستقر نهائياً مع الأسرة (التي يعيش وسطها). فعلى سبيل المثال العبيد من فرتيت Fertit يجمعون أولاً على أطراف هذه البلاد بواسطة تجار حقراء يتاجرون في الذرة. وهؤلاء يبيعونهم بدورهم لتجار كوبة (من دارفور) الذين يفدون إلى فرتيت من أجل هذا الغرض. وفي كوبة يقوم بشرائهم تجار دارفور أو كردفان الذين ينقلونهم إلى الأبيض في كردفان. وهنا يتقلبون بين أيادي تجار آخرين من كردفان يحملونهم إلى شندي. لأن تجار السودان عموماً يحصرون مضارباتهم التجارية في سوق واحدة. وهكذا يختلف سكان كردفان الذين يفدون إلى دارفور من أجل التجارة عن أولئك الذين يزورون شندي. بينما من ناحية أخرى يختلف المصريون الذين يفدون إلى شندي فقط بقصد التجارة عن أولئك الذين يتقدمون جنوباً إلى سنار. كذلك الحال بالنسبة لتجار سواكن، فهم ينقسمون إلى تجار يذهبون إلى شندي وآخرين يتقدمون إلى سنار" [ص ٢٢٥، ٢٢٦].

ويستطرد "بوركهارد" قائلاً "وفي شندي يقوم بعض التجار المصريين أو العبايدة بشراء الرقيق. وعند وصولهم إلى مصر العليا يباعون إما في إسنا أو أسيوط أو في القاهرة. وفي المكانين الأولين عدد كبير من الرقيق يشتريه التجار ويبيعونه بالقطاعي في القاهرة، أو المدن الصغيرة في مصر العليا، حيث يمضون أياماً قليلة في كل منها أثناء سيرهم شمالاً. وحتى في القاهرة لا يباعون بصفة نهائية من أول لحظة. فالخان الخاص بتجار الرقيق الذي يسمى وكالة الجلابية والقريب من الجامع الأزهر يزدهم بالتجار الصغار والبائعين المتجولين الذين كثيراً ما يساومون تجار مصر العليا في الرقيق عقب وصولهم مباشرة، ويقتنون بربح بسيط من أجل بيعهم مرة أخرى. ويوجد أيضاً تجار من سمرنة Smyrna والقسطنطينية يقيمون على الدوام في القاهرة ولا يتاجرون في شيء سوى الرقيق. وهؤلاء التجار يصدرون الرقيق من الإسكندرية. وغالباً ما يمر الرقيق بين ثلاثة أو أربعة أياد بين الاسكندرية والمقر النهائي الذي سيستقرون فيه بالمقاطعات الشمالية من تركيا" [ص ٢٢٦]. ولقد شاهد بنفسه أمثلة عديدة على سرعة تغير أسياد الرقيق. ويذكر أنه "شاهد في شندي وإسنا عبيداً اشتروا وبيعوا مرتين أو ثلاث مرات قبل أن يغادروا نهائياً السوق. بل ربما بعد تجربة السيد لعبيده خلال أيام قليلة إذا لم يجد فيهم ما كان يتوقعه منهم، فإنه يعرضهم مرة أخرى للبيع أو يستبدلهم بأخرين" [ص ٢٢٦]. ويحدثنا "بوركهارد" أيضاً عن ظاهرة بيع الأطفال الصغار ضمن الرقيق فيذكر "أنه بين المعروضين للبيع في شندي شاهد كثيراً من الأطفال أعمارهم أربعة أو خمسة أعوام بدون آبائهم، والبعض الآخر من نفس هذا العمر مع آبائهم. وإنسانية التجار فإنه من النادر أن يبيعونهم منفردين. وإذا حدث قبل ذلك فإن البائع يؤنب على اعتبار أنه مجرم ارتكب هذا النوع من القسوة" [ص ٢٢٧].

ويشير "بوركهارد" إلى ظاهرة اختلاف الرقيق فيما بينهم من حيث الأخلاق ودرجة

الالتصاق بسيدهم، وقد كان تجار الرقيق على دراية بها، إذ يقول "إن التجار عند شراء الرقيق ينتبهون جداً لأصلهم، لأن الخبرة الطويلة برهنت لهم أنه يوجد اختلاف بسيط في الأخلاق بين أفراد الشعب الواحد. فالنوباويون الذين يأتون من سنار يقال إنهم يتمتعون بأحسن الأمزجة والطباع بعد الأحباش والجاله Gallas، وإنهم أكثر التصاقاً بأسيادهم. ومن الأحباش أولئك الذين يعيشون في الأقاليم الشمالية ويعرفون باسم كوستاني، يقال إنهم غادرون ومؤذون، بينما الأمرأ Amaaras معروفون بلطف طبائعهم. ومن الزوج الغربيين أولئك الذين من بندا Benda فهم أكثر اعتباراً وتقديراً، ويليههم أولئك الذين يجلبون إلى دارفور من برقو وهي بلاد إسلامية سكانها يحملون جيرانهم الوثنيين. والرقيق من فريت يقال إنهم مفترسون انتقاميون ويوجدون في آخر القائمة [ص ٢٣٧].

وقد كان خصي الرقيق هذا العمل الشائن من الأعمال اللاإنسانية التي ارتبطت بتجارة الرقيق. وقد قام الرحالة "بوركهارد" بدراسة دقيقة وصريحة له تناول فيها الأماكن التي كانت تجرى فيها عملية الخصي والقائمين بها، وأعمار الأولاد من الرقيق الذين كانت تجرى لهم، والأسعار التي كانوا يباعون بها بعد أن تتم فيهم العملية، ومدى الإقبال على شرائهم، وقد جاء فيها "لا يجلب عبيد مخصيون إلى شندی. وبرقو إلى الغرب من دارفور هي البلد الوحيد في غرب السودان الذي يخصي فيه الرقيق وعدد هؤلاء المخصيين قليل. والقليل منهم يرسل إلى مصر عن طريق دارفور. والباقي يرسل كهدايا يقدمها ملوك السود (الزوج) للمساجد الكبيرة في مكة والمدينة عن طريق سواكن. والمصنع الكبير الذي يمد جميع بلاد تركيا وأوربا وجزء كبير من تركيا آسيا بهؤلاء الحراس لأخلاق المرأة يقع في قرية زاوية الدير، وهي قرية تقع بالقرب من أسيوط في مصر العليا يسكنها بصفة خاصة المسيحيون. والقائمون بعملية الخصي في هذه البلدة إثنان من الرهبان القبط تحميهم الحكومة التي يؤديان لها ضريبة سنوية (عن هذا العمل) وهما بدورهما يتقاضيان أجراً على هذه العملية من أصحاب الرقيق. والجزء الأكبر يخصون حال وصول قوافل دارفور وسنار إلى أسيوط. والأولاد الذين يختارون لعملية الخصي تتراوح أعمارهم بين ثمانية وأثنتا عشرة سنة، لأنهم إذا تقدموا في السن تكون العملية مخاطرة كبيرة. والشباب الذي تتم فيه العملية بنجاح يبلغ ثمنه ألف قرش في أسيوط، ويكلف صاحبه حوالي ثلاثمائة قرش لأسابيع قليلة. كما يدفع للقبطي الذي قام بالعملية من خمسة وأربعين إلى ستين قرشاً. وحوالي مائة وخمسين عبداً يخصون كل عام ومنذ عامين أمر محمد علي بخصي مائتين من شبان دارفور الذين أرسلهم كهدية" [ص ٣٢٩، ٣٣٠].

ويضيف "بوركهارد" "أن عادة الاحتفاظ بالمخصيين قد نقصت في مصر كما هو الحال في سوريا بشكل كبير. وفي مصر إذا استثنينا حرم الباشا وأبناءه، فإنه لا يوجد أكثر من ثلاثمائة مخصي. وأما في سوريا فهم لا زالوا أقل انتشاراً. ففي تلك الأقطار يوجد خطر على التظاهر بالغبني. فالشخص الذي يحتفظ بعدد من الرقيق النسوة وما يقتضيه من إجراء

لحراستهن يغرى رجال الحكومة بأعمال النهب والخطف والمخصيين البيض يندر جداً وجودهم في المقاطعات التركية. وفي بلاد العرب يوجد عدد كبير من المخصيين الهنود. وكثير من العبيد يخصون في الهند. وجميع المخصيين تقريباً في أسيوط يرسلون إلى القسطنطينية وآسيا الصغرى" [ص ٣٣٠، ٣٣١]. ويصف "بوركهارد" كيفية نقل الرقيق من شندى إلى مصر أو سواكن، وكذلك بين أقاليم السودان في الداخل بقوله "في أثناء الطريق يسمح للرقيق الصغار في السن وكذا الإماء بركوب الإبل، بينما الآخرون يقومون بالرحلة على الأقدام. وإذا حدث أن جملاً تعطل في الطريق، فإن صاحبه يحمل العبيد بما كان يحمله الجمل من أثقال" [ص ٢٣٣]. ويصور المشاعر التي كانت تجيش في نفوس الرقيق الذاهبين إلى مصر تصويراً مشيراً يقول فيه "ويسود الرقيق الذاهبين إلى مصر الذعر من تلك البلاد والسكان البيض. فالرأى السائد في بلاد الرقيق الأسود أن ولد الريف كما يُسمى المصريون هناك يلتهمون العبيد الذين ينقلون إلى هذه الجهات من أجل هذا الغرض. وطبعاً يعمل التجار كل ما في وسعهم للقضاء على هذا الاعتقاد. ولكن على الرغم من محاولاتهم، فإنه لن يزول من عقول الرقيق. وهناك شيء آخر مرعب يسيطر على عقولهم، وهو أنهم يعتقدون أن هناك حيواناً صغيراً يقفز سيعيش على أجسامهم ويمتص دماءهم، ولا يتركهم لحظة في راحة. ويقصدون بهذا الحيوان الصغير البرغوث غير المعروف تماماً في الأجزاء الداخلية من السودان. وأكثر القصص غرابة تقال عنه ويرويها سكان تلك الجهات للتدليل على أفضلية بلادهم عن البلاد المصرية. ومهما يكن فهناك ما هو أكثر رعباً وخوفاً عند وصولهم إلى مصر. وإن هذا الشعور له تأثير قوى بصفة خاصة على عقول الرقيق الصغار" [ص ٢٣٤].

وضعية الرقيق:

وهناك إلى جانب عملية خصي الرقيق الشائنة وجدت مأس-أخرى أخلاقية في تجارة الرقيق حدثنا عنها الرحالة "بوركهارد" بقوله: "إن الفتيات من الرقيق يزيد سعرهن في كل مكان بمقدار ٣٠٪ عن الذكور من نفس السن. والقليل من الفتيات من هؤلاء الرقيق ممن لم يتجاوز سن العاشرة من يصلن إلى مصر أو بلاد العرب محتفظات ببيكرتهن. والشخصيات الكبيرة وكذا الأغنياء من هذه الأقطار يحرصون على عدم شراء البنات البالغات من التجار، إلا إذا أرادوا استخدامهن كخادمات، ولكن غالباً يشترون البنات الصغيرات السن، حيث يقمن بتربيتهن وسط نسائهم" [ص ٢٣٥]. ويضيف: "أن العبيد الصغار يجرى شراؤهم تحت التجربة التي تكون مدتها يوماً واحداً في شندى، وفي مصر تمنح ثلاثة أيام. والبنات كثيراً ما يسلمن بهذه الطريقة للتجربة لمدة ليلة واحدة. والمشتري له حق إرجاع الفتاة بعد تلك المدة دون أن يدعى أى سبب أكثر من قوله أنه لا يحبها. وهكذا تتضاءل عناية المتوحشين وحرصهم على

المحافظة على شرف النساء . وبطبيعة الحال كلما مكثت هؤلاء النسوة بين يدي التاجر حصلن علي عادات أكثر فساداً . وفي بعض الأحيان يباع الشبان والشابات من الرقيق تحت شرط عدم إرجاعهم" [ص ٣٣٦] . ويشير إلى شروط إرجاع العبد بعد شرائه قائلاً " وهناك عيوب خاصة إذا وجدت في العبد الذكر ، فإن المشتري له حق إرجاعه ، حتى بعد مضي مدة علي شرائه . من هذه العيوب : التشخير في الليل الذي يعتبر عيباً رئيسياً ، صك الأسنان بعضها فوق بعض في أثناء النوم ، وإذا كان يعاني أى مرض لم يشف منه تماماً أو لن يشفى منه في أثناء وجوده تحت يد المشتري مثل الحمى المتقطعة والجرب وغير ذلك . وعند شراء العبد يلاحظ جيداً ويفحص إذا كان قد أصابه الجدري من قبل أم لا ، فأولئك الذين لم يصابوا بالجدري بعد يباعون بسعر أقل من الآخرين" [ص ٣٣٦ ، ٣٣٧] .

وهناك مسألة أخلاقية أخرى تناولها "بوركهارد" وهي موقف تجار الرقيق من اختلاط الذكور مع الإناث ، وموقف بعضهم من نساء الرقيق بصفة خاصة . ويقول في هذا الصدد "إن التجار يحرصون حرصاً شديداً على منع أى اتصال غير لائق بين الرقيق أنفسهم ، فهم دائماً يفضلون الأولاد عن البنات ليلاً . وهذا الأمر لاتدفعهم إليه الغيرة بقدر ما يدفعهم إليه الحرص على مصلحتهم الخاصة ، إذ أن الحامل من النساء تنقص قيمتها . وعلى الرغم من هذا الحرص ، فإنه كثيراً ما يحدث هذا الأمر المحظور إذ لا بد من وجود علاقات ود ومحبة وغرام بين الفتى والفتاة . كما أن هناك رأياً واضحاً في البلاد التي تعم فيها تجارة الرقيق وهي أن الأنثى السوداء أكثر استعداداً للاختلاط مع ذكر أسود أكثر من شخص غريب . وإذا ثبت تحت هذه الظروف أن أنثى حملت ، فإن صاحبها لا يدخر وسعاً في إسقاطها (إجهاضها) فيجبرها على أن تتناول شرباً يساعد على عملية الإسقاط أو يقوم صاحبها بضربها بطريقة يقصد منها إجهاضها" [ص ٣٣٧] . ويضيف "بوركهارد" "أن كثيراً من التجار يشغلون الإماء في الدعارة ويقتسمون معهم ما يحصلن عليه من فائدة" [ص ٣٣٧] .

ويعدد "بوركهارد" الأمراض التي تصيب الرقيق عادة بقوله "والمرض الأكثر انتشاراً بينهم هي الحمى الملتهبة inflammatory fever التي يتعرض لها أيضا سكان شندي . والأدوية التي يستخدمونها هي حبس الدم علي الأرجل بالكئوس ومشروب مصنوع من نقيع التمر هندي . كما أن كثيرين منهم يشكون من مرض الصفراء الذي ربما راجع إلى إفراطهم في استخدام شراب البوظة غير المختمرة تخميراً حسناً . وتعم البواسير ولكنها أقل انتشاراً بين الرقيق من سكان الريف . والعلاج الوحيد الذي يعرفونه هو كيها بقطع من الحديد الساخن لدرجة الاحمرار . كذلك دودة الفرتيت أو دودة غينيا Guinea Worm المعروفة بين الرقيق والتجار السودانيين الذين يأتون إلى مصر العليا . ويبدو أنها تعم بكثرة في السودان . وتوجد كذلك في بلاد العرب ، وهي تُرى خارجة من الذراع والصدر والركب ، رغم أن المكان المفضل لها كما يبدو بطن الساق . والأشخاص الذين يصابون بها في شندي أكثر ندرة من كردفان ودارفور . وأعداد ضخمة من الرقيق والتجار القادمين من كردفان ودارفور مصابة بها . وعلى

الرغم من أنها تحدث آلامها كثيرة، فإنها لا تمنع الذى يقاسى من الأمها من المشى حتى اللحظة الأخيرة من حياته. وبعض الناس يسعفهم حظهم السعيد فيكتشفون الدودة وهي تخترق الجلد. وحينذاك يصبحون قادرين بالصبر على جذبها خارجاً. وتكون قاتلة فقط عندما تدخل الدودة خلال الجلد، وحتى في مثل هذه الحالة كثير من الناس يشفون. وفي كردفان ودارفور، يعزى هجوم دودة الفرتيت بوجه عام إلى طعام الحيوان المشتمل على الماء الذى يُشرب عقب سقوط الأمطار المبكر" [ص ٣٣٩، ٣٤٠].

ويصف لنا "بوركهارد" معاملة أهل الشرق للرقيق بما يمكن أن يوصف بأنه إنصاف لهم مما يلصق بهم من هذه التجارة الشائنة، إذ يقول "والرق في الشرق يوحى بالخوف والرعب الناتج عن مجرد الإسم أكثر من المعاملة الحقيقية التى يلاقها الرقيق. فالذكور منهم يعاملون في كل مكان معاملة تشبه إلى حد كبير معاملة أطفال العائلة. وهم أحسن حالاً من الخدم الأحرار. ويعتبر أمراً حقيراً أن يباع عبد بعد أن أقام طويلاً مع الأسرة وفي حالة عدم سلوك العبد سلوكاً حسناً، فإنه يرسل عادة إلى الريف ليعمل كعامل في حقول سيده. أما النساء منهم فلا يواجهن الحياة بمثل ما يواجهها الذكور. إذ أنهن عموماً يقاسين من غيرة سيداتهن. والرقيق لا يعاملون معاملة سيئة إلا على يد الجنود الأتراك فقط" [ص ٣٤١].

ويحدثنا "بوركهارد" عن ظاهرة تجنيد الرقيق في الجيش التركى في مصر بقوله "إنهم (الضباط الأتراك) يشترون من مصر العليا الأولاد الرقيق الذين يدخلوهم في خدمتهم. وعندما يصل هؤلاء الأولاد إلى سن معينة ويتعلمون اللغة التركية تعطى لهم الملابس والأسلحة مثل الجنود. ثم يدرجون في قائمة الفرقة التى يرأسها سيدهم. وعندئذ يصرف الراتب الشهري لعبيده من الحكومة، كما يفعل بالنسبة لكل واحد من الجنود الآخرين، لأنه طبقاً لأنظمة الجيش التركى يتسلم الضابط أو الأمباشى أجر العدد من رجاله الذين تحت إمرته، ثم يقوم بتوزيع هذا الأجر فيما بينهم. وهكذا يصبح نظام تسجيل العبيد في خدماته الذى لا تعارض فيه الحكومة أبداً، مصدر ربح له. والأجر الذى يأخذه من الحكومة نظير خدمات هؤلاء العبيد تذهب إلى جيبه الخاص في مقابل إرغامه على أن يقدم لهم المأكل والملبس. وبهذه الطريقة فإن أعداداً ضخمة من الجنود السود أدخلوا في الجيش التركى في مصر. وحتى محمد على باشا أخذ يفكر في تنظيم جيش أفراده من العناصر السوداء وتدريبهم على النظام الأوروبى، ولكن عدم الرغبة في هذا النظام الجديد من جانب ضباطه جعله، فيما يبدو، يترك مثل هذا الأمر. وفي الوقت الحاضر يشتري الضباط الأتراك في مصر من ستمائة إلى ثمانمائة عبد سنوياً" [ص ٣٤١].

ويمدنا الرحالة "بوركهارد" بإحصاء عن توزيع الرقيق في مصر والسودان بقول فيه "يقدر في المتوسط عدد الرقيق الموجود في مصر بأربعين ألفاً، ثلثا هذا العدد ذكور والباقي إناث، وبالكاد تخلو قرية منهم. وكل شخص موسر يحتفظ بواحدة من الرقيق على الأقل. أثناء انتشار الطاعون (في مصر) من ربيع عام ١٨١٥ توفر ما يزيد على ثمانية آلاف عبد في القاهرة

وحدها . وفي اعتقادى أن الرقيق المصدر من السودان إلى مصر وبلاد العرب يقل عن عدد الرقيق الذى يحتفظ به مسلمو الأقاليم الجنوبية نفسها أو بمعنى آخر إذا قورن بالمجموع الكلى للرقيق الذين يجلبون سواء عن طريق الشراء أو عن طريق القوة من الشعوب الداخلية فى أفريقية . ففى بربر وشندى قلما يوجد منزل لا يملك واحداً أو اثنين من الرقيق ، وداثما خمسة أو ستة منهم يتبعون نفس العائلة يشتغلون فى أعمال الحقل أو رعى القطيع .. الخ . والشخصيات الكبيرة والزعماء يحتفظون بعدد كبير منهم . وكلما اتجهنا جنوباً حتى سنار نجد أن هذا النظام ينتشر كما هو الحال غربا حتى كردفان ودارفور ، وإلى الغرب حتى بورنو Bournou وجميع القبائل البدوية التى تعيش حول هذه الأقطار تحتفظ أيضا بعدد كبير من الرقيق وقد أكد لى التجار أن الرقيق فى هذه البلاد البعيدة أكثر وأوفر عدداً من شندى ذاتها" [ص ٣٤٢ ، ٢٤٢] . ويستطرد "بوركهارد" قائلاً "وهكذا فمن الثابت أن عدد الرقيق المجلوب نحو مصر وبلاد العرب وبربر يقل كثيراً عما يتبقى داخل حدود السودان وحسب مشاهداتى فى بربر وشندى فإن الرقيق من كلا الجنسين على ضفاف النيل من بربر إلى سنار لا يزيد على اثنى عشر ألفا ، بينما عدد سكان دارفور الذى يبلغ مائتا ألف نسمة ، حسب تقدير مستر برون Broune ، من المحتمل أن يكون بينهم عشرون ألفاً من الرقيق . وجميع الروايات تؤكد أنه كلما تقدمنا بعيداً جهة الغرب فى البلاد الأهلة بالسكان من دار صليح Dar Saley ، وبورنو Bournou ، وياقرمة Bagerme ، وممالك أفنو Afnou ، الهوسة Haoussa ، نجد أن نسبة السكان من الرقيق لا تنقص" [ص ٣٤٢] .

وأخيراً يحدثنا "بوركهارد" عن مجهودات أوروبا وبخاصة إنجلترا لإلغاء تجارة الرقيق حديثاً صريحاً يقول فيه "إن المجهودات المشكورة التى قامت بها أوروبا ، وبخاصة إنجلترا لإلغاء تجارة الرقيق سيمتد تأثيرها المفيد بدون شك على بلاد الزنوج من إفريقية الغربية والجنوبية الغربية التى منها وحتى الآن يجلب الرقيق لإمداد تجار أوروبا ، ولكن هذه المجهودات لا يبدو لها أقل أمل فى إلغاء تجارة الرقيق من إفريقيا نفسها . فإذا ما أقفلت جميع منافذ السودان أمام تجارة الرقيق ومنعت القوافل التى تستمر الآن فى الحركة التجارية مع بربرة Barbary ومصر وبلاد العرب من الحصول على الموارد البعيدة ، فإن الرقيق سينتشر بوجه عام فى السودان نفسه . لأن هذه البلاد طالما يمتلكها المسلمون الذين ترغبهم عقيدتهم فى شن الحرب على الزنوج الوثنيين وتتطلب منهم حاجاتهم العائلية مورداً دائماً من الخدم والرعاة ، ويعتبرون الرقيق كوسيلة للتبادل (للتعامل) مكان المال ، وشغوفون بالحصول على هؤلاء الرقيق شغف الشعوب الأخرى فى اكتشاف المناجم الأفريقية ، فإن الرقيق سيظل حتماً قائماً فى قلب إفريقية ، بل ولا ينقطع إلا إذا امتلك الرقيق الوسائل التى تمكنهم من صد الهجمات ومقاومة جيرانهم المسلمين [ص ٣٤٤] .

مشاهدات "بوركهارد" فى إقليم عطبرة

بعد أن أنهى الرحالة "بوركهارد" زيارته لشندى غادرها إلى التاكا فى طريقه إلى سواكن. وفى طريقه من شندى إلى التاكا مر بوادى نهر عطبرة، حيث تعيش قبائل من البشارية من أشهرها قبيلة حمداب Hammadab. ومن ثم فقد أتيح له فرصة الوقوف على أحوال هؤلاء البدو على الطبيعة. وكذا أمكن للرحالة "بوركهارد" أن يمدنا بمعلومات هامة عن قبيلة أخرى من أشهر القبائل الرعوية فى السودان الشرقى ومن قبل أمدا كما قدمنا بدراسة مستفيضة ودقيقة عن العابدة.

وصف الرحالة "بوركهارد" الطريق الذى اعتادت أن تسلكه قوافل التجارة من شندى إلى التاكا، وهو الطريق الذى سلكه هو نفسه مع قافلة عائدة إلى سواكن من شندى [ص ٢٦٢]. وقد قدم لنا صورة حية عما شاهده على طول الطريق من مناظر طبيعية خلابة، إذ يقول "الطريق بين شندى والتاكا طريق كله تقريباً مطروق يمر فيه سكان عطبرة باستمرار يحملون قطيعهم إلى سوق شندى، كما يحضرون معهم إلى هذه السوق الحصر المصنوعة فى عطبرة من سعف الدوم. وعند نهر عطبرة توجد الأشجار على الجانبين. كذلك توجد النباتات اليبانة التى تدخل السرور على القلوب حتى قلوب تجار الرقيق المتحجرة. كما توجد أيضاً أنواع مختلفة من أشجار السنط وأشجار الدوم من أكبر الأحجام. ويوجد الرقيق فى ثمار الدوم فاكهة يقبلون عليها إقبالاً شديداً. وتوجد أيضاً أشجار النبق وأشجار النخيل التى تمتاز بارتفاعها وهى أكثر ارتفاعاً من النخيل المصرى. يضاف إلى ذلك مرعى طبيعى ينمو على تربة خصبة غنية تشبه التربة التى فى مصر. ويستطرد "بوركهارد" قائلاً "كل ذلك يشاهده المسافر من شندى فى طريقه إلى «سواكن قبل أن يخوض نهر عطبرة. إذ على القافلة أن تخوض هذا النهر حتى تصل إلى البر المقابل لتستمر فى رحلتها. والخوض فى نهر عطبرة يستغرق مدة تقل عن نصف ساعة بدون صعوبة، فالمياه فيه تكاد تصل إلى فوق ركب الإبل. وتوجد على هذا الشاطئ المقابل قرية عطبرة وسميت بهذا الاسم لقربها من هذا النهر. وتظل فيها قوافل سواكن عادة بعض الأيام للراحة" [ص ٢٦٨].

ويصف "بوركهارد" قرية عطبرة "بأنها تتكون من عدة صفوف غير منتظمة من الخيام المصنوعة من الحصر التى تعمل من سعف الدوم. وتضم حوالى مائتى أسرة من البشارية. وهذا هو نظام السكن فى المناطق الصحراوية المطروقة بين مصر والسودان. والضأن والمعز النوبية تتميز بجلودها العادية. ولذلك فهى لا تمد السكان بالمواد الضرورية لصناعة أغطية الخيام من الصوف أو شعر المعز، كما هو الحال عند البدو الشرقيين الذين

تورد لهم الحصر. وهذه الخيام المصنوعة من الحصر، تقام بحيث يكون السطح مائلاً ليساعد على جريان مياه الأمطار عليها" [ص ٣٦٨]. ويضيف: "أن عطبرة مقر زعيم قبيلة الحمداب Hammadab وهي غير حميداب Hameydab التي هي قبيلة من العبادة. والحمداب إحدى القبائل القوية من الشعب البشاري" [ص ٣٦٨].

وعن النشاط التجاري في عطبرة يقول "بوركهارد" "إن من الملاحظ دائماً أن عدداً قليلاً من أهالي هذا المكان من يتاجرون مع شندی، فهم يظلون هنا في انتظار وصول قوافل سواكن. وحال وصول خبر من الجهات المجاورة بوصول قافلة، فإن عدداً كبيراً من البشارية بأتون بالذرة والضأن والزبد واللبن ليستبدلوا بهذه السلع الدمور وأنواع العطارة، وبخاصة المحلب والقرنفل والبخور واللبان من العرب. ويندر أن تجد واحداً من هؤلاء السكان يفهم اللغة العربية ماعدا أولئك الذين يتاجرون مع بربر وشندی. بيد أنها مفهومة لدى جميع عبيدهم تقريباً، حيث يتعلمها الجزء الأكبر من هؤلاء العبيد وسط السكان الذين يقطنون على ضفاف النيل" [ص ٣٧٠].

ويحدثنا "بوركهارد" عن الضريبة التي كان زعيم البشارية في عطبرة يفرضها على قافلة سواكن عند وقوفها بعطبرة بقوله "وبعد أن تظل قافلة سواكن بضعة أيام في عطبرة يقوم رئيس تلك القرية بجمع ضريبة المرور من كل شخص طبقاً لعدد عبيده.

إلى جانب اشتغال بدو البشارية في إقليم عطبرة بالتجارة، حيث استغلوا مرور قوافل سواكن القادمة من شندی ببلادهم في طريق عودتها إلى سواكن، وتبادلوا معها السلع والبضائع كما مر بنا، فإنهم اشتغلوا أيضاً بالزراعة على ضفاف نهر عطبرة، وهو أمر غير مألوف، إذ من المعروف أن البشارية من القبائل البدوية المتأصلة في البداوة. وقد وصف "بوركهارد" ظاهرة اشتغال البشارية بالزراعة بقوله: "إن كثيراً من قبائل البشارية رغم أنهم بدو لا يحتقرون الزراعة، فهم يترددون على ضفاف نهر عطبرة عقب الفيضان مباشرة ليزرعوا الذرة، ويظلون هناك حتى جمع المحصول [ص ٣٧٤]. وعندئذ يرجعون إلى جبالهم. وفي أثناء الفترة التي تشتد فيها حرارة الصيف عندما يجف المرعى في الصحراء ينزلون مرة ثانية، ليطعموا القطعان على جانبي مجرى النهر. وحالهم في ذلك يشبه حال التركمان في المنطقة المجاورة لطرابلس، حيث هم بدو ومزارعون في الوقت نفسه" [ص ٣٧١]. ويضيف: "أن الذرة وكميات صغيره من اللوبيا وأنواع من الفول تزرع في الغابات المجاورة للنهر دون سابق إعداد للأرض. والسواقي غير معروفة، وامتداد الأراضي الخصبة على كلا الجانبين متساو، ولكن لا يزرع شيء على الضفة الشمالية، بالنظر إلى غارات الجعليين على هذا الجانب. وفي السنوات التي لا يفيض فيها النهر على الجانبين يحصلون على مؤنتهم من التاكا" [ص ٣٧٢].

ويصف الرحالة "بوركهارد" ثروة البشارية الحيوانية بقوله "إن قطع البشارية رائع جداً ووفير جداً. والإبل ترسل إلى الجبال القريبة، حيث تسقط الأمطار، لكي تتغذى على

العشب اليانح، كما أن بعض إبل القوافل تساق كل صباح إلى الغابات لتتغذى على أوراق أشجار السنط. وقطعان الضأن والماعز تتبع الإبل إلى الجبال. ويلاحظ أن كل خيمة تملك حمارين" [ص ٣٧٢].

ويصف عادات البشارية بقوله: "إن البشارية في عطبرة يشبهون جميع إخوتهم الآخرين من حيث أنهم عنصر رشيق يمتاز بالشجاعة، وهم دائما مسلحون، وقلما تخلو حياتهم من المنازعات، وتنتشر بينهم عادة السكر، كما هو الحال بين عرب شندى. يميلون إلى السلب والنهب. وهم قساة غدارون يميلون إلى الانتقام، لا يردعهم عن ذلك القوانين السماوية أو البشرية. وهم مسلمون، لكنهم لا يحافظون علي تقاليد وشرائع العقيدة الإسلامية. وإتصافهم بعدم الكرم دليل قوى على أنهم عنصر إفريقي، فضلا عن عدم معرفتهم باللغة العربية. والحجاج من الزنوج الفقراء الذين يمزون بهذه المنطقة في طريقهم إلى التاكا يشكون مر الشكوى من عدم شفقة سكان ضفاف نهر عطبرة" [ص ٣٧١، ٣٧٢]. وفي وصف "بوركهارد" لطريق القوافل بين شندى والتاكا ماراً بعطبرة الذي سلكه برفقة قافلة لسواكن يشير إلى خطورة البشارية على هذا الطريق بقوله "وعلى هذا الطريق توجد طلائع قبائل البشارية والهدندوة، وهناك خوف دائم يعتري رجال القافلة من البشارية، حتى لو كان رئيس القافلة تربطه بهؤلاء البشارية صلة نسب" [ص ٣٦٤]. ويحدثنا عن انتشار عادة الأخذ بالثأر بين البشارية التي وصفها بقوله: "إن عادة الأخذ بالثأر تبدو قوية وسط البشارية". كما وصف حالة العداء الدائم بينهم وبين جيرانهم "بأن قبائلهم في حالة حرب مستمرة، وأن أعداءهم القوميين هم الشكرية على جانب والهدندوة على جانب آخر" [ص ٣٧٤].

وقد كانوا مصدر قلق وإزعاج دائم لجيرانهم سواء من الشكرية أو الهدندوة بسبب حالة الحرب المستمرة معهم. وهو ما يفسر لنا براعتهم القتالية ووصف بوكهارد لهم "بأنهم دائما متسلحون" [ص ٣٧١].

وصف قوز رجب (عام ١٨١٣):

وهي من المراكز التجارية في إقليم عطبرة التي كانت تقف عندها قوافل التجارة القادمة من شندى وسنار في طريقها إلى التاكا، حيث كان يعقد فيها سوقاً تعرض فيه بعض تلك القوافل ما تحمله من السلع والبضائع، ويتردد عليه سكان الجهات المجاورة من الشكرية والهدندوة والبشارية ليبادلوا بما لديهم من السلع والمنتجات الزراعية والحيوانية. وقد أمدنا "بوركهارد" بمعلومات هامة عن قوز رجب [ص ٣٧٩، ٣٨٢]. يقول في وصف قوز رجب "إنها تقع على الطريق المقابل لطريق التاكا على الضفة الأخرى المقابلة لنهر عطبرة على سهل رملي على مسافة ربع ميل تقريبا من الضفة الشمالية للنهر. وسميت قوز

لموقعها وسط الرمال".

ويصف سكانها بقوله "إنه يقال أن سكانها خليط من العرب والبشارية والهندنوة والجعليين والشكرية الذين استقروا هنا بصفة خاصة من أجل الأغراض التجارية. ولا تحتل الزراعة جزءاً من أعمالهم، وإنما يجلبون الذرة من المركز المجاور لتاكا. ويملكون القطعان التي ترعى في الصيف على ضفاف النهر، وفي الشتاء داخل الصحراء" [ص ٣٨٢، ٣٨٣]. ويضيف "أن قوز رجب تخضع لسنار ورئيسها مثل رئيس شندی من عائلة ولد عجيب. والسكان مستمرون في نشاطهم التجاري مع سنار وشندی. وفي بعض الأوقات يزورون الدامر، حيث يبيعون قطعانهم كما هو الحال في شندی" [ص ٣٨٣]. ويصف "بوركهارد" النشاط التجاري في سوق قوز رجب بقوله "ويعقد في قوز رجب سوق تجد فيه القوافل التي تمر على هذا الطريق مكاناً مناسباً لعرض بضائعها. ومن ثم فهي تعبر النهر لأجل هذا الغرض... بل إن البشارية يعبرون النهر بمجرد أن يعلموا بقدوم قافلة على البر المقابل في الطريق إلى التاكا" [ص ٣٧٩، ٣٨١].

ويصف "بوركهارد" أهمية طريق قوز رجب التجاري بالنسبة لبعض قوافل سواكن التي تفضله عن الطرق الأخرى قائلاً "إن القوافل القادمة من سواكن إلى سنار التي لا ترغب في المرور بعطبرة أو شندی تأخذ طريق قوز رجب التي تتقدم منها رأساً إلى سنار عبر الصحراء. والطريق مرغوب فيه خلال فصل الصيف الحار، لأن بدو الشكرية يحلون فيه خلال الشتاء، ويجعلون السير فيه خطراً. وعلى الرغم من الجذب الذي ينتشر في هذا الطريق صيفاً، مما يجعل السفر فيه أمراً صعباً جداً على الرقيق، فإن التجار يفضلونه عن دفع النفقات التي تتطلبها الإقامة في شندی أو دفع ضرائب المرور في عطبره" [ص ٣٨٣].

مشاهدات "بوركهارد" فى إقليم التاكا

إقليم التاكا من أقاليم السودان الشرقى الواسعة التى نالت شهرة كبيرة فى البلاد السودانية وخارجها فى شبه الجزيرة العربية، بما كانت تمد به هذه البلاد من محصول الذرة الوفير التى اشتهرت بإنتاجها. كذلك شهرتها بثروتها الحيوانية الضخمة من الماشية والإبل والأغنام. فضلاً عن سكانها من الهدندوة الذين عرفوا بأنهم أكبر القبائل البدوية فى شرق السودان وأشدها بأساً.

ويصف "بوركهارد" إقليم التاكا بقوله: "إن بلاد التاكا أو كما يسميها سكانها بالقاش تمتاز على جميع المناطق بخصوصيتها الزائدة. وتمتد فى اتجاه الجنوب الشرقى بمسيرة ما يقرب من ثلاثة أيام طولاً ويوم واحد عرضاً. وجميعها تسكنها قبائل جزء منها مستقر، وجزء آخر من البدو الرحل، وعلى مسيرة يوم فى الاتجاه الجنوبى الشرقى، من فيليك وهى محلة للهدندوة، تبدأ محلات البدو الذين يعرفون باسم المبليكناب Melikinab. وعلى مسيرة يوم من المبليكناب تبدأ حدود قبيلة الحلنجا التى تنقسم إلى مجموعتين عليا وسفلى، الأولى تقطن على مسيرة يوم وراء الأخرى. والتاكا جزء من بلاد الحلنقة التى يعرف سكانها باسم البجاوية التى تشمل حوض نهر العظيرة من قوز رجب وتمتد إلى الجنوب حتى مرتفعات الحبشة، بينما تكون سلسلة المرتفعات التى تسمى لنجاي Langay حدود البجا شمالاً. وهذه الحدود يدخل فى نطاقها كثير من الصحارى والمناطق التى تتميز بكثرة تلالها" [ص ٢٨٧]. ويصف السطح ونظام الأمطار فى التاكا بقوله "التاكا ذاتها رغم كل ذلك بلاد كلها مسطحة أو منخفضة نوعاً ما تحدها شمالاً وجنوباً الصحارى. وفى الجنوب الشرقى تحدها سلسلة المرتفعات المعروفة باسم النقب Nageyb وهى موازية للبحر الأحمر. وترجع خصوبة التاكا وعمرانها بالسكان إلى فيضانها المنتظم فى أواخر شهر يونية، ولكن لا يتأخر إلى شهر يولية لأن ميعاده ثابت، كما هو الحال فى فيضان نهر النيل، وهو عبارة عن سيول ضخمة تغطى كل سطح الأرض بصفحة من الماء يختلف عمقه من اثنين إلى ثلاثة أقدام. وتلك السيول يقال إنها تتقدم فى السهل الشرقى عقب الفيضان على الإقليم، ولكن المياه تظل إلى ما يزيد على الشهر فى أرض التاكا. والمياه عند انسحابها تترك طبقة سميكة من الغرين على سطح الأرض يشبه الذى يتركه فيضان نهر النيل. ومن المؤكد أنه بعد أن تمتص الأرض مياه الفيضان يقوم البدو مباشرة ببذر الحب على الضفة الغربية دون سابق إعداد. ويصحب الفيضان دائماً أمطاراً غزيرة تستمر عدة أسابيع أكثر من مدة الفيضان ولكنها تسقط متقطعة على فترات قصيرة بغزارة" [ص ٢٨٧، ٢٨٨]. ويضيف "بوركهارد" أنه فى الشتاء والربيع يحصل سكان التاكا على حاجتهم من

الماء من الآبار العميقة، وهي وفيرة للغاية وتنتشر في جميع البلاد، ولكن البئر الواحدة تبعد عن الآخر مسافة كبيرة.

يقول "بوركهارد" في وصف الثروة الحيوانية في التاكا "إنه إلى جانب شهرة التاكا بالذرة، فإنها تشتهر أيضاً بقطعان الماشية العديدة. والأبقار بصفة خاصة من النوع الجيد. وتستعمل كوسيلة للمبادلة كما هو الحال في كردفان ودارفور. وسعر البقرة السمينية يبلغ ٤ قطع من الدمور أو ستة وتسعين مداً من الذرة التي تساوي حوالى أردبين أو ثلاثين بوشل. وسعر الجمل القوي يزيد بمقدار الربع. وكما جرت العادة السنوية ترسل القطعان، عندما تكون الأرض جافة تماماً، إلى الصحراء الشرقية حيث تتغذى في الجبال والوديان الخصبة، وحيث توجد ينابيع المياه. ولذلك لا تشاهد الماشية هنا خلال تلك الفترة إلا قليلاً. وعقب الفيضان تساق الماشية ثانية إلى السهل. وإبل التاكا تقدر تقديراً مرتفعاً، لأن هناك رأياً سائداً بأن الإبل التي تتغذى على الأغصان الصغيرة لأشجار السنط في الغابات أقوى من الإبل التي تتغذى على طعام آخر. ويستعمل الأهالي جلد رقبة الجمل، بعد أن يخاط أحد طرفيها ويترك الآخر مفتوحاً، كحقيبة لنقل الحبوب فيها. وعدد الماشية في الإمكان أن يكون أكثر مما هو عليه الآن لو لم تكن الحيوانات المفترسة التي تسكن الغابات تقضى على أعداد كبيرة من الماشية" [ص ٣٩٠].

ويصف "بوركهارد" الحيوانات المفترسة التي تعيش في غابات التاكا بقوله "وأكثر تلك الحيوانات المفترسة إنتشاراً في تلك الغابات الأسد والنمر الأرقط. ويعمد الأهالي إلى حفظ الماشية مع عدد قليل من الضأن ليلاً في حظائر تعترض مداخنها أكوام من الأشواك تكفي لأن تمنع الحيوانات المفترسة من الدخول إليها. ونادراً ما يقتل أسد أو نمر في تلك البلاد إلا في حالة الدفاع عن النفس، إذا أن الأهالي لا يملكون من الأسلحة أكثر من السيوف والحرايب التي لا تقوى على قهر ملك الغابة الذي يعتبر تلك المنطقة المأوى المحبب إليه. ودائماً يتعرض الأشخاص لفتك الأسود بهم. ويوجد في الغابة أيضاً الذئب والغزال والحيات والأفاعي" [ص ٣٩١]. ويستطرد قائلاً "بالرغم من كل ذلك فإن أشد الحيوانات اقتراساً هم سكان تلك الغابات من البجاوية وسكان البجا أنفسهم.

ويتحدث عن الصمغ العربي في غابات التاكا ومدى الانتفاع به كسلعة تجارية، ويقارنه بأنواع الصمغ العربي الأخرى بقوله "ومن أشجار السنط يجمع الصمغ العربي الذي يباع في سواكن لتجار جدة. ومن جدة يجد طريقه إلى مصر. ولكنه من النوع الذي لا يكثر به (أقل جودة). ومن المحتمل أن يكون ذلك راجعاً إلى رطوبة المنطقة لأن أجود أنواع الصمغ هي التي يحصل عليها في الصحارى الأكثر جفافاً" [ص ٣٩٢].

لعبت الذرة التي اشتهرت التاكا بإنتاجها دوراً كبيراً ورئيسياً في تجارتها مع سواكن وأقاليم السودان الداخلية مثل شندى وسنار، حتى إنها كانت تمد عند حدوث المجاعة جميع بلاد وادى النيل من شندى إلى مقرات بالذرة. وفي ذلك يقول الرحالة "بوركهارد"

"إن ذرة التاكا تصدر إلى سواكن بكميات كبيرة لدرجة أن كثيراً من السفن المحملة بها يمكن أن ترسل في أى وقت من هناك إلى جدة، حيث تشتري دائماً من أسواقها. والعلاقة بين التاكا وسواكن نشيطة للغاية. فنادرأ ما يمر أسبوعان دون أن تأتي بعض القوافل من سواكن. ولأن الإبل رخيصة جداً فإن نفقات الانتقال قليلة نسبياً. ومع ذلك فسعر الذرة فى سواكن يزيد أربعة أضعاف سعرها فى التاكا. إذ أن اثني عشر كيلاً تباع بدولار واحد. ولكن لا يزال السعر رخيصاً بدرجة تمكن التجار من أن ينقلوا الذرة إلى جدة، حيث يمكنهم بيعها بربح. وخلال المجاعة الأخيرة أمدت التاكا جميع بلاد وادى النيل من شندى إلى مقرات بالذرة. وتوجد أسواق عديدة فى هذه المنطقة شبيهة بسوق الهدندوة، وسوق الحلنقا Hallenga يقال إنه أكبر (من سوق الهدندوة) وحتى الذرة رخيصة هناك عما هو الحال فى ذلك الجزء من التاكا. وتوب الدمور كان سعره اثنين وثلاثين وستة وثلاثين مداً. ويذهب عدد كبير من التجار إلى هناك ليبيعوا ما لديهم من تبغ" [ص ٤٠٠].

ويضيف "بوركهارد": "أن قوافل صغيرة تذهب بعض الأحيان رأساً من التاكا إلى سنار لأجل الحصول على الدمور والتبغ. فهؤلاء التجار يسافرون من أقصى الأطراف الجنوبية لقبائل الحلنقة على مسيرة يوم إلى قرية "مينان" Menan، ومنها على مسيرة ثلاثة أيام عبر صحراء دون ماء، إلى نهر عطبرة، حيث يسكن عرب عمران ضفافه وهم يتكلمون العربية. ومن عطبرة يصلون بعد يومين فى الصحراء إلى عرب ديبالة Dhebdayle الذين يملكون قطعاناً كبيرة من الأبقار والإبل. ومن هناك على مسيرة يوم وسط الغابات والبقاع المزروعة إلى قرية دندر Dender، ومنها على مسيرة يومين آخرين إلى سنار، قاطعين فى الجملة من ثمانية إلى تسعة أيام بسير بطيء، ولكن ليس فى خط مستقيم وهذا الطريق يطرقه الحجاج الزنوج كثيراً" [ص ٤٠٠، ٤٠١]. ويصف أهمية المكانة التى احتلتها ذرة التاكا فى تجارتها مع سواكن وشندى بقوله: "إن القوافل الذاهبة إلى سواكن والقادمة من شندى عندما تمر فى هذا الطريق بالتاكا تحرص على استبدال جميع بضائعها بالذرة التى تشتهر بها التاكا، وتحمل إبلها بهذه الذرة إلى أقصى ما تستطيع حمله. وعند رحيل تلك القوافل من التاكا يلحق بها عدد كبير من سكان التاكا نفسها، ومعهم أحمال الذرة، كما يلحق بها أيضاً الحجاج من الزنوج" [ص ٤٠٣]. وأخيراً يحدثنا "بوركهارد" عن عامل هام ربما أسهم فى تنشيط التجارة بين التاكا وسواكن عبر عنه بقوله "إنه لا تدفع ضرائب مباشرة هنا (فى التاكا)، كما أن أهل التاكا لا يدفعون ضرائب فى سواكن. وكل ما يحدث فى التاكا بخصوص أمر الضريبة هو أن الرئيس عادة يكرم وفادة التجار بتقديم الذبائح لهم. وفى مقابل هذا الكرم يضطر تجار القافلة لأن يقدموا هدية لذلك الرئيس من فردة الدمور تعادل حوالي اثني عشر كيلاً من الذرة عن كل عبد فى القافلة بما يفوق أصناف قيمة تكاليف الوليمة التى يقوم بها هذا الرئيس لأولئك التجار" [ص ٤٠٣].

سكان التاكا من الهدندوة

لقد خص الرحالة "بوركهارد" الهدندوة، باعتبارهم أقوى القبائل البجاوية التي تقطن إقليم التاكا، بدراسة خاصة تناول فيها أصلهم ونظم معيشتهم وبيوتهم ومعسكراتهم وخيامهم، حيث جمعوا بين الزراعة والرعى، وكذلك خصالهم وطبائعهم وعاداتهم وتقاليدهم وأخيراً نشاطهم التجاري.

يقول: "إن بدو الهدندوة من سكان التاكا ينتمون إلى نفس النسب الذي ينتمي إليه شعب البشارية وجميع النوبيين الشرقيين الذين لهم نفس الملامح واللغة والأخلاق والعادات. وهم أقوى القبائل الأربع التي تسكن في التاكا. وجميع هؤلاء السكان جزء منهم مزارعون وجزء آخر بدو. ولكل قبيلة قرستان من القرى الكبيرة مبنية في الصحراء علي حافة الأرض الزراعية، حيث يوجد بعض الأهالي بصفة دائمة، ويأتي إليها جميع السكان عدا أولئك الذين يرعون الماشية داخل الصحراء أثناء موسم الأمطار. وعندما تنقشع المياه ينتشر البدو بعد ذلك على جميع المنطقة ضاربين الدورات أو الخيام في تلك الجهات، حيث يأملون أن يجدوا فيها أجود المراعي. ويتنقلون من شهر لشهر تقريباً، حتى تجفف الشمس المراعي. والمقيمون في القرية يزرعون أثناء ذلك الأرض البعيدة عن الصحراء المجاورة" [ص ٣٩٢].

ويصف "بوركهارد" نظام سكني الهدندوة الملائم لنظم معيشتهم التي جمعت بين حياة البداوة والاستقرار قائلاً "ومعسكراتهم تتكون من ألواح مصنوعة من الحصر كما هو الحال في عطبرة. وتوجد أيضاً ألواح قليلة من الجدران المبنية من الطمي وتشبه الأكواخ الموجودة على ضفاف النيل، ولكن أصغر منها. ورغم كل ذلك فإنهم حتى المستقرين منهم، يفضل الجزء الأكبر منهم السكنى في الريف المكشوف تحت الظلال عن السكنى في تلك المساكن. وإلى جانب القرى التي سبق وصفها توجد قرى أخرى داخل المناطق الخصبية تبني على البقاع الرملية المنعزلة تشبه الجزر المرتفعة فوق المستوى العام. ولا توجد برك أو مستنقعات مائية في التاكا" [ص ٣٩٢، ٣٩٣]. ويصف نظام الحلة (القرية) عند الهدندوة بقوله "إن الحلة تتكون من مئات الخيام التي تنقسم إلى دواوير ودوائر يفصلها بعضها عن بعض أسوار أقل ارتفاعاً من السور الشوكي العام الذي يحيط بالجميع. وفي كل مكان في التاكا، كما هو الحال في شندی وعطبرة، توجد أعداد عديدة من أكواخ البوطة، وعدد كبير من النساء المشاعة اللاتي يقضي أكثر تجار سواكن احتراماً، مع بعضهن جانباً من وقتهم. والزبد النيئة من البقر طعام مفضل. وعندما تكون القطعان قريبة من الحلة، فإن الأهالي يعيشون كلية تقريباً على ألبانها، وبخاصة لبن الجمل الذي يشربونه باستمرار" [ص ٣٩٣، ٣٩٤].

ويصف "بوركهارد" طبائع وتقاليدهم الهدندوة وصفاً دقيقاً معبراً يقول فيه "والهدندوة

يظهرون بعضهم البعض كرماءً عظيماءً، ولكن لا يظهرون أى رحمة أو شفقة على الغرباء، على الرغم مما هو معروف عن البدو من إمدادهم الغريب بما يحتاجه. ففي السوق لا يعطون الغريب حتى نقطة ماء، دون مقابل لها من الذرة. ولذلك فإن الحجاج من الزنوج الذين يمشون خلال التاكا فى طريقهم إلى مكة يشكون مر الشكوى من حاجتهم إلى من يوجد عليهم. وسكان التاكا مشهورون بعدم كرمهم لعدم إيمانهم" [ص ٣٩٤، ٣٩٥]. ويواصل وصفه لطبائع وتقاليد الهدندوة قائلاً: "إن الهدندوة يعيشون فى شغب مستمر بعضهم مع بعض، لا يؤدى إلى عداوة سافرة، وإنما يتخلله نوع من الغدر والخيانة، إذ يحاول كل فرد أن يفاجئ خصمه ويقضى عليه بالحيل. وحتى فى معسكراتهم تجدهم مسلحين بالحراب والسيوف والدروع. وعندما يذهبون إلى مكان يذهبون إليه عادة فى جماعات. ودائماً تحدث حوادث قتل واغتتيال والغدر هنا لا يعتبر جريمة أو عمل شائن. فالهدندوة لا يخجلون من الافتخار بعدم إيمانهم. فالرجل منهم قلما يرتاب لقتل رفيقه فى الطريق من أجل أن يمتلك لنفسه أتفه السلع قيمة، إذا وجد أملاً فى الإفلات من العقاب. ولكن عادة الأخذ بالثأر أو الدم تبدو قوية. كما إنهم يميلون إلى السرقة، حتى ليرى الناس السارق وهو يسرق دون أن يعترضوا سبيله. والتجار دائماً يشكون من غارات السلب والنهب التى طبع هؤلاء الهدندوة عليها" [ص ٣٩٥، ٣٩٦].

بالإضافة إلى اشتغال الهدندوة بالرعى والزراعة، فقد اشتغلوا بالتجارة وساعدهم على ذلك موقع بلادهم كملتقى للقوافل التجارية بين سواكن على ساحل البحر الأحمر، وشندى وسنار فى الداخل. ومن هنا فقد وجدت "سوق الهدندوة" وهى قرية عرفت بهذا الاسم وكان يعقد فيها السوق، حيث تعرض فيه أنواع السلع والبضائع التى تأتى بها القوافل من شندى وسنار وسواكن، إلى جانب السلع الأخرى التى اشتهر البدو وسكان الريف فى التاكا بإنتاجها. ويصفها "بوركهارد" وصفاً دقيقاً يقول فيه "هناك قرية يطلق عليها اسم "سوق الهدندوة" وهى مقر الزعيم الكبير لهدندوة التاكا.

وعلى الرمال خلف القرية تعقد السوق مرة فى الأسبوع. وتردد عليه أعداد كبيرة من البدو وسكان الريف، وبعض تجار القوافل التى تمر فى ذلك الطريق لبيع السلع المختلفة التى كانوا قد أحضروها من شندى مقابل الذرة التى يعم تداولها هنا. والبدو الذين يأخذون الدولارات من النادر وجودهم فى التاكا. ولكن الدمور عليه إقبال شديد. والسلع التى يحضرها إلى السوق سكان الريف إلى جانب الماشية هى أنواع مختلفة من الحصر والسلات المصنوعة من الغاب ومن سعف الدوم الذى يعم أودية الصحراء إلى الشمال والشرق، والأواني الفخارية للطبخ، وأباريق الوضوء التى يشتريها سكان سواكن ويحملونها إلى الحجاز. وجميع الزنوج والحجاج الفقراء يحملون تلك الأباريق للوضوء اليومى، وسرج الإبل، والحبال وجلود الحيوانات والقرب المصنوعة من الجلد، وقليل من الدجاج والطيور التى توجد فى جميع جهات النوبة، ولحم الجمل المقدد، والنبق الذى

يصنعون منه نوعاً من المادة الهلامية اللزجة ذات الطعم المقبول، والتامة Tama التي تشبه القرفة ولها نفس الطعم، وتستعمل في ذات الأغراض التي تستخدم فيها. وفي المرتفعات جنوب الحلنجا تسمى "باسينا" Basinya والصمغ العربي والقرض من أشجار السنط، ويستعمل في دبغ الجلود، والملح ويؤتى به من سواكن وهو يمثل سلعة هامة. وريش النعام الأسود وهو ريش الإناث من النعام، والريش الأبيض بصفة خاصة لتجار سواكن. ويأتى إلى السوق بعض الحدادين، العبد ينفخ في الكور بينما السيد يقوم ببرى السكاكين ورءوس الحراب والسلاسل الحديدية التي تستعمل لربط أرجل الإبل الأمامية خلال الليل" [ص ٣٩٨، ٣٩٩]. "والسلعة الرئيسية التي يبيعها التجار الأجانب هي التبغ من إنتاج سنار وفارس واليمن. والتبغ الذي يأتى من الأقطار الأخيرة يسمى هنا "السوراتى" Suratty، ومن النوع ذات الأوراق الصفراء الذى يطلق عليه اسم "تمباك" Tombac فى الحجاز ومصر، والذى يدخن فى الشرق فى بيبة فارسية أو نارجيلة، ولكونه أكثر قوة من التبغ السنارى يفضل فى التاكا، وبخاصة من أجل صناعة النشوق الذى يغمم به السكان. والنشوق يجهز بواسطة النطرون أو الملح مع التبغ المسحوق. ولا تخلو امرأة أو رجل من حمل النشوق. وتجار سواكن يبيعون هنا أيضاً النطرون الذى يحملونه من شندى، وكذلك أنواع التوابل وبخاصة القرنفل الذى يكثر عليه الطلب وسط الحلنجا، والبخور والخرز، والمصنوعات الحديدية. ولكن السلع الرئيسية هي التبغ والدمور والقرنفل. وتؤخذ الذرة مقابل تلك السلع [ص ٣٩٩، ٤٠٠].

التكارنة وطرق الحج إلى مكة

هناك موضوع هام لم يشأ الرحالة "بوركهارد" أن يترك الحديث عن إقليم التاكا بالسودان الشرقى دون أن يتناوله بالبحث والدراسة، وهو موضوع التكارنة المسلمين من غرب السودان الذين اعتادوا السفر إلى مكة للحج أو للعلم كل عام. ولقد لفت نظره فى أثناء زيارته لإقليم التاكا عام ١٨١٣ قدوم أعداد كبيرة من هؤلاء التكارنة إلى الإقليم، ليرافقوا قوافل سواكن عند مغادرتها التاكا فى طريق عودتها إلى سواكن على ساحل البحر الأحمر، ومنها يعبرون البحر إلى جدة فمكة. كذلك أشار إلى ما كان يرويه أولئك التكارنة من شدة معاملة الهدندوة والبشارية لهم أثناء مرورهم ببلادهم وهم فى طريقهم إلى سواكن. على أن "بوركهارد" فيما يبدو لم يقنع بمثل تلك المشاهدة أو الإشارة، وإنما قام بدراسة لهؤلاء التكارنة المسلمين تتبع فيها مواطنهم الأصلية فى غرب السودان التى كانوا يسافرون منها إلى مكة للحج أو للعلم. وهى أماكن وإن لم يكن قد قدر له زيارتها فى رحلته بالسودان، إلا أنه دون الكثير مما سمعه أو تحرى عنه خاصة بظروفها الطبيعية وحياة سكانها.

واهتمام "بوركهارد" بدراسة هذه الطائفة من الزنوج المسلمين والطرق التى كانوا

يسلكونها من بلادهم البعيدة في غرب السودان إلى مكة والقاهرة للحج وللعلم، قد يعزى إلى إعجابه بهم وتقديره لتمسكهم بعقيدتهم وسعيهم لطلب العلم وتحملهم المشاق والصعاب لتحقيق غاية من أسمى الغايات وأنبهها، إذا قورنت على الأقل بالرحلات التجارية التي كان يقوم بها الكثير من سكان هذه البلاد سعياً وراء الكسب المادى. أو يعزى هذا الاهتمام إلى إعجابه بالمسلمين والإسلام بصفة عامة، وهو ما يتضح من شرح الظروف التي أحاطت برحلته في السودان، إذ كان - كما قدمنا - حريصاً منذ البداية على تعلم اللغة العربية وآدابها، وعادات المسلمين وتقاليدهم، إلى حد الإتقان، وكذلك حرصه على أن يلم بتعاليم الإسلام وأن يتفقه في العقيدة الإسلامية بحفظ آيات من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة إلى الدرجة التي أثارت معها إعجاب وتقدير بعض العلماء المسلمين الذين التقوا به وناقشوه في شؤون اللغة والدين، وخرجوا من مناقشته بانطباع أنه مسلم متمسك بعقيدته وملم باللغة العربية. ولا عجب فقد حج هو نفسه إلى مكة مع جماعة من المسلمين في نهاية رحلته في شبه الجزيرة العربية وصار يطلق عليه لقب حاج. وعاش بقية حياته في القاهرة مسلماً، حتى دفن فيها حسب التقاليد الإسلامية^(١) [ص ٢٩ - ٣٢].

يقول "بوركهارد" في وصف التكارنة واتجاهاتهم الدينية والعلمية "إن كلمة تكارنة تطلق على الزوج الذين يأتون من الغرب (السودان الغربى) طلباً للعلم أو للحج. فبعد أن يتقدموا بعض الشيء في مدارس بلادهم (حيث توجد المدارس في جميع البلاد الإسلامية في إفريقية يتجهون إلى مكة من أجل الحج أو لدراسة القرآن وتفسيراته في هذا المكان، أو إلى المدينة أو إلى القاهرة من أجل هذا الغرض. بيد أن الجزء الأكبر منهم يذهب لأجل الحج. ويوجد عدد منهم في الأزهر. والقسم الأكبر من التكارنة الذين يزورون مكة يأتون من مدارس دارفور، وبخاصة من كنجارة Kondjara بجوار كوبة" [ص ٤٠٦، ٤٠٧. بوركهارد]. ويضيف: "أن أولئك الذين من أقصى البلاد الغربية من بحر الغزال وباقرمة Bagerme يمرون بهذا الطريق وجميع الحجاج السود من الأقطار الواقعة إلى غرب باقرمه Bagerme من بورنو Bournou بعيداً حتى تمبكتو يسافرون إما مع قافلة فزان أو مع قافلة حجاج كبيرة من المغرب، أو يتقدمون عن طريق البحر من ساحل البربر Barbary. والدافع القوي لذلك هو الحصول على الثقة التي ينالها كل حاج في موطنه". "إن بعض تكارنة دارفور وكردفان يملكون سلعاً وبضاعة كبيرة من بينها الرقيق، ولكن الجزء الأكبر منهم مجردون تماماً، ويعتمدون في طريقهم إلى مكة أو العودة منها إلى بلدهم على الاستجداء وعلى عملهم البدوى في أثناء الطريق" [ص ٤٠٧].

ويصف "بوركهارد" نظام سفر التكارنة الجماعى بقوله "إن التكارنة نادراً ما يسافرون منفردين، إذ يكونون جماعات، تضم المجموعة الواحدة تقريباً ستة أفراد، وإذا سحنت الفرصة يتصلون ببعض القوافل في الطريق أو يتقدمون نحوها بأنفسهم" [ص ٤٠٧، ٤٠٨].

1- Boudge. The Egyptron Soudan, its history and monuments R. P. 29 - 32.

"وطريق التكارنة المعتاد إلى مكة هو طريق أسيوط أو طريق سنار أو عن طريق شندی . وأولئك الذين من البلاد الغربية القصوى يتقابلون عند دارفور ، ومنها يرحلون إلى أسيوط (والقافلة تحتاج إلى رأس مال كاف لشراء الإبل والمؤن اللازمة لرحلة عبر الصحراء) . ومن أسيوط يتقدمون إلى جدة عن طريق القصير . والحجاج الذين يذهبون عن طريق سنار يأتون من كردفان ويسلكون ثلاثة طرق مختلفة :

الأول : داخل الحبشة عن طريق غوندار Gondar وإكسوم Axum إلى مصوع .

والثاني : حزاء ضفاف النيل من سنار إلى شندی .

والثالث : من سنار إلى التاكا عن طريق رأس الفيل ، ومنها إلى بلاد الحلنقة ، حيث يتفادون السفر عبر الصحراء . وأولئك الذين يسلكون الطريق الأول يشكون من سوء معاملة مسيحي الحبشة لهم ، إذ لا يسمحون لهم على الإطلاق بدخول أى منزل من منازلهم أو حتى الحوش ، وإنما يقدمون الطعام لهم أمام العتبة مثل الكلاب علي حد تعبيرهم . ومع كل ذلك يحصلون علي طعام وفير في المساء . وفي مصوع يظلون بضعة أسابيع حتى يتمكنوا من كسب بعض المال عن طريق عملهم البدوي ، يكفي لدفع ضريبة المرور في البحر إلى ساحل اليمن القريب ، حيث تبلغ دولاراً ، أو إلى جدة حيث تبلغ دولارين . والمكان الذي اعتادوا التجمع فيه هو الحديدية ميناء اليمن ، ومنها يتقدمون إلى مكة براً ، حيث يمرون على قبائل البدو الكريمة في مرتفعات الحجاز . ويقدر عدد الحجاج الزنوج الذين يسلكون هذا الطريق إلى مكة بحوالى مائة وخمسين أو مائتى شخص .

والطريق الثالث : يفضله جميع الحجاج القادرين على السير مزودين بجمل لنقل الماء والمئونة ، ويكونون علي يقين من أن يجدوا في التاكا بعد أن يمكثوا فيها فترة وجيزة ، بعض التجار من سواكن يرافقونهم إلى هذا المكان (سواكن) [ص ٤٠٨ ، ٤٠٩] .

ويصف الطريق الذى يسلكه حجاج التكارنة أكثر من غيره ، مشيراً إلى الأسباب التى تمكن وراء ذلك بقوله "إن الطريق المطروق أكثر من غيره هو من دارفور أو كردفان رأساً إلى شندی . ويواصل وصفه لذلك الطريق قائلاً "وعند الدامر يتفرع طريقان رئيسيان لحجاج التكارنة ، فإما يتقدمون على جانب النيل تجاه مصر ، أو يصعدون ضفاف نهر المقرن Mogran وعطبرة بعيدا حتى قوز رجب ، ومنها يعبرون إلى التاكا ثم إلى سواكن" [ص ٤٠٩] . ويصف الطريق الأول الذى يتجه إلى مصر مشيراً إلى ما يلاقيه التكارنة من كرم المصريين ومقارناً بينه وبين الطريق الثانى بقوله "إن الطريق الأول طويل ولكن أقل تعباً ، كما أنهم كلما اقتربوا من مصر كلما ازداد ما يصادفونه من كرم وسط سكان النيل . ويتعرض التكارنة لنهب الشايقية . وممتلكاتهم البسيطة ، تكون فى مأمن من دارفور إلى شندی حيث تتولى الحكومة حمايتهم ، ولكن من شندی يبدأون فى التعرض لمعاملة مختلفة . ففي أثناء وجودهم فى شندی يستبدلون عادة كل ما يمتلكونه بالذهب الذى فى استطاعتهم أن يخبئوه بكل سهولة أكثر من أى سلعة أخرى . ولكن نظراً لأن هذا الأمر قد أصبح معروفاً عنهم ، فبدو عطبرة والتاكا وكذلك الشايقية يقومون

بتفتيشهم تفتيشاً دقيقاً بحثاً وراء ما يحملونه من ذهب، ولا يتركون وسيلة إلا ويستخدمونها لسلب ما معهم من مال بسيط أو ذهب قد يكون لديهم. ويعوض الشايقية نهبهم لهؤلاء التكارنه بأن يسلكوا معهم مسلك الكرم. ولكن بدو عطبره والتاكا مشهورون بميلهم للغنيمة إلى جانب ما اتصفوا به من البخل وخلق العقبات والصعاب أمام المسافرين الفقراء" [ص ٤٠٩، ٤١٠].

أما الطريق الثاني الذي يتفرع من الدامر فيصفه بقوله إن الطريق الذي يطرقه الحجاج الزوج (التكارنة) أكثر من غيره هو من الدامر عبر نهر المقرن إلى التاكا، ومنها إلى سواكن. ويبلغ عدد الذين يسلكون منهم هذا الطريق حوالي خمسمائة شخص. وكما سبق أن ذكرت فإنهم لا يسافرون أبداً في جماعات كبيرة، ولكن قليل منهم يمر عبر ضفاف النهر. وفي الدامر يشترتون إذا أمكن الحمير ويحملونها بالذرة لتموينهم في الطريق. ومن التاكا يتقدمون مع القوافل إلى سواكن" [ص ٤١١، ٤١٢]. ويصف انتقال هؤلاء التكارنة بعد وصولهم إلى سواكن بحراً إلى جدة، مشيراً إلى ما قد تصادفهم من مشكلة دفع أجرة الانتقال بالسفينة لظروفهم المالية الصعبة، وكفاحهم الشاق من أجل التغلب عليها قائلاً "وفي سواكن ينتظرون سفينة تنقلهم إلى جدة" [ص ٤٦٢]. والأجرة المعتادة تتراوح بين دولار ودولارين. وقد يحدث في حالة إصرار صاحب السفينة على مبلغ دولارين أجرة، أن تترك جماعة التكارنة سواكن بعد أن تكون قد وصلت إليها، قاصدة مصوع، حيث يكونون متأكدين من أن الأجرة بها دولار واحد. ومن أجل هذه الفائدة (الفارق) يقطعون مسافة تستغرق ثلاثين يوماً على الأقل، وهم يعرضون نفقات تلك المسافة عن طريق العمل والاستجداء" [ص ٤١٢]. ويعلق على ذلك بقوله "إن المسافة نادراً ما تدخل في حساب أولئك الحجاج أو بدو تجار هذه البلاد. فهم لا يكثرثون بالتعب إلا قليلاً، وكذلك الحال بالنسبة للوقت. شيء واحد فقط يجذب إنتباههم، هو الفائدة المباشرة وتجنب التكاليف" [ص ٤١٢].

ويشرح "بوركهارد" النتائج المترتبة على الشدائد والمخاطر التي يواجهها هؤلاء التكارنة المسلمون في رحلتهم الطويلة والشاقة إلى مكة للحج أو للعلم قائلاً "ويترتب على الشعور بالتعب، وما يصادفونه من المخاطر في أثناء الرحلة أن عدداً كبيراً من الحجاج ربما يصل إلى السدس يقع ضحية غيرتهم وحميتهم، والجزء الأكبر من الأمراض التي تهاجم هؤلاء الحجاج في الطريق ناتجة من قلة ملابسهم، وكثير منهم يدفن في الصحارى من الفاقة والتعب. والآخرين يقتلون ولكن جميع الذين يموتون في الطريق يعتبرون شهداء" [ص ٤١٢]. على أن التكارنة من غرب السودان لم يكونوا كلهم من الطبقات الفقيرة أو المعدمة في أوطانهم، إذ يذكر "بوركهارد" أن هناك بعض الرجال من التكارنة من ذوي القوة والثروة في بلادهم، ولكنهم يظهرون بغير ذلك، لكي يتجنبوا الأخطار التي يتعرض لها الأغنياء في هذه الرحلة" [ص ٤١٣].

مشاهدات «بوركهارد» فى سواكن

سواكن هى المنفذ الرئيسى للسودان على ساحل البحر الأحمر الذى يربطه ببلاد شبه الجزيرة العربية، وبلاد جنوب وشرق آسيا، وبمصر عن طريق سواكن - السويس، وإن لم يكن هذا الطريق مألوفاً كثيراً إذا قورن بالطرق البرية الصحراوية المعتادة التى ربطت بين البلدين. وقد ربطت سواكن بأقاليم السودان فى الداخل. ومن سواكن كانت السفن تحمل السلع والمنتجات السودانية إلى جدة ومخا والحديدة فى اليمن وشبه الجزيرة العربية، وتعود بالسلع والبضائع التى اشتهرت بها هذه البلاد العربية وكذلك التى كانت ترد إليها من بلاد الهند وجنوب شرق آسيا وأيضاً بعض السلع الأوروبية.

والباحثون والدارسون فى تاريخ السودان الحديث فى الفترة التى سبقت امتداد الإدارة المصرية إليه عام ١٨٢٠/١٨٢١م يعنون ببحث ودراسة السلطات الوطنية التى قامت فى أقاليم السودان المختلفة فى تلك الفترة وهى سلطنة الفور فى دارفور، وسلطنة الفونج فى سنار، ومملكة تغلى فى غرب السودان. وهى بحق جديرة بالبحث والدراسة لأنها تمثل الحكم الوطنى فى تاريخ السودان الحديث. بيد أنها لا تمثل تاريخ السودان كله فى تلك الفترة، إذ ينبغى أن يراعى أنه فى أثناء قيام هذه السلطنات الوطنية فى إقليم السودان كان هناك الحكم التركى الذى امتد فى أوائل القرن السادس عشر إلى سواكن وهى ميناء سودانى وعلى أرض سودانية، ويعد المنفذ الرئيسى، إن لم يكن الوحيد تقريباً لتجارة السودان الخارجية على البحر الأحمر فى ذلك الوقت. (نسيم مقار: أحوال السودان السودان الاقتصادية تحت الإدارة المصرية من عام ١٨٢١ - ١٨٤٨م، ص ٢٧٩ - ٢٨٠).

يصف "بوركهارد" طبيعة موقع سواكن الجغرافى بقوله "إن سواكن تقع عند طرف خليج ضيق عمقه حوالى اثنى عشر ميلاً وعرضه ميلين. وتوجد عدة جزر تجاه الخليج وعلى إحدى هذه الجزر تقع مدينة سواكن ذاتها. ويفصلها عن ضاحتها التى تعرف باسم القييف التى تقع على الأرض الرئيسية ذراع من الماء يبلغ حوالى ٥٠٠ ياردة [ص ٤٥]. والميناء يقع على الجانب الشرقى للمدينة، ويتكون من الجزء البارز من اليابس. وذراع البحر على الجانب الغربى لا يصلح لرسو السفن من أى حجم. والجزر كما فى المنطقة المجاورة رملية، ولا ينبت عليها شئ، سوى قليل من الشجيرات أو أشجار السنط القصيرة" [ص ٤٣١].

ويصف "بوركهارد" جغرافية الإقليم الذى تقع فيه سواكن والقبائل البدوية المختلفة التى تقطنه من الهدندوة والبشارية والأمرار ونظم معيشتها وعلاقتها بسواكن وسكانها من

الحدرب وصفا شاملاً يقول فيه "إن الماشية في سواكن كثيرة، وتحفظ في المناطق المجاورة فقط أثناء الشهور التي تعقب موسم الأمطار مباشرة، عندما ينمو في السهول المحيطة بعض المرعى. أما خلال الأشهر المتبقية من السنة، فترعى الماشية في محلات الهدندوة في مرتفعات دياب Dyab أو لنجاي Langay. ويزرع البدو المجاورين وبعض الهدندوة من سكان القييف، عقب سقوط الأمطار، السهل الخصب المسمى طوكر الذي يقع على مسيرة يومين تقريباً من المدينة وليس بعيداً عن البحر. وهو سهل فسيح خصب تحيطه المرتفعات ويروى بمياه السيول، ولكن محصوله قليل إذا قورن باستهلاك المدينة" [ص ٤٤٧، ٤٤٨]. ويمضى في وصفه للمناطق القريبة من سواكن قائلاً "وعلى مسيرة خمس ساعات شمال سواكن تمتد سلسلة دياب تجاه الساحل. والجزء البارز منها يكون الأطراف الشمالية لحدود بدو الهدندوة. وفيما وراءها تبدأ حدود قبيلة الأمرار وهم شعب مستقل ليس على اتصال بالشعب السابق الذي توجد «حلاته» على طول الساحل بعيداً حتى جزيرة جبال مكوار Djebal Mekawar. والأمرار أصدقاء للهدندوة، ولكن على علاقات سيئة مع البشارية رغم أنه يقال إنهم يرجعون إلى أصل واحد".

ويحدثنا "بوركهارد" عن وجود طريق يربط بين سواكن وأسوان في مصر العليا لم يكن مطروقاً كثيراً بسبب الخطر الذي يحيط به من جانب بدو البشارية. "يقال أن الطريق من سواكن إلى أسوان يستغرق من عشرين إلى خمس وعشرين يوماً. ولكنه غير مطروق. وفي العام الماضي (١٨١٣م) عندما قطع اللص نعيم الطريق المنتظم من شندی إلى مصر العليا، فكر بعض تجار سواكن من ذوى الأعمال في رحلة إلى مصر، داخل بلاد البشارية أملاً في الحصول على سعر جيد لإبلهم وعبيدهم وغيرها من السلع الهندية المختلفة. وعلى الرغم من أنهم كانوا في حالة حرب مع البشارية، فقد أخذوا معهم مرشدين اثنين من هذا الشعب، ليضمنوا أمنهم وسلامهم، وليرشدوهم الطريق. وفي الوقت نفسه دفعوا عوائد المرور التي عليهم أن يدفعوها لرؤساء البشارية. في بلاد العرب يسافر التجار في أمان بهذه الوسيلة عبر حدود القبائل المعادية التي لا تجرؤ على أن تلحق بهم أى أذى عندما يرافقهم بعض من أفرادها. لكن الإفريقيين أقل ذمة. ففي منتصف الطريق تقريباً أبيت قافلة سواكن عن آخرها، ولم ينج منها شخص واحد وليس من المحتمل أن يحاول أحد المرور في هذا الطريق مرة أخرى" [ص ٤٤٩].

يحدثنا "بوركهارد" عن أوطان البشارية المجاورة للبحر الأحمر الذي يقع عليه هذا الميناء. وأوجه النشاط التي يمارسها هؤلاء البشارية، وعلاقاتهم التجارية بدراو وبمصر العليا وبقبائل العباددة المجاورة يقول فيه "إن المقر الرئيس للبشارية كما يبدو في علبه Olba وهي مرتفع بجوار البحر الأحمر ذات ميناء صغير يقع على مسيرة عشرة أو اثني عشر يوماً من سواكن، وحوالي خمس عشرة يوماً من دراو بمصر العليا. ورؤساؤهم الأصليون يعسكرون في أوديه هذا المرتفع الذي يقال إنه غنى بالمرعى دائماً وتقطنه قبائل كثيرة قوية. واسم المكان معروف جداً في مصر العليا. والعبادة كثيراً ما يذهبون

إلى هناك ومعهم الذرة والمنسوجات القطنية المصنوعة في مصر. كما يزوره زعماء العبادة من أجل جمع الضريبة الخاصة التي يدفعها لهم هؤلاء الجبليون من أجل السماح لهم يرعى ماشيتهم في فصل المطر في هذا الجزء من مرتفعات النوبة الشمالية التي يعتبرها العبادة إرثاً لهم [ص ٤٤٩ - ٤٥٠].

ويصف "بوركهارد" ميناء علبة البشارى على ساحل البحر الأحمر وحركة التجارة في السوق الذي يعقد فيه بقوله "إن علبة Olba تعد ميناء في موقع (وسط) على ساحل أفريقية بين القصير وسواكن. والبشارية لهم سوق منتظمة هناك ترد إليه السلع من مصر العليا ومن سواكن مباشرة. وفي بعض الأحيان ولكن نادراً جداً تصل إليه قوارب صغيرة من بلاد العرب لأجل الحصول على جلود الحيوانات والزبد، لأن أصحاب القوارب يخشون غدر البشارية. ولذلك يندر أن يرحبوا بارتياح هذه السوق رغم ما يتيح لهم من أرباح عظيمة. ويقال إن الإبل متوافرة جداً هناك. والبشارية جميعهم تقريباً يعيشون على لبنها ولحمها. وهم لا يزعمون أى جزء من الأودية رغم أن النهيرات تجري في كثير منها. وقد ترتب على ذلك ندرة الذرة وارتفاع سعرها، وتأتي إليهم من مسافات بعيدة. والكمية التي تساوى دولارين في مصر العليا تستطع أن تحصل بها على جمل جميل في علبة" [ص ٤٥٠].

كما يصف عناصر السكان المختلفة التي كانت تعيش هناك وقت زيارته بقوله "إن سكان سواكن مثل سكان جميع الموانئ يتكونون من عناصر متباينة. ومع ذلك فالطبقة الرئيسية (العنصر الرئيسي) واضحة، فأجداد العائلات الرئيسية من عرب سواكن أصلهم من مواطني حضر موت وبصفة خاصة من مدينة شاهر Shaher وهي ميناء ذلك البلد العربي على المحيط الهندي. وبعضهم أتوا إلى هنا منذ قرن من الزمان، وإن كان البعض الآخر يقرر بأنهم وصلوا إلى سواكن عقب انتشار الإسلام. ومنهم أصبح يطلق على السكان المقيمين في المدينة اسم الحدرب Hadherebe، وأصلها الحضرم أى سكان حضر موت" [ص ٤٢٢]. ويستطرد "بوركهارد" قائلاً "إن هناك تمييزاً بين الحدرب Hadherebe الحقيقيين أو النازحين من مواطني حضر موت والمقيمين الآخرين الذين يطلق عليهم سواكني. فالى الفريق الآخر ينتمى كثير من أفراد قبائل البدو من الهدندوة والأمراء والبشارية، وبعض الذين ينتمون إلى أصل تركي وعربي. وأولئك الذين من أصل تركي الجزء الأكبر منهم من الجنود الأتراك الذين نزحوا في بداية القرن السادس عشر مدة حكم السلطان سليم العظيم، فقد أرسلوا إلى هنا عقب غزو هذا السلطان لمصر، وذلك من أجل احتلال سواكن وحماتها، كما حدث في احتلال أسوان وإبريم وصاى. ويوجد أيضاً في سواكن عدد قليل من التجار الأتراك وأصحاب السفن والمهاجرين، وهم أصلاً من أولئك الأتراك الذين نزحوا أخيراً. وقد نسوا لغتهم التركية منذ مدة طويلة. وهم الآن متصلون بصلة قرابة وعمل مع النازحين من سكان بلاد العرب الذين يكثرون عددهم هنا، ويلبسون زى الحجاز، ولهم جميع عادات وأخلاق هذا القطر" [ص ٤٢٢، ٤٢٤]. ويضيف

"إن اللغة البشارية تعم سواكن. ورغم أن اللغة العربية يفهمها كل شخص في القييف، إلا أن لهجتها غير سليمة وينطقونها بلهجة جيدة، ولكنهم يتكلمونها كلغة قومية لهم" [ص ٤٦٦].
أما عن طبائع وأخلاق السكان فيصفها بقوله "إن سكان سواكن يشاركون جيرانهم من سكان الصحراء تلك المساوىء (ضعف الإيمان والسكر والغدر) ويفوقونهم في القسوة . . . وعدم استقرار أحوال حكوماتهم يُعد من الأسباب الرئيسية في فساد أصلهم الطيب الذي ورثوه عن أسلافهم العرب. وهم يشتهرون في كل مكان على ساحل البحر الأحمر بالغدر وينطبق عليهم مثل عرب يامبو Yembo "حتى ولو سقيتهم من ماء زمزم، فإنهم يتركونك تموت من الظمأ ولو كان بئرهم مليوناً". وفي سواكن لا يسود سوى قانون الأقوى. ومن المستحيل أن تقوم بعمل دون أن تشتري حماية بعض الحدرب الأقوياء" [ص ٤٤٣، ٤٤٥]. كما تحدث كل يوم بعض المشاجرات الدموية بينهم والمجرم لا يؤنب أو يردل، وإنما يفتخر بنفسه وسط الناس أنه سفك دمأ في أثناء المعركة، أو أنه دفع مبلغاً من المال ثمناً لهذا الدم" [ص ٤٤٥]. "إن إيمان أهل سواكن بالضيافة قليل، كما هو الحال في التاكا. وأكواخ البوظة والعاشرات عامة، كما هو الحال في أى جزء من النوبة Nubia" [ص ٤٤٥].

ويصف الرحالة "بوركهارد" نظام المساكن في سواكن بقوله "إن منازل المدينة المبنية على الجزيرة تتكون من طابق واحد أو طابقين. والجزء الأكبر من تلك المنازل في طريق الهدم، بينما على العكس من ذلك منازل ضاحية القييف إذ هي في تزايد سريع من حيث الحجم والسكان. وهي الآن أكبر من المدينة ذاتها" [ص ٤٣٢]. ويواصل وصفه لنظام المساكن في سواكن قائلاً "إن الأغا (الحاكم التركي للميناء) يقيم في المدينة، ويطل منزله على الخليج تجاه البحر. ولا توجد هنا الوسائل أو المهارة اللازمة لإصلاح السفن إذا حدث فيها أى عطب". [ص ٤٣٢]. ويقدر الرحالة "بوركهارد" عدد المنازل في سواكن بحوالى ستمائة مسكن. ويقول "إن ثلثى هذا العدد في حالة هدم. وفي ضاحية القييف توجد منازل قليلة مبنية من الحجر وهي ذات أبنية فسيحة. أما المنازل الأخرى فمصنوعة من الحصر" [ص ٤٣١].

ويصف "بوركهارد" وسائل أهل سواكن للحصول على المياه اللازمة بقوله "إنه على مسيرة نصف ساعة من القييف توجد الآبار التي تمتد سواكن والضواحي والسفن بالماء. ويبلغ عدد هذه الآبار حوالى اثنى عشر بئراً. والقليل منها طعم مائه مقبول. ولا يوجد فيها ما يحتوى على ماء عذب وتوجد في المدينة أحواض لحفظ ماء المطر ولكنها مهدمة ولا يوجد من يتحمل نفقات ترميمها. وأولئك الذين يختصون بشئون التجارة البحرية وأعمال الشحن، وكذلك الذين على صلة بالحكومة (حكومة سواكن) يقيمون في الجزيرة". [ص ٤٣١، ٤٣٣].

يقول الرحالة "بوركهارد" في وصف نظام الحكم والأوضاع السياسية في سواكن "إن حكومة سواكن في يد أمير الحدرب Hadherebe الذي يختار من بين العائلات الأولى في

القبيلة، وهي خمسة. ويطلق عليهم تمييزاً عن غيرهم لقب أورتيجا Ortega. وهو لفظ بشارى ومعناه الأشراف أو النبلاء. ولهذا الأمير حق حكم ضاحية القييف. ولكن سلطانه على البدو ضعيف رغم أنه يرأس اجتماعاتهم. وهو يتبع تبعية إسميه باشا جدة. بيد أن مسلكه يتوقف على قوة أو ضعف رئيسه. فعندما تولي الشريف غالب (١) وصار محصوراً من جميع الجهات بالوهابيين كان الأمير مستقلاً تماماً عن الشريف غالباً، حتى فتح محمد على باشا الحجاز، حينذاك دخل الأمير في اتفاقيات مع الباشا تقضى بأن يستمد سلطته من حاكم جدة. ويعطى بصفة عامة سلطة جمع العوائد الجمركية فى القييف، وهي العوائد التى يفرضها الحدرب على القوافل القادمة من الداخل. ولم يكن يدفع شيئاً من أجل هذا الامتياز للشريف لعدة سنوات. ولكن فى الوقت الحاضر يدفع لمحمد على باشا، خوفاً منه، حق جمع العوائد مبلغاً سنوياً يقدر بأربعين اقة ذهب تقريبا أو ثمانمائة دولار سنوياً [ص ٤٣٤، ٤٣٥].

"يمثل الحكومة التركية فى سواكن مأمور دار المكوس الذى يسكن فى الجزيرة. وهو يرأس المدينة ولكن تحد من سلطته قوة الحدرب. ويحمل لقب أغا. وقبل فتح محمد على لبلاد العرب كان الأغا شخصية محتقرة. وباشا جدة يعتبر أيضاً والى أو حاكم سواكن، وله حق إرسال من يمثله هنا. وهذا الحق لم يعارض فيه أهل سواكن. وعلى الرغم من تمسكهم بالتقليد الذى يقضى بتبعية سواكن لجدة، إلا أن لها باشا خاصاً بها ترسله القسطنطينية" [ص ٤٣٥].

ويصف "بوركهارد" شخصية الأغا الذى يمثل الحكومة التركية فى سواكن وصفاً مشيراً يدعو إلى الرثاء إذ يقول "وليس لدى الأغا من الإشارة الملكية (الخاصة بالحكم التركى) إلا حدائه الأصفر التركى يضطر إلى لبسه مع الطاقية الصغيرة. وهذا يجعل ملبسه يختلف عن ملبس البدو. كما أنه مضطر إلى حلق ذقنه، ولديه اثنان أو ثلاثة رجال عند مقر إقامته كضباط أو جواسيس لمعرفة العدد المضبوط للرقيق والبضاعة التى تحملها القافلة. وهو لا يقيم فى القييف، ويختلف عن شيخ الحدرب الذى ليس لديه أعمال متصلة بالحكومة التركية، وإنما هو مجرد شخص يختار لإدارة الشؤون الداخلية" [ص ٤٣٥]. ويمضى فى وصفه قائلاً "والأغا إما يعاد تعيينه، أو يرسل واحد آخر بدلاً عنه كل عام. والأغا الحالى يسمى يمك. وهو من الحجاز. وقد كان والده من حجاج الموصلى الذى استقر فى الحجاز. وفى أثناء مدة حكم الشريف كان يمك Yemak بلياتشو البلاط وسمساراً فى سوق جدة. وعندما وصل محمد على، اتصل يمك بالأتراك العثمانيين عن طريق معرفته البسيطة بلغتهم. وبعد أن خدم الأتراك كوسيط وكجاسوس على الشريف عين فى منصبه الحالى.

(١) يلاحظ أن الدولة العثمانية حرصت على بسط نفوذها على الحجاز، حيث يوجد فيه الحرمان الشريفان فى مكة والمدينة. ولكنها تركت الحكم الفعلى فى يد الأشراف هناك. وقد كان الشريف غالب بين مساعد أميراً على مكة (١٧٨٨ - ١٨١٤)، وقد نجح فى أن يوطد أقدامه حتى أصبح صاحب النفوذ الفعلى فى الحجاز دون والى العثماني. ولكنه لم يقو على مقاومة حملة الوهابيين على الحجاز ففر إلى جدة. وأخيراً تم الإتفاق على أن يحتفظ الشريف غالب بالحكم شريطة أن يتبع المبادئ الوهابية فى حكمه وظل الحال كذلك حتى بسط محمد على باشا باسم السلطان نفوذه على الحجاز بعد إلحاقه الهزيمة بالوهابيين وقد عين أحمد باشا يكن (ابن أخته) حاكماً على الحجاز ومحافظة لمكة.

وللأغا حق منح بعض الألقاب لخدامه البائسين. كما يوجد معه خمسة أو ستة من الجنود المرتزقة من اليمن، كما هو الحال عند شريف مكة وجميع الرؤساء في بلاد العرب ويقوم الأغا بدفع أجورهم من موارده الخاصة. وهم يكونون الحامية الوحيدة في سواكن. ومن ثم يمكننا الاعتقاد بسهولة أن النفوذ التركي لا يحظى هنا إلا باحترام ضئيل".

ويصور "بوركهارد" مدى ضعف الحكم التركي وعجزه في سواكن بقوله "إنه منذ حوالي عشرين أو ثلاثين عاماً أرسل باشا جدة إلى هنا حوالي مائتي جندي تمكنوا من نهب منطقة القييف، ولكن سرعان ما حاصر البدو هؤلاء الجنود لبعض الوقت في منزل الحاكم، وكذلك الأبنية المجاورة له، ولم يسمحوا لهم بالتقدم، واضطروا في الحال إلى أن يبحروا من حيث أتوا. وخلال مدة حكم الوهابيين سمح لسكان سواكن بالاتجار مع جدة، ولكن سعود زعيم الوهابيين الذي كان قد شاهد كثيراً منهم في مخا، وقد دهنوا شعورهم بالشحم، أرغمهم على أن يغطوا رؤسهم بالمناديل مثل البدو العرب" [ص ٤٢٦، ٤٥١، ٤٥١].

أما عن علاقة الأغا المقيم في الجزيرة بأمير الحدرب الذي يحكم منطقة القييف التابعة لسواكن، فيحدثنا عنها الرحالة "بوركهارد" قائلاً "ليس لدى الأغا وسائل أخرى لاستخدام سلطته البسيطة أكثر من أن تكون على وفاق مع الأمير الذي يسمح له الأغا أو يساعده في جمع المبالغ من الأفراد الضعفاء في القييف، من أجل أن يحصل على مساعدة الأمير في جمع الرسوم الجمركية على الجزيرة" [ص ٤٣٥، ٤٣٦]. ويصف لنا "بوركهارد" نظام الرسوم الجمركية بقوله "خلال السنوات الأخيرة مارس الأغا سلطته في تحصيل الرسوم الجمركية على التجارة البحرية (في سواكن) ودفع سنوياً للخزانة في جدة ٣٢٠٠ دولاراً لأجل هذا الامتياز. ومن المفروض أن يربح ٢٠٠٠ أو ٣٠٠٠ دولاراً سنوياً عن هذا الطريق. وهذا المبلغ في الإمكان مضاعفته إذ دفعت العوائد الجمركية بحزم وصرامة. ولكن لا يمكن الحصول من الحدرب، وهم أكثر الأفراد ثروة، إلا على الشيء القليل. والعوائد الجمركية تفرض على البضائع الواردة، وبخاصة البضائع الهندية والتوابل المرسلّة للأسواق السودانية، وعلى جميع الصادرات من السودان التي تنقل بالسفن إلى جدة لأجل الأقطار الأخرى، وتشمل بوجه خاص الرقيق والخيل والتبغ. ويدفع دولاران على كل عبد وثلاثة دولارات على الحصان. والذرة حرة لا تفرض عليها أى ضريبة، كما هو الحال بالنسبة للسلع التي تظل في سواكن" [ص ٤٣٥].

يصف "بوركهارد" النشاط التجاري لسكان سواكن بقوله: "ليس لدى سكان سواكن حرفة أخرى غير التجارة إما بحراً أو مع السودان. فهم يصدرون البضائع التي يتسلمونها من قارة إفريقية إلى جميع موانئ الحجاز واليمن جنوباً إلى مخا. ولكن بصفة خاصة إلى جدة والحديدة. ولهم في جدة حى خاص بهم منح لهم، حيث يعيشون في أكواخ مثل التي في القييف (بسواكن). وكثير من الحدرب البدو يقومون عقب زيارتهم لسناح برحلة إلى الساحل العربي. بيد أن الآخرين يبيعون بضائعهم الإفريقية للتجار في سواكن الذين

بواسطتهم تصدر إلى بلاد العرب" [ص ٤٣٩].

أما السلع والمنتجات السودانية التي كان تجار سواكن يصدرونها إلى بلاد العرب فيصفها "بوركهارد" بقوله "إنه إلى جانب السلع التجارية من شندى وسنار وهى الرقيق والذهب والتبغ وريش النعام، لا تترك سفينة تبحر من سواكن إلى أى جزء من ساحل بلاد العرب دون أن يملأ عنبرها بالذرة من التاكا. وهم يمدون تقريبا كل الحجاز بالقرب والحقائب الجلدية وجلود الحيوانات." وجلود البقر تستعمل فى بلاد العرب فى صناعة الضنادل. ولكن أجود أنواع جلود الحيوانات هى التى تأتى إلى الحجاز من مصوع. كذلك تصدر سواكن الزبد إلى جدة. وأثناء موسم الحج يعتمد كل من جدة ومكة اعتمادا أساسيا على سواكن. والزبد يستهلك استهلاكاً عظيماً فى هذه الأماكن، حيث تستعمله جميع الطبقات، وعندما كنت فى جدة ارتفع سعر الزبد بما يعادل نصف سعره المعتاد، لأن سفينتين محمليتين من مصوع باعت حمولتها فى اليمن بدلاً من أن تتقدم إلى جدة. كذلك الحصر المصنوعة من سعف الدوم التى تأخذ منها كل سفينة كمية تستعمل بوجه عام داخل الحجاز واليمن حيث تندر أشجار الدوم، وحيث لا يقبل على العمل اليدوى إلا قليل من الناس بحكم طبيعة حياتهم. وهى تصنع بواسطة البدو فى المرتفعات القريبة من سواكن وأيضا السرمباق الذى يعم بكثرة ساحل إفريقية ويصدر إلى جدة. ويأكله بوجه خاص الأطفال والفقراء، ومن المعروف أنه علاج جيد للدوزنتاريا" [ص ٤٣٩، ٤٤١].

ويضيف قائلاً "والذرة والقرب والحصر تصدر أيضاً إلى الحديدية فى اليمن التى هى سوق رئيسي للخيل التى يحملها تجار سواكن من البلاد الواقعة على النيل. وشريف اليمن شعوف بشراء فحول الخيل الإفريقية لتقوية فروسيته. والحصان الذى يساوى خمسة عشر دولاراً فى شندى يباع فى الحديدية بمائة أو بمائة وخمسين دولاراً. ولكن مخاطر النقل كبيرة [ص ٤٥٧]. فكثير من الخيل تموت فى الطريق لحاجتها إلى العناية اللائقة على ظهر السفن الصغيرة. والهجن البشارية الأصل التى تعتبر من أجود الأنواع توضع على ظهر السفن الكبيرة وتحمل إلى جدة. وإذا وصل الهجين سالماً يباع بسعر يتراوح بين ستين وثمانين دولاراً، أو حوالى ثمانية أضعاف المبلغ الذى يدفع ثمنه له فى سواكن. ولكن نصف الهجن التى تبحر تموت فى الطريق. وأجرة شحن الهجين الواحد تبلغ عشرة دولارات" [ص ٤٤١].

ثم يحدثنا "بوركهارد" عن السلع والبضائع التى كان تجار سواكن بشرائها من جدة لحاجة الأسواق الإفريقية فيقول "إن تجار سواكن يشترون من جدة جميع البضائع الهندية اللازمة للأسواق الإفريقية مع سلع الترف التى تحتاج إليها سواكن. ومنها الملابس وأدوات الزينة للنساء والأدوات المنزلية وأنواع المأكولات المختلفة مثل السكر الهندى وحبوب البن والبصل، وبصفة خاصة التمر الذى لا ينتج فى أى جزء من النوبة الشرقية، ومقدار كبير من الحديد الذى يستورد أيضاً من جدة لعمل الرماح والسكاكين التى تصنع بواسطة الحدادين العاديين وهم الفنيون الوحيدون فى سواكن، باستثناء البنائين والنجارين" [ص ٤٤١].

ملاحق رحلات "بوركهارد" فى النوبة والسودان

الملحق رقم (١)

الممالك الإسلامية والقبائل العربية فى غرب السودان وإقليم بحر الغزال

لقد ضمن "بوركهارد" عدداً من الملاحق. لعل من أهمها بالنسبة للباحث فى تاريخ السودان الملحق رقم (١) الذى تناول فيه بالبحث والدراسة الممالك الإسلامية والقبائل العربية فى بلاد غرب السودان وإقليم بحر الغزال. كذلك الملحق رقم (٢) الذى تناول فيه بالتفصيل أشهر تلك الممالك الإسلامية وهى مملكة برقو، ويطلق عليها أيضاً اسم ودأى، ودار صليح. سنعرض فيما يلى أهم ما احتواه هذان الملحقان بإيجاز.

١- دار كتاكو Dar Katakou

يحدد الرحالة "بوركهارد" موقع دار كتاكو "بين بورنو وإقليم بحر الغزال" ويذكر "أن ملكها يدفع الجزية لملك بورنو Bornou الذى يقيم فى برنى Birney (العاصمة). أما المراكز الرئيسية فيعدها بقوله "إن المراكز الرئيسية التى تشتمل عليها كتاكو والتى لكل منها رئيس هى: منصرة Mandara، ودار مكرى Mckry، ودار أنكالا Dar Ankala، ودار أفادى Dar Afady، ودار كلفى Dar Kolfey" [ص ٤٧٧]. ويحدثنا عن القبائل العربية الأصل التى تعيش فى دار كتاكو قائلاً "إن القبائل البدوية فى كتاكو هى: بنى حسن Beni Hassan، وأولاد أبو خضير Oulad Abou Khedhey، والنجمية El Nedjyme، والفلاتة El Fellate، وبنى سعيد Beni Said، والسلامات Essalamat، والكبار El Kobbar، والعويسية El Aouy Seye، وأم إبراهيم Ibrahim، والعجايفة El Adjayf. وجميع هذه القبائل تدفع الجزية لبورنو. وكلهم يدعى أن أصله من بلاد العرب. وبعضهم يتكلم لغة بورنو، بينما الآخرون كبنى حسن والسلامات وأم إبراهيم يتكلمون اللغة العربية فقط. وأقوى هذه القبائل هم الفلاتة وهم دائماً فى حرب مع بورنو. وفى الأيام الأخيرة يبدو أن نفوذهم امتد إلى الأطراف الشمالية من السودان عند تمبكتو لأنهم على جانب عظيم من القوة. ويلبس رؤساؤهم الملابس الملونة من الأقمشة القطنية أو الحريرة" [ص ٤٧٧].

ويصف "بوركهارد" طبيعة البلاد بقوله "وبين كتاكو وبحر الغزال يجرى نهر عظيم يسمى شارى Shary من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى تجاه باقرمة Bagerme. ولكن منبعه لم يكن معروفاً وهو متسع مثل نهر النيل، وملىء بالأسماك، كما تكثر فيه التماسيح وأفراس النهر، وحيوان يعرف باسم أم كرجى Om Kergay. ويقال أن حجمه كبير مثل الخرثيت ورأسه صغير جداً وكذلك فمه، ولكنه غير مؤذ وضفاف النهر تقطنها القبيلة والخرثيت والأسود والزراف. ويجرى بحر جاد Bahr Djad وهو مجرى متسع يصب فى نهر

٢- إقليم بحر الغزال

يحدثنا الرحالة "بوركهارد" عن طبيعة إقليم بحر الغزال الجغرافية بقوله "إن مجرى بحر الغزال متسع وهو يجرى فى أرض خالية من المرتفعات. ويسمى بحر وأيضاً يعرف بالوادى، لأن الحديث المنقول يقرر أنه فى الأزمنة القديمة كان يجرى خلال هذا الوادى نهر متسع. والأرز ينمو نبرياً فى الإقليم. وتوجد فيه الفيلة بأعداد ضخمة، وكذلك جميع الحيوانات المفترسة السالفة الذكر. ويقطنه البدو خلال موسم المطر فقط وفى الأشهر التى تلى هذا الموسم مباشرة، حيث يقومون يرفعى قطعانهم العظيمة من البقر والإبل والضأن (والأخيرة خالية من الصوف كما هو الحال فى ضأن شندى). ثم يرجعون فى فصل الجفاف نحو حدود كاتاكو وباجرمة ودارصليح" [ص٤٧٨].

ويتناول علاقة سكان إقليم بحر الغزال بجيرانهم من سكان تلك الأقاليم والممالك فيقول "إنهم يشتركون الذرة اللازمة لاستهلاكهم من دارصليح وباقرمة. ومن المكان الأخير يحصلون عليها بالآبقار التى هى العملة السائدة فى جميع المساومات الكبيرة فى الإقليم. والبنت من الرقيق التى على جانب من الجمال تساوى هناك عشر أبقار" [ص٤٧٨]. ويضيف "بوركهارد" أنهم يتزاوجون مع سكان بورنو وباقرمة ودار صليح. ولا توجد تجارة فى بلادهم التى لا تزورها القوافل. ومن المعتاد أن ترى أكوام أنياب الفيل ملقاة على الأرض لا يحملها أحد. وهؤلاء البدو يزورهم فى بعض الأوقات أشرف من الحجاز يأتون إليهم عن طريق سنار ودارفور من أجل جمع صدقات رؤساء القبائل الذين يحترمونهم باعتبار أنهم من سلالة أسرة النبى. ويدفع الرؤساء كل ثلاث أو أربع سنوات الجزية لبورنتو، وتشمل على خيول وإبل ورقيق" [ص٤٧٩].

يحدثنا "بوركهارد" عن أشهر القبائل التى تقطن إقليم بحر الغزال: "إن القبيلة الرئيسية فى إقليم بحر الغزال هى قبيلة بنى حسن. وهم يدعون أنهم من الحجاز، ويؤكدون أن الشريف رشوان هو جددهم الأكبر. وهم ينتمون لبني حسن فى دار كاتاكو. ولا يتكلمون إلا العربية. ولون بشرتهم بنى غامق، وشفاهم غليظة نوعاً ما. ولا يشبهون صفات الزنوج فى شىء غير ذلك. فشعرهم ليس خشناً" [ص٤٧٩]. أما القبائل أو الفروع التى تنقسم إليها قبيلة بنى حسن فيشير إليها الرحالة بوركهارد بقوله "إنهم ينقسمون إلى قبائل دقنة Daghana التى تقطن بجوار كانم، وأولاد محارب Ouled Mehareb، وأولاد سرار Oulad Serar، وأولاد غانم Oulad Ghanem، وأولاد أبو عيسى Oulad Abou Aisa، والعسالة El Aszale. وفى المركز الذى تستغله قبيلة الدقنة يوجد مكان يسمى مزراق Mezrag يجرى فيه بحر مأوه حلو على مسيرة يوم طويلاً ونصف يوم عرضياًسمى وادى حديبة Wady Hodeba وهو دائماً مملوء بالماء. وبدو إقليم بحر الغزال ينتقلون باستمرار". أما عن القبائل الرنجية الوثنية التى تجاور هذه القبائل العربية المتفرعة من

بني حسن، فيشير إليها "بوركهارد" بقوله "إنه على مسيرة ثلاثة أو أربعة أيام منهم جهة الشمال تسكن القبائل الزنجية الوثنية ذات اللغات المتعددة مثل الكريدة Kareyda، والكشريدة Keshreda El، والنورامة ELNourame، والفامالة ElFamallah" [ص ٤٧٩].

ويضيف "بوركهارد" "أن عرب بحر الغزال غالباً يغيرون عليهم ويسلبونهم أطفالهم كرقيق. ولو كان لديهم أسلحة نارية لتمكنوا من إخضاعهم بأكملهم" [ص ٤٧٩]. وهناك قبائل أخرى كانت تجاور القبائل العربية الأصل من المسلمين القاطنين إقليم بحر الغزال يشير إليها أيضاً "بوركهارد" بقوله "وأقرب مكان إلى نهر شارى في إقليم بحر الغزال هو كانم Kanem على مسيرة أربعة أيام وهي مركز متسع تقطنه قبائل التنجر Tendjar وبني وائل Beni Wayl (وعنترة أقوى قبيلة بدوية في بلاد العرب ينحدر أصلها من بني وائل). ولهم لغتهم الخاصة ولا يتكلمون العربية. وبين كانم وشارى تقع دار كاركا Dar Karka التي لا تكون جزءاً من إقليم بحر الغزال ويسكنها بدو كورى Kory الذين يرعون ماشيتهم على ضفاف نهر يعرف باسم بحر الفيض Bahr el Feydh أى النهر الذى فيض ويصب فى نهر شارى. وهم يمتلكون نوعاً من الأبقار الكبيرة الحجم ذات القرون التي يبلغ طولها قدمين" [ص ٤٧٩].

٢- إقليم باقرمه Bagerme

يصف "بوركهارد" موقع إقليم باقرمه بقوله "إنه يقع على مسيرة أربعة أو خمسة أيام من إقليم بحر الغزال". ويضيف إلى ذلك "أن هذا الإقليم قد غزي أخيراً علي يد ملك دار صليح". ثم يقول عن سكان باقرمه: "إنهم جميعاً مسلمون. وصناعاتهم من نسيج القطن تمتد جميع الجزء (الغربي) من السودان بالقماش الذين يصنعون منه قمصانهم. وكل عامين أو ثلاثة أعوام تذهب قوافل الفقهاء من باقرمه إلى أفنو Afnou، وهي رحلة تستغرق من عشرين إلى خمسة وعشرين يوماً لبيع أقمشتهم هناك. ولكنكم يضطرون غالباً إلى العراك مع القبائل الوثنية التي توجد على الطريق".

ويحدثنا "بوركهارد" عن القبائل العربية الأصل التي تعيش في إقليم باقرمه فيقول: إن في باقرمه بدو السلامات Essalamat وأولاد أبو ذوو Oulad Abou Dhou، وفلاتم Fullatem، وأولاد أحمد Oulad Ahmad، وليس أولاد أحمد Oulad Ahmed وأولاد علي الذين يتكلمون العربية (في الصحراء الليبية ما بين القاهرة وسيوة وحتى درنة Derna توجد قبيلة من البدو المغاربة المقتدرين تسمى أولاد علي ينتمى أصلها القبلى إلى أولاد علي. وهم فرع من قبيلة عنزة فى الصحراء العربية). ومن كانم يوجد طريق إلى فترة Fittre على مسيرة ثمانية أيام. وعلى مسيرة ثلاثة أيام من كانم يوجد بدو يعرفون باسم أولاد حميد Oulad Hameid. والسيرفى مركز حميد يستغرق يومين، بعدها يستغرق قطع الطريق إلى فترة ثلاثة أيام. وهناك طريق آخر من فترة إلى مقراج Megrag بالقرب من بحيرة حدة Hadaba يستغرق عشرة أيام. وعرب فترة هم بلالة Belale الذين يقطنون

بالقرب من إقليم بحر الغزال. وجاعتينه Djathene (هناك قبيلة من جاعتينه تعيش في جبال اليمن). والجليات El Heleylat. والخزام El Khozam. والطريق بين فترة وبحر الغزال يقطنه البدو فقط في موسم المطر. والمسافرون الذين يمرون خلال هذا الطريق هم فقط عدد قليل من الحجاج الزنوج الذين يقتفون أثر القبائل المتجولة في حركاتهم البطيئة غير المنتظمة حتى يصلوا إلى دارصليح، حيث يتصلون بقوافل التجار" [ص ٤٧٩].

٤- دارصليح Dar Saleg

يصف "بوركهارد" موقع دار صليح بالنسبة لبلاد فترة Fittre السالفة الذكر "بأنها تقع على مسيرة ثلاثة أيام منها" [ص ٤٨٠]. وعن مكانة دارصليح الدينية والعلمية يقول "إن عرب بنى حسن في إقليم بحر الغزال يولون وجوههم شطر دار صليح عندما يصلون. وملك صليح عبد الكريم صابون يلي ملوك دارفور وبورنو. من حيث أنه أكثر الأمراء قدرة في الجزء (الغربي) من السودان، فقد تمكن من أن يقهر عدداً كبيراً من المقاطعات المجاورة. ويزور مكة سنويا حجاً من دويلاته" [ص ٤٨٠]. ويضيف "بوركهارد" أنه يوجد كثير من المدارس في الإقليم، وأن فقهاء دارصليح مثل فقهاء الأقاليم الأخرى التي إلى الشرق منها يكتبون خط النسخ العربي الشرقي، بينما أولئك الفقهاء الذين في الغرب والشمال يستخدمون على نسق واحد الخط العربي (الغربي) الذي يختلف في كثير من حروفه عن الخط العربي الشرقي. وهو أمر جدير بالملاحظة" [ص ٤٨١].

ويعدد "بوركهارد" قبائل البدو التي تعيش في دار صليح فيقول "إن سكان البدو الذين يقطنون دارصليح هم المحاميد Mehameid، والنوادية Nowadieh، وبنى حلية Beni Hellye، والمسيرية Maisirieh، والفوالة El fawale، (في الجانب الشرقي من النيل بين إسنا وإدفو توجد قبيلة صغيرة من الفلاحين العرب تسمى الفوالة Fawale)، والسلامات، والشرفة Eshorofa، والعزلة Aszale، والحيمات El Heymat، وأولاد راشد Oulad Rashed" [ص ٤٨٠]. ويحدثنا عن استقرار كثير منهم واشتغالهم بالزراعة، وربما كان لخصوبة التربة في هذه البلاد حيث تجود الزراعة أثرها في ذلك، إذ يقول "إن تربة دارصليح تجود فيها الزراعة. ويبذر الحب عقب سقوط الأمطار. والإقليم تنتشر فيه القرى ذات المنازل المصنوعة من الطمي والتي تشبه مساكن شندی. وكثير من البدو الذين مر ذكرهم قد استقروا وأصبحوا مزارعين" [ص ٤٨٠].

وأخيراً يصف "بوركهارد" طرق القوافل والمسافرين التي تربط دارصليح بدارفور بالسودان الغربي بقوله "إنه يوجد طريقان من دارصليح إلى دارفور. الطريق القصير ويسير في بلاد جبلية وصحراء جرداء، وتبدأ الرحلة من أبعد حدود دار صليح إلى دار بنى محمد Dar Benu Mohammed. ولكن المسافرين نادراً ما يستخدمون هذا الطريق لأن اللصوص تهاجمه من كلا الإقليمين. إذ هم يفضلون الطريق الأطول الذي بالرغم من طوله فهو أكثر أمناً. ويمر خلال بلاد تكثر فيها النهرات" [ص ٤٨١]. ويستطرد قائلاً

"هذا هو الطريق الآمن. ولكن بالنظر إلى عدم وجود ماء في هذا المركز (الأخير) فإن المسافرين لا يخترقونه إلا في موسم الأمطار فقط، أو بعد سقوطها مباشرة. وهو مليء بالأشجار التي من بينها أشجار النبق وأشجار العرديب الذي يحمل التمر هندي، وأشجار بابا نوما (أشجار الأبنوس) التي تنتشر هناك. وكذلك نوع آخر من الأشجار يستخرج منها نوع من العسل" [ص ٤٨١]. ويصف "حالة الأمن في ذلك الطريق الذي يربط دارصليح بدارفور بقوله "ونظراً لأن ملوك دارفور ودارصليح في حالة حرب فيما بينهم، فإنهم يعينون حراساً على حدود الصحراء من الجانبين. وهؤلاء الحراس يقومون بتفتيش بضائع التجار. ويصادرون جميع أنواع الأسلحة النارية وكذا الخيل. والمسافر يقاسى كثيراً من سلبهم وعند السفر من دارصليح فإن أول مركز يدخله المسافر عند وصوله إلى إقليم دارفور هو مركز التعايشة Taayshe ومنه يصل إلى كوبة في خمسة أيام. ومن كوبة إلى دار السلطنة أو مقر الملك (السلطان) يوم واحد" [ص ٤٨١].

٥- سلطنة دارفور

يستهل "بوركهارد" حديثه عن سلطنة دارفور بالإشارة إلى قبائل البدو التي تعيش في الإقليم، إذ يقول "إن سكان دارفور البدو هم المحاميد Mehameid، والعريقات Areyheat، والجليدات Jeleydat، والزيادية Zeyadye، وبنى جلة Beni gella، والتعايشة Taayshe، وجهينة Geheync (قبيلة جهينة مازالت مزدهرة في الحجاز. وهم في دارفور بدو مزارعون). وهم يأتون إلى سوق الرقيق بالصمغ العربي والتمر هندي وريش النعام والعاج" [ص ٤٨١]. ويصف طرق القوافل التي تربط دارفور بإقليم كردفان بقوله "من دار السلطنة إلى قرية أكو Ako تستغرق الرحلة أربعة أيام خلال بلاد مسكونة. ومن أكو إلى حدود كردفان تمتد صحراء يستغرق السير فيها ثمانية أيام. ويمر فيها طريقان. أحدهما يسير فيه المسافر رأساً عبر الصحراء، ولكن لا يجد فيه ماء. والطريق الثاني يستغرق قطعه يومين من أكو إلى مكان يسمى أرمن Armen يسكنه العرب، ويوجد فيه الماء. ومن أرمن يجتاز طريقاً لا يوجد فيه ماء مدة سبعة أيام، ولكنه الطريق الخطر بسبب غارات النهب التي يقوم بها عرب البديات Bedeyat. وهم أنفسهم الذين يقطعون الطريق على قوافل دارفور وهي في طريقها إلى مصر. وكلا الطريقين ينتهي إلى حدود كردفان في نقطة واحدة عند قرية تسمى أم زميمة Om Zemeyma، ومنها تسير القوافل خلال بلاد زراعية لمدة ثلاثة أيام إلى الأبيض عاصمة كردفان" [ص ٤٨١].

٦- كردفان

لقد أمدنا الرحالة "بوركهارد" بمعلومات وحقائق هامة عن الأوضاع السياسية في كردفان تتضمن علاقتها بسلطنة دارفور المجاورة لها يقول فيها "إن كردفان تخضع في الوقت الحاضر لحكم دارفور. وملكها الذي يسمى مسلم كان من قبل عبداً لملك (سلطان) دارفور. ويمدح لعدله. ولكن يقال إنه لولا خوفه من سيده في كوبة الذي يحكم

كردفان باسمه لرحب أن يفعل العكس. إنه يقيم في الأبيض، ويحتفظ بحوالي خمسمائة فارس. ويوجد أيضا في الأبيض مك التكارنة الذي يعرف بأنه من مواطني بورنو، وهو تكرورى ويمتد سلطانه على جميع التجار الأجانب الذى يجنى منهم الجزية" [ص ٤٨١].

ويصف الأبيض عاصمة كردفان، فيشير إلى مساكنها ونشاط أهلها من التجار والمزارعين بقوله "إن الأبيض مكان متسع، ولكن لا توجد به إلا منازل قليلة. والجزء الأكبر من سكانها يعيشون فى أكواخ مصنوعة من الشجيرات. وملحق بهذه الأكواخ أفنية محاطة بأسوار. وهم تجار نشطاء، وأيضا فلاحون يقومون بزراعة الأرض. وغلتهم الرئيسية هي الدخن. وتعم زراعة البامية والفلفل الأحمر" [ص ٤٨١].

ويصف "بوركهارد" كردفان بصفة عامة بقوله "إن كردفان عبارة عن واحة كاملة تفصلها عن البلاد المجاورة لها من جميع الجهات الصحارى على امتداد ستة أيام، باستثناء ناحية الشلك فأربعة أيام فقط" [ص ٤٨٣].

وأما عن القبائل البدوية الرئيسية التي تقطن كردفان فيقول "إن بدو كردفان يسمون بقارة ويسمون كذلك لأنهم يربون أعداداً ضخمة من البقر. والقبائل الرئيسية هي مطاية Moteyeye والحمر، والجليدات، وجيرار، والكبابيش، وفزارة الذين يحملون أجود أنواع ريش النعام إلى سوق الأبيض، والزبادية، وبنى فضل، والمعالية وعلى الأطراف الجنوبية الشرقية من كردفان تقطن قبيلة قوية تسمى غيتينة Ghyatene، وهي خاضعة لكردفان، وأفرادها يتكلمون العربية بصفة خاصة. ولكنهم تزاجوا مع سكان الأبيض والقرى المجاورة الذين لغتهم هي لغة دارفور. والجيرار والكبابيش والفزارة يقطنون إلى الشمال والشمال الشرقى. وفى فصل الشتاء يجعلون الطريق إلى دنقلة وشندى خطراً. وبنى فضل والمعالية يقطنون على الطريق من الأبيض إلى الشلك على الطريق إلى سنار، وهم يجلبون أجود أنواع اللبان والبخور. وهم رجال حرب، ويخيفهم رئيس كردفان. وكثير منهم قد أصبحوا من المستقرين والمزارعين. كذلك صار كثير من الجعليين بيد أن هؤلاء يقطنون بصفة خاصة ضفاف النيل" [ص ٤٨٢].

ويصف طريق القوافل من كردفان إلى شندى إذ يقول "إن المسافر من الأبيض يسير لمدة ثلاثة خلال بلاد مسكونة حتى يصل إلى قرية كبيرة تسمى دومة Douma وهى مسكونة كلها بالعرب الجعليين. حيث تجبى الضرائب من القوافل التي تصل من شندى عن طريق موظف يعينه مك كردفان، وتجبى الضرائب بطريقة استبدادية وتبلغ ٥٪ تقريباً. وجميع البضائع تفتش بدقة. وعندما يغادر المسافر أم قناطر يسير فى الصحراء لمدة يوم. وفى اليوم التالى يصل المسافر إلى جبل أبودوبر Abou Dhober الواقع وسط الرمال. ويقطنه النوباويون وقليل من أهالى دنقلة الذين يمتلكون الآبار العميقة التي يبيعون ماءها للقوافل المارة. ومن هناك إلى النيل مقابل شندى تكون صحراء بلا ماء لمدة خمسة أو ستة أيام، ولكن بها وديان تنمو فيها الأشجار ويقطنها البدو وفى موسم المطر" [ص ٤٨٢].

ملحق رقم (٢) مملكة برقو Borgo «الإسلامية» (دارصليح ، وداى)

مملكة برقو من الممالك الإسلامية الهامة التي قامت في بلاد غرب السودان . ويطلق عليها أيضا دارصليح ، وكذلك وداى . ولأهمية هذه المملكة قام الرحالة "بوركهارد" بدراسة مفصلة عنها ، خصها بالملحق رقم (٢) من ملاحق كتاب رحلاته في النوبة والسودان عام ١٨١٣-١٨١٤م . ومملكة برقو من طراز سلطنة دارفور ، فقد حكمها بعض الملوك الأقوياء مثل الملك يوسف ابن عبد الكريم صابون الذى ذاع صيته ، ونجح في ضم بعض الأقاليم المجاورة مثل إقليم باقرمة- السالف الذكر- إلى مملكته . وقد استرق بعض أهلها عند غزوها ، رغم إنهم من المسلمين يدينون بالإسلام مثله ، مما أثار عليه حفيظة الفقهاء فى مملكته وكذلك علماء القسطنطينية . وكان يملك جيشاً قوياً من الفرسان الذين امتازوا بمهارتهم وجودة خيولهم . فضلاً عما كان يمتلكه من البنادق الصغيرة التي أهداها له حاكم (بك) طرابلس وقد كانت تربطه ببلاده وبفيزان بشمال إفريقيا (ليبيا الحالية) علاقات ودية ومصالح تجارية . وكذلك كان الحال مع سلطنة دارفور ، ولكن بدرجة أقل . وفوق ذلك كانت مملكة برقو (دارصليح أو وداى) قريبة بحكم موقعها الجغرافى من مناطق الزنوج الوثنيين الذين يخضعون لنفوذها . وتعد هذه المناطق من المصادر الأصلية للرقيق فى بلاد غرب السودان وإفريقيا . ومن هذا المنطلق كانت مملكة برقو ذاتها من المراكز الرئيسية لتجارة هؤلاء الرقيق . وقد كان بعض رقيق هذه البلاد يصل إلى أسواق القاهرة عن طريق قافلة فزان ، إلى جانب ما كان يأتيها من مراكز تجارته الرئيسية الأخرى فى السودان الشرقى عن طريق قوافل شندى وسنار وبربر ، وأيضا من السودان الغربى عن طريق قافلة دارفور .

يصف "بوركهارد" موقع تلك البلاد وما يطلق عليها من أسماء مختلفة بقوله "إن دارصليح هو الإسم المتداول بين المواطنين أنفسهم . وسكان دارفور وكردفان يطلقون عليها إسم بورقو Borgo . وجيرانهم من برقو وفيزان والتجار المغاربة يسمونها وداى Waday . والأمثلة على اختلاف الأسماء التي تعطى للبلد الواحد ليست قليلة" [ص٤٨٤] . ويصف طبيعة البلاد الجغرافية قائلاً "إنه فيما يلي بورنو ودارفور تعتبر دارصليح (برقو) أهم إقليم فى السودان (الغربى) . ويقال إنها بلاد مسطحة بها قليل من التلال . وفى فصل المطر الذى يستمر عادة شهرين تفيض المياه بكثرة على كثير من الجهات . وتجرى أيضا

أنهار كبيرة وسريعة خلال الإقليم. وبعد أن تستقر المياه تبقى البحيرات العميقة في مختلف الأماكن مملوءة بالماء على مدار السنة كلها. وهذه البحيرات متسعة بحيث تكفي لأن ينعزل فيها فرس البحر والتماسيح التي تتوافر في الإقليم" [ص ٤٨٤]. ويستطرد قائلاً "إن مستر برون Broune (الرحالة) قد أوضح في خريطته عدة أنهار إلى القرب من دارفور. ولكن علمت أنه لم يكن بينها أنهار كبيرة سوى المجارى التي توجد في أثناء سقوط الأمطار. وأهم تلك المجارى أبو تيمام Obou Teymam أو أم تيمام Om Teymam. وبالنظر إلى العادة المنتشرة في السودان، من حيث إطلاق أسماء مختلفة على النهر الواحد فإن هذا المجرى يسمى أيضاً جير Djyr" [ص ٤٨٤].

ويصف "بوركهارد" الحيوانات النهرية والبرية التي تعيش في إقليم برقو بقوله "وفي هذا الإقليم تنتشر بكثرة الفيلة، والخزيت، وفرس البحر، والزراف، وقطعان الجاموس البري كذلك يوجد حيوان آخر في حجم البقرة ذات القرون الكبيرة يسمى أبو عرف Abou Orf. ويصيده الخيالة من أجل لحمه وجلده. وعندما يهاجم هذا الحيوان يخفض رأسه إلى الأرض ثم يندفع بغضب نحو الصياد الذي غالباً ما يقتله (يقتل الصياد) أو يسبب له جروح خطيرة مجرد أن يرفع رأسه. كما يوجد أيضاً حيوان ذو قرون في حجم العجل تقريباً يسمى جلال Djalad. والتيتل الجبلي (ويعرف بنفس الاسم في مصر العليا) يوجد في جبال برقو" [ص ٤٨٤]. ويقول عن أنواع النبات التي تنمو في بلاد برقو: "إن شجرة الحجيلي Hedjily تنمو هناك، وتحمل فاكهة حلوة تشبه كثيراً التمر. وأنواع الخشب التي توجد هناك صلبة وثقيلة. ويكتب الحجاج على الألواح الصغيرة المصنوعة منها صلواتهم وطلاسمهم" [ص ٤٨٤].

يحدثنا الرحالة "بوركارد" عن المقاطعات التي كانت تضمها مملكة برقو (عام ١٨١٣ - ١٨١٤م) بقوله "إن مملكة برقو تنقسم إلى مقاطعات كثيرة أهمها مقاطعة وارا Wara، حيث يقيم السلطان في مكان يسمى بهذا الاسم. وهي مدينة مكشوفة تتكون من منازل مبنية من الطمي وأكواخ مشيدة من فروع الأغصان المقطعة، ومقاطعة سيل Sila، وهي مركز كبير عليها حاكم يلقب نفسه أيضاً ملكاً، ومقاطعة رونجا Runga (وهي معروفة جيداً لدى برون Browne) ومقاطعة دار تاما (وهاتان المقاطعتان لهما لهجة غريبة)، ومقاطعة مودجو Modjo. ومن المحتمل أن تكون نفس المركز الذي يسميه براون باسم موداجو Moddago (صفحة ٤٦٥ طبعة عام ١٧٩٧، ويطلق عليه مستر ستزن Seetzen إسم ميتكو Metko) (انظر الملحق لدائرة المعارف البريطانية - إفريقية) [ص ٤٨٥]. وهناك مقاطعات أخرى لبرقو هي أباسه Abasa ومنكارى Mankary. وهي مقاطعة كبيرة في الإتجاه الجنوبي الغربي، ومقاطعة قمر Gimur (وهي معروفة لبرون باسم قمر Gimer) ومقاطعة جير Djyr وهي المقاطعة التي يأخذ النهر السالف الذكر تسميته منها" [ص ٤٨٥]. ويصف نظام الحكم في تلك المقاطعات التي تضمنتها المملكة بقوله "إن رؤساء المقاطعات في

برقو يستحوزون على منصبهم من سلطان وارا . ويدفعون له ضريبة سنوية . وهم يمتنعون عن إرسالها ويعلنون العصيان كلما وجدوا الفرصة مواتية لذلك" [ص ٤٨٥].

يقول "بوركهارد" "إن سلطان برقو Borgo يوسف بن عبد الكريم صابون الذى توفي فى العام الماضى (١٨١٥) ترجع إليه بصفة خاصة قوة برقو . وقد كان عادلاً ، ولكنه كان حاكماً قاسياً جداً ، لا يظهر أى شفقة لأى حاكم يخرج عن فروض الطاعة . وقد أعدم كثيراً من رعاياه طيلة مدة حكمه الطويلة . ويروى : " كيف نجح السلطان يوسف بن عبد الكريم صابون حاكم مملكة برقو فى ضم إقليم باقرمة إلى سلطنته بقوله "إن حاكم بورنو دعا صابون لمساعدته على إخمد الثورة فى باقرمة (التي كانت تخضع له) ، مظهراً له أن هذه الحرب واجب دينى لأن رئيس باقرمه قد خالف تعاليم الإسلام ، وتزوج أخته ، فأثبت بذلك أنه وثى . فتحرك صابون بجيشه إلى باقرمة وفتح الإقليم كله ، ولكنه احتفظ به لنفسه . ويقال إنه وجد هناك كنزاً كبيراً من الفضة نقله على مائتى بعير . ذلك أنه فى بورنو وباقرمة توجد معادن كثيرة من الفضة . وفى أثناء تلك الحرب أسرت أعداد كبيرة من سكان باقرمة مع نساءهم وأطفالهم كرقيق . ولكن عند وصولهم إلى برقو يبدو أن علماء تلك البلاد الذين يكونون هيئة قوية ، وكذلك علماء القسطنطينية قد أظهروا لصابون إنه بالنظر إلى إنهم مسلمون ليس من العدالة استرقاقهم . ومن ثم استعادوا حريتهم ورجع كثير منهم إلى بلادهم والآخرون ظلوا بناء على رغبتهم فى برقو يكسبون عيشهم عن طريق مهارتهم فى صبغ الأقطان بالصبغة الزرقاء . وهذه الصبغة يحصلون عليها من نبات يشبه النيل . ويقال إنه مفضل على نيلة مصر ، وكلاهما يعرف باسم النيلة" [ص ٤٨٥].

ويواصل "بوركهارد" حديثه عن سلطان برقو فيصف لنا قواته الحربية قائلاً "إن سلطان وارا Wara (مقر السلطان) ، أو الفاشر كما يسمى كذلك (والفاشر تطلق على المكان المكشوف الذى يعقد فيه السلطان مجلسه) لديه بين قواته كثير من الزنوج الذين لا يزال بعضهم وثنياً . وهناك وثنيون آخرون مستقرون أيضاً فى كل مدينة فى برقو تقريباً . ويترك السلطان مقره كل يوم الجمعة (وهو لا يرى إلا فى أيام الأعياد) عقب الصلاة . وهناك عادة متبعة وهى أنه إذا رغب أحد فى الشكوى من ظلم أحد موظفى السلطان ، فعليه أن يجرى فى السهل أشبه بالرجل المجنون ، حتى يشاهده السلطان ، فيرسل إليه من يحضره ليستمع إلى حكايته" [ص ٤٨٥]. ويضيف "أن بين قوات السلطان يوجد قليلون يحملون الأسلحة النارية . والسلطان يمتلك عدة بنادق صغيرة جاءت عن طريق "بك" طرابلس . وقوته الرئيسية تعتمد أساساً على الفرسان ، ويملك الكثيرون منهم دروعاً . وهم فرسان مهرة ، والخيال التى توجد فى هذا الإقليم تعتبر من أجود الأنواع" [ص ٤٨٦].

ويحدثنا "بوركهارد" عن استخدام جنود برقو من الوثنيين ، وكذلك القبائل الوثنية التى تعيش فى هذا الجزء من بلاد غرب السودان ، للسهام المسمومة ، كما يشرح كيفية إعدادهم الترياق اللازم لمداواة الجراح المصابة بها ، فيقول "إن جنود برقو الوثنيين

مسلحون بالسهام المسمومة. وعندما يذهبون إلى الحرب يحملون معهم صندوقاً صغيراً من مسحوق الترياق الذى يقاوم السموم، وهو معروف بين المواطنين. ويحضر من دودة صغيرة تسمى فى برقو كما فى باقرمة باسم كودونجو Kodongo تجفف ثم تحول إلى مسحوق يطلى به الجرح، وبعضه يتناولونه بطريق الفم.

ويتناول "بوركهارد" علاقات مملكة برقو بالشعوب الزنجية الوثنية المجاورة لها قائلاً "إن الشعوب الزنجية الوثنية تقع على مسيرة عشرة أو خمسة عشر يوماً من برقو. وسكان برقو يقومون دائماً بغارات عليهم لجلب الرقيق. وأكثر بلاد هؤلاء الوثنيين شهرة هى دارجلة Dar gulla، وبندا Bend، وجنكة Djenke، ويميم Yemem، وعلا Ola التى هى أكثرها بعداً. وبعض هذه الشعوب الوثنية تدفع الجزية لملك برقو الذى يحتفظ بحق تعيين موظف فى تخومهم، ليتسلم الجزية التى تتكون من النحاس الأحمر والرقيق. وفى مقابل هذه الجزية يؤمنون من جميع الغارات العلنية التى يشنها المسلمون. ولكن رغم ذلك يعانون دائماً من غارات لصوص برقو التى تتم خفية. ثم يصف الدور الذى تلعبه مملكة برقو فى تنشيط تجارة الرقيق فى هذه الجهات بقوله "إن التجار الذين يرغبون فى شراء الرقيق يتقدمون إلى هذه البلاد ويحيطون أنفسهم بموظفى برقو المعينين هناك. ويبعث الحاكم ورؤساء البلاد إلى هؤلاء التجار المحليين بالرقيق بقصد بيعه. وهو الرقيق الذى حصلوا عليه من الحرب (لأن موظفى برقو دائماً يثيرون الحرب بين هذه الشعوب الزنجية)، أو الرقيق الذى حصلوا عليه عن طريق القانون، لأن أقل تعد يعاقب عليه صاحبه بالأسر. كما أن السكان أنفسهم غالباً ما يسرقون أطفال جيرانهم أو يبيعون أطفالهم إذا كانوا أسرة كثيرة العدد" [ص ٤٨٦].

ويضيف "بوركهارد"؛ "إن التجار المحليين يشترون الرقيق فى حضور الموظف مقابل الذرة والدخن والبقر فالشعوب الوثنية تزرع القليل من الحقول. ولكنهم مغمومون جداً بالذرة. وهم يمتلكون أعداداً وفيرة من الضأن والماعز. ولكن قليلاً جداً من البقر. وكيس الذرة الذى هو عبارة عن ربع حمل جمل أو يعادل ١١٢ رطلاً تقريباً يساوى فى قيمته عبداً واحداً. والبقرة تقدر بأربعة من الرقيق. وعند عودة تجار برقو إلى بلادهم يربطون الرقيق الذى اشتروه بسلسلة طويلة من الحديد تلف حول رقبة كل واحد منهم. ويصبح من عشرين إلى ثلاثين من هؤلاء الرقيق مربوطين واحداً وراء الآخر. ولا تنزع السلسلة الطويلة إلا حين وصولهم إلى برقو" [ص ٤٨٧]. ويستطرد قائلاً؛ "إن مقاطعات مملكة برقو مليئة بالرقيق. ولا يخلو أى منزل فى المملكة من بعضهم. ويقال إنهم مجدودون جداً. وهذا يعزى إلى تغيير عقيدتهم، إذ أن معظمهم يعتنق الإسلام مجرد وصوله إلى برقو. وهم يقومون بصناعة النحاس والأواني الفخارية، والرءوس العليا للغليون. كما يشتغلون بصناعة الجلود. ومناطق الوثنيين جبلية. ويجرى خلالها عدة أنهار كبيرة جداً لا تجف أبداً. وتنمو هناك أشجار جوز الهند. كما يتوفر فيها النحاس" [ص ٤٨٧].

يقول "بوركهارد" "إن تجار فزان يذهبون في قوافل إلى برقو التي يسمونها ودأي. بيد أن القوافل لاتسير بانتظام. وهناك أيضا حجاج من برقو يرحلون إلى القاهرة عن طريق فزان وطرابلس. وإنه على الرغم من أن تجار فزان يعبرون في بعض الأوقات هذه الصحراء، إلا أن تجارتهم بين فزان وبرقو تقع بصفة خاصة في أيدي بدو تيبو Tibbou الذين يحتلون الأرض القفر التي تتوسط هذا الطريق" [ص ٤٨٧]. ويستطرد قائلاً: "إن هورنيمان Hornemann لا يذكر القوافل على الرغم من أنه يتكلم عن إقليم ودأي (ص ١٣٤) ويشير إلي أنه قابل رجلا من أسيوط كان قد جاء إلى فزان عن طريق دارفور وبرقو وباقرمة [ص ٤٨٧]. ويضيف قائلاً "إن مخبري قد أعطاني وصف الطريق من برقو إلى فزان الذي يبدو علي جانب من الأهمية. ويبدو فيه موقع بورنو Bornou، كما هو مبين في الخريطة الأخيرة إذ يقع بعيداً جداً إلى الغرب [ص ٤٨٦، ٤٨٩]."

ويصف "بوركهارد" الطريق من برقو إلى فزان: "ومن برقو تسيير القافلة مدة خمسة أيام فوق صحراء رملية مسطحة إلى بئر مرمر Marmar، ومنها تسيير القافلة في رحلة لمدة ثلاثة أيام على نفس السهل الرملى إلى أبودوم Abou doum، حيث ينمو قليل من أشجار النخيل. ومنها تسيير القافلة يومين عبر تلال منخفضة إلى بئر حجارة Bir Haadjara ذات المياه العذبة، ومن هناك تسيير القافلة في رحلة لمدة أربعة أيام فوق صحراء مسطحة إلى مكان يسمى بحر Bahr، وهو أرض منخفضة إذا حفر المسافرون حفراً في الرمل يجدون ماءً وفيراً جداً. ويسمى بحر لأنه في موسم المطر تفيض الأرض ومن هناك تستغرق الرحلة مدة ثلاثة أيام إلى بئر دركى Dirky عند مدخل جبال دركى. ودركى إسم قبيلة قوية في تيبو Tebbou تقطن هذه الجبال، ولكن موطنها الأصلي يقع على مسيرة عدة أيام غرب هذا الطريق ومن هناك تكون البلاد تقريباً بدون جبال تعترضها. وفي وديان جبال دركى ينمو قليل من أشجار النخيل والدوم. والطرفا أو التمر هندي ينتشر بكثرة، ويقدم غذاء لإبل القافلة. ومن دركى تسيير القافلة مدة يومين إلى بئر في الجبل تسمى بئر أخبيش Akayebesh. ومنها في رحلة لمدة خمسة أيام في طريق معظمها جبلى إلى بئر ووك Woyk، ومنها لمدة ثلاثة أيام إلى بئر صرفاية Serfaya. وأربعة أيام أخرى إلى جبال تسمى حجار السود Hedjares Soud أو الصخور السوداء. وسميت كذلك لونها الأسود. وهى جزء من السلسلة الجبلية السالفة الذكر. وعند مدخلها تقع بئر تسمى بئر الأسود، حيث تقف القوافل. ومن هناك يخترق المسافر تلالاً ويصل بعد مسيرة خمسة أيام إلى بئر، حيث تنمو هناك بعض أشجار النخيل. ومنها رحلة لمدة سبعة أيام إلى بوية El Boeyra وهى بئر صغيرة وتسمى أيضا أبو Abo [ص ٤٨٨]. وتنتهى الجبال عند هذه البئر. ثم ينحدر الطريق مرة أخرى في سهل مستو. وبئر بوية أو أبو تدخل في نطاق إقليم تبرز Tibertz. حيث تقيم أقوى قبيلة من تيبو في مركز كبير يعرف بهذا الإسم. ومن هناك يسير الطريق في سهل وتستغرق الرحلة فيه ستة أيام حتى قطرون، وهى أول قرية داخل

حدود فزان وتسمى أيضا حلة المرابطين ، أو قرية العلماء . وتمر القافلة بمراكز زراعية ، ومنها إلى مرزوق التي تقع على مسيرة يومين أو ثلاثة أيام" [ص ٤٨٧ ، ٤٨٨] . ويختم وصفه لطريق القوافل من برقو إلى فزان قائلاً "وفى الجملة فإن الرحلة من برقو إلى مرزوق تستغرق ٥٢ يوماً . ولكن بالنظر إلى أن السير بطيء ، كما أن القوافل تستريح عادة مدة كبيرة عند الآبار فإن الرحلة تستغرق عادة ستين أو سبعين يوماً" [ص ٤٨٨] . ويعلق "بوركهارد" على طبيعة هذا الطريق محددًا الأقاليم الهامة التي تقع عليه بقوله "إنه على هذا الطريق تقع باقرمة وبحر الغزال وبورنو غرب الطريق . ولقد تأكدت أن اتجاه بورنو يقع إلى الغرب أكثر من اتجاهها إلى شمال باقرمة . وهذا يتفق مع ماسمعه هورنيمان Hornemann في فزان . أى أن بورنو تقع جنوب فزان . وعلى الطريق الذى وصفناه لا يوجد نهر أو بحيرة ، ماعدا مانلاظه فى موسم سقوط الأمطار (من المحتمل أن النهر الذى فى بورنو ينبع من الجبال السالفة الذكر) والماء الذى يوجد فى الآبار عذب فى كل مكان . وكثير منها عميق جداً ، ومغلقة بالحجر . ويقال إن ذلك من عمل الجان أو العفاريت . وفى الشتاء تتجمع مياه الأمطار على شكل سيول جارفة أو برك" . ولكي يدلل "بوركهارد" على مدى الأرباح التى يمكن لتجار فزان أن يجنوها من إيراد رحلتهم التجارية إلى برقو (وداى) عقد مقارنة بين أسعار بعض السلع فى كل من برقو وفزان ، إذ يقول "يبدو أن الأسعار الجارية للسلع المتعلقة بتجارة الرقيق تحمل نفس النسب فى قيمتها فى وداى (باقرمة) وسنار ، إذا ما قورنت بأسعارها فى فزان ومصر العليا . فالجمل الذى يبلغ ثمنه فى وداى (برقو) سبعة أو ثمانية دولارات يباع فى فزان بسعر يتراوح بين ٢٥ ، ٣٥ دولاراً . والولد الرقيق فى فزان يساوى من ٤٠ إلى ٥٠ دولاراً ، بينما فى وداى (برقو) يساوى من ١٠ إلى ١٢ دولار" [ص ٤٨٩] . ولقد كان بعض الرقيق الذى اشتهرت مملكة برقو بتجارته يجد طريقه إلى مصر إما عن طريق عرب عقيلة Augila أو عن طريق تجار فزان . وهو ما يكشف عنه حديث "بوركهارد" الذى يوضح فى الوقت نفسه وجود منافسة بين عرب عقيلة وتجار فزان فى الحصول على الرقيق من برقو ، إذ يقول "إنه فى صيف عام ١٨١٦ وصلت قافلة إلى القارة من عرب عقيله تحمل ما يزيد على ٣٠٠ من الرقيق الذين أخذوا من وداى (برقو) . فعندما وجد عرب عقيلة أن تجار فزان حاولوا فى بعض الأوقات الاتصال مباشرة ببلاد برقو ، فكروا هم بدورهم فى إيجاد طريق من عقيلة إلى برقو . وفى عام ١٨١١ قاموا لأول مرة بهذه الرحلة ، ووصلوا إلى برقو ، ولكن عند رجوعهم لم يكن معهم أدلاء فضلوا الطريق ، ومات عدد كبير منهم عطشاً . وكذلك مات جزء كبير من الرقيق الذين كانوا برقتهم . وفى عام ١٨١٣ قاموا بمحاولة أخرى لم يقدر لها النجاح مثل سابقتها ، إذ أن كثيراً منهم قد قضى نحبه فى الصحراء قبل أن يصلوا إلى وداى (برقو) . والذين وصلوا هناك كان عليهم أن يرجعوا عن طريق فزان . ولكنهم كانوا يخشون غدر تجار فزان . وعندما اضطروا إلى السير فى هذا الطريق المهلك ، فإن القليل منهم رجعوا إلى

عقيلة . ورغم ذلك، فإن عزيمة تجار الرقيق كانت أقوى من أن يدب اليأس في نفوسهم . ففي عام ١٨١٤ وصلت جماعة من عرب عقيلة مرة أخرى من نفس الطريق إلى وداى (برقو)، ونجحت في أن تحتفظ طريقها راجعة إلى مدينتها (عقيلة) . وقد كانت الأرباح التي حصلوا عليها من بيع الرقيق الذي جاءوا به من برقو كفيلاً بأن تنسيهم الصعاب التي واجهوها في رحلتهم التجارية إليها . وسوف تستمر دون شك تلك التجارة [ص ٤٨٩] . ويختتم "بوركهارد" حديثه عن العلاقات بين مملكة برقو وكل من طرابلس وفزان بشمال إفريقية (ليبيا حالياً) بقوله وإن "بك" طرابلس وكذلك رئيس فزان يتبادلان الهدايا مع سلطان برقو" [ص ٤٨٩] .

مصادر البحث

أولاً- المصدر الأصلي

- Burchardt, J. L. Travels in Nubia, London, 1819.

ثانياً- المصادر الثانوية

- ترجمة الخطاب رقم ٨٥ بتاريخ ١١ شوال سنة ١٢٥٩هـ - دفتر رقم ٨ عابدين من الجنب العالى إلى الباب العالى (وثيقة غير منشورة من قسم المحفوظات التاريخية بقصر عابدين) - دار الوثائق القومية - القاهرة .

- نسيم مقار (دكتور): أحوال السودان الاقتصادية تحت الإدارة المصرية فى الفترة من ١٨٢١ - ١٨٤٨م، (رسالة دكتوراة غير مطبوعة - القاهرة سنة ١٩٥٩م)

- Budge, A.E.W. The Egyptian Sudan. Its History and Monuments. (2

Vols.), London, 1907.

الفصل الرابع

الرحالة وادنجتون "Waddington"

ظروف رحلته إلى السودان ودوافعها الرئيسية (عام ١٨٢٠-١٨٢١):

"جورج وادنجتون" George Waddington رحالة إنجليزي أغرم بالسياحة وقد زار بلاد أوروبا والشرق. واشتهر كرحالة إلى جانب شهرته كمؤرخ للكنيسة. وقد كان زميل كلية ترنتي بكمبردج Fellow of Trinity, Cambridge. كما تولى منصب أسقف مدينة دورهام Durham. ثم أختير محافظاً لجامعتها. (١)

أما عن زيارته للسودان فلم تكن متعمدة. فقد عزم على القيام برحلة إلى بلاد اليونان وآسيا الصغرى. وفي طريقه إلى اليونان مر بالبندقية (يناير ١٨٢٠). وهناك التقى بصديقه "برنارد هنبرى" Hanbry الذى وجده يستعد للقيام برحلة إلى مصر والنوبة لمشاهدة معالمها الأثرية، ويجدوه الأمل فى أن يتقدم جنوباً حتى دنقلة. وقد ألح "هنبرى" على "وادنجتون" فى أن يرافقه فى هذه الرحلة. وأخيراً وقع "وادنجتون" تحت تأثير وإقناع صديقه. وبعد أن أمضى "وادنجتون" و"هنبرى" الربيع ومعظم الصيف فى بلاد اليونان أبحرا إلى الأسكندرية، فوصلاها فى منتصف أغسطس عام ١٨٢٠. وهناك تأكد لهما ما سبق أن ترامى إلى مسامعهما من أن حملة بقيادة إسماعيل بن محمد على والى مصر قد غادرت القاهرة فى طريقها إلى الجنوب لضم البلاد الواقعة فيما وراء الشلال الثانى إلى إدارته. وقد وجدا فى هذه الحملة فرصة سانحة لتحقيق رغبتهما فى زيارة هذه البلاد، الأمر الذى كان من المحتمل ألا يتحقق لهما بنجاح تام لو لم تتح لهما هذه الفرصة. ومن ثم قررا مرافقة الحملة، وعرضا هذه الرغبة على الوالى الذى لم يبد تشجيعاً كبيراً لهما، إلا أنه على الأقل لم يعترض عليها [ص ٣، ٤].

وقد قدمهما إلى والى مصر القنصل الإنجليزى فى ذلك الوقت مستر "بيتر لى" Mr. Peter Lec الذى كان بحكم طبيعة عمله لا يمانع فى مد يد المعونة والمساعدة للمسافرين من بنى جنسه. وهناك إنجليزى آخر أبدى أيضاً عطفاً ملحوظاً على مشروع "وادنجتون" و"هنبرى" لزيارة بلاد النوبة، وشجعهما كثيراً على تنفيذه، وقدم لهما المعونة فى سبيل إنجاحه، يدعى مستر "براين" Brine. فعندما وجد هذا الإنجليزى أنه لا يرافقهما أحد من الأتراك، كما وأنهما لا يحملان أى خطاب توصية لأحد من ضباط الحملة، سعى إلى أن يمدهما بخطاب توصية من عابدين كاشف الرجل الثانى فى الحملة بعد إسماعيل. وقد

(1) Richard Hill; A Biog.. Dicti. of the Anglo - Egyptian Sudan. p. 375 & George Waddington: Journal of visit to some parts of Ethiopia. p. I.

كان "براين" جاراً وصديقاً لعابدين وقت أن كان الأخير حاكماً على إقليم المنيا في صعيد مصر. ويعبر "وادنجتون" عن أهمية هذا الخطاب في تحقيق رغبته في هذه الرحلة بقوله "إنه بدونها كان سيصبح لحاقنا بالجيش أمراً عسيراً، ووصولنا إلى بلاد النوبة كان من المحتمل ألا يتحقق". ويضيف "وادنجتون" إلى ذلك "أن هذا العمل يعد من الخدمات الجليلة التي ندين بها لهذا الرجل الإنسان ذي النفس الكريمة." [ص ٤].

وفي ١٠ نوفمبر عام ١٨٢٠ وصل "وادنجتون" ورفيقه "هنبري" إلى وادي حلفا، ومنها إلى بطن الحجر في ١٢ نوفمبر. وفي ١٣ نوفمبر وصلا إلى دار السكوت، ومنها إلى دار المحص في ١٨ نوفمبر. وفي ٢٢ نوفمبر وصلا إلى دنقلة. ومنها تابعا سيرهما إلى دار الشايقية التي وصلها في ٧ ديسمبر (عام ١٨٢٠). وبعد الوصول إلى دار الشايقية رغبا في مواصلة تقدمهما جنوباً إلى سنار برفقة الحملة، ولكن رغبتهما لم تجد قبولاً لدى قائدها إسماعيل الذي كان لا يشعر بالارتياح التام لوجودهما مع جيشه في تلك الأثناء. وسرعان ما طلب إليهما مغادرة البلاد دون إبطاء بحجة الحرص على سلامتهما وأمنهما مما قد يصيبهما من صعاب ومخاطر [ص ١٠٥]. وعبثاً حاول "وادنجتون" أن يؤثر على إسماعيل لكي يعدل عن قراره السالف الذكر [ص ١٤٨ - ١٥٤].

وقد علل "وادنجتون" عدم ارتياح إسماعيل قائد الحملة إليه وإلى زميله "هنبري" وبالتالي إصراره على مغادرتهما البلاد دون أن يتيح لهما فرصة مواصلة تقدمهما جنوباً إلى سنار برفقة جيشه بقوله "إنه كان طبيعياً أن يرغب الباشا في أن يريح نفسه من جماعة من الناس ليسوا في خدمته، ولا يمكن أن يكونوا مفيدين له بطريقة من الطرق، حتى ولو كانوا من بعض الوجوه والاعتبارات مستقلين عنه. وبالإضافة إلى ذلك فهم مسيحيون لأن إسماعيل كان بعيداً عن الأخذ بأراء والده المتحررة في هذا الشأن. وفوق هذا وذاك فإنه يحتمل أنهما تحت حماية إنجلترا. وقد تخيل أننا سنصبح في هذه الحالة جواسيس على مقاصده. فهل كان إذن من الحكمة أن يحملنا معه على طول الطريق؟" [ص ١٥٤].

ومهما يكن من الأسباب التي جعلت إسماعيل قائد الحملة لا يشعر بالارتياح نحو الرحالة "وادنجتون" وزميله "هنبري" ويتخذ قراره الحاسم بمغادرتهما البلاد، فإن مما لا شك فيه أن هذا القرار كان له أثره الخطير في أن تنتهي رحلتها في السودان عند دار الشايقية، في حين أتاحت لغيرهما من الأجانب الذين كانوا برفقة إسماعيل فرصة التقدم جنوباً مع جيشه إلى سنار بل إلى ما ورائها. على أن «وادنجتون» لا ينكر في الوقت نفسه الخدمات التي أداها له ولزميله «هنبري» بعض كبار المسؤولين في الحملة، وبخاصة عابدين كاشف نائب إسماعيل. ومن هذه الخدمات مدهما بجميع لوازم الرحلة، ووضع الحراسة الكافية لسلامتهما طيلة مدة سياحتهما في هذه البلاد.

ولقد سجل «وادنجتون» و «هنبري» مشاهدتهما ودراساتهما المختلفة في هذه

الأقاليم فى كتاب نشر فى لندن عام ١٨٢٢ تحت عنوان : "Journal of a Visit to Some Parts of Ethiopia" ، وكان تأليف هذا الكتاب من نصيب «وادنجتون» الذى يشير فى مقدمته إلى «أن كلا منهما كان يحتفظ بجورنال يسجل فيه أخبار الرحلة، وأنهما تبادلوا الرأى سوياً فى تصنيف الكتاب. وأنه كان من نصيبه القيام بمهمة تأليفه». ويختتم «وادنجتون» حديثه هذا بقوله «وإنى لأشعر الآن بأن هذا العمل أبعد من أن يكون تمييزاً خاصاً لشخصى طمعت فى الحصول عليه [ص٣٦].

تبرز أهمية الرحلة انها تمت أثناء تقدم حملة إسماعيل فى هذه البلاد ، لذلك تعد بحق المصادر الأولية التى لا غنى للباحث فى تاريخ الحملة عنها. كذلك تبرز أهمية الرحلة إهتمام وادنجتون بدراسة قيام دولة المماليك فى دنقلة التى أمدنا بكثير من الحقائق والأخبار الهامة عنها. هذا بالإضافة إلى الموضوعات التاريخية الأخرى الهامة مثل الأوضاع السياسية السائدة فى بعض أقاليمه قبل مجئ حملة إسماعيل إليها ، وما كانت عليه علاقات الحكام بعضهم ببعض فى هذه الفترة. دراسة بعض نواحي الحياة الاجتماعية فى بعض المجتمعات فى السودان الشمالى مثل المجتمع الدنقلاوى والمجتمع الشايقى ، كالعادات والتقاليد السائدة فى هذه المجتمعات ، والآداب والفنون الشعبية التى اشتهرت بها ، ومركز المرأة ، والمكانة التى حظى بها رجال الدين والفقهاء فى المجتمع ، وغير ذلك من الدراسات الاجتماعية. وفوق ذلك كله النجاح الذى حققه «وادنجتون» وزميله «هنبرى» فى أعمال البحث والتنقيب عن الآثار القديمة فى بعض جهات النوبة ، إلى الحد الذى يذهب معه «بدج Budge» أحد المهتمين بدراسة الآثار القديمة فى السودان إلى القول "بأن دراسة الآثار السودانية القديمة قد بدأت بإخراج «وادنجتون» و «هنبرى» كتاب رحلتها فى السودان [ص٢٨ ، بدج]. فقد كان «وادنجتون» و «هنبرى» أول من نشر دراسة مفصلة عن آثار جبل البركل. كذلك يرجع إليهما الفضل - كما يؤكد «بدج» نفسه- فى القيام بأول محاولة علمية لوصف وتحقيق الآثار المصرية القديمة فى بلاد النوبة.

على أن المعلومات والأخبار التى أمدنا بها الرحالة «وادنجتون» عن مشاهداته ودراساته التى قام بها فى أقاليم النوبة التى قدر له ولزميله «هنبرى» زيارتها قد جاءت مبشرة فى أماكن متفرقة من كتاب رحلتها ، وتحتاج إلى نوع من التنظيم والتبويب على النحو الذى ييسر للباحث أو الدارس مهمة الاستفادة منها. كذلك فإن إجلاء الحقيقة قد تطلب أحياناً مناقشة أقوال هذين الرحالتين الإنجليزيتين فى بعض ما تناولاه من الموضوعات على ضوء ما تتضمنه الوثائق الرسمية من ذلك العهد التى كانت محفوظة بدار الوثائق التاريخية القومية (قصر عابدين) ، أو بمقارنتها بأقوال غيرهما من الرحالة الذين أتاحت لهم فرصة زيارة هذه البلاد فى ذلك الوقت بالذات وبرفقة الحملة ذاتها ، ممن كانوا أسعد حظاً منهما فى التمتع بعطف ورعاية قائد الحملة ، ومنهم الرحالة إنجلش English الأمريكى .

أولاً: مشاهدات « وادنجتون » ودراساته في إقليم دنقلة (عام ١٨٢٠م)

جاء الرحالة « وادنجتون » وزميله « هنبري » إلى إقليم دنقلة في ٢٢ نوفمبر عام ١٨٢٠م وقد استغرقت زيارتهما لهذا الإقليم زهاء أسبوعين تجولا خلالهما بين ربوعه ومعالمه المختلفة، إذ زارا جزيرة أرقو أكبر جزر هذا الإقليم، كما زارا مدنه الرئيسية ومناطقه الأثرية. وقد قام « وادنجتون » في أثناء هذه الزيارة بدراسة بيئة الإقليم الطبيعية بعامة، وجزيرة أرقو بخاصة. وتحدث عن مدى استغلالها في الزراعة، وأشار إلى مميزات الإقليم المناخية والنباتية والحيوانية، وبخاصة الخيول التي اشتهر الدناقلة بتربيتها. وقد عرض « وادنجتون » لأقوال الرحالة وأرائهم في خصائص الخيول الدنقلوية ومميزاتها. كما وصف المدن الرئيسية في الإقليم، وتناول بصفة خاصة مدينة "دنقلة العجوز" والأطوار التي مرت بها في العصور التاريخية المختلفة من واقع مشاهدات الرحالة الذين قدر لهم زيارتها خلال تلك العصور. كذلك عنى « وادنجتون » بوصف مدينة «مراغة-دنقلا العرضي» التي أنشأها المماليك الذين فروا من مصر عقب مذبحة القلعة لتكون مقر حكومتهم التي أقاموها في هذا الإقليم بعد أن حلوا به.

ولم تقتصر مشاهدات « وادنجتون » ودراساته في إقليم دنقلة على بيئة الإقليم الطبيعية أو مدنه الرئيسية فحسب، وإنما تضمنت أيضاً المجتمع الدنقلوي ذاته والحياة الروحية لأهل دنقلة، والاهتمام بالتعليم الديني في هذا الإقليم. فقد أشار إلى ظاهرة انتشار أماكن تعليم القرآن الكريم في أجزاء الإقليم المختلفة، وإلى ما يقوم به الوعاظ المتجولون من الكبايش بصفة خاصة في هذا السبيل. كما أشار إلى وجود مدارس يتعلم فيها الأطفال مبادئ القراءة والكتابة، إلى جانب حفظ القرآن الكريم^(١). وقد حدثنا عن السادة (شيوخ الإسلام) الذين يقومون بوظيفة التعليم، وما يتمتع به هؤلاء من مكانة سامية في المجتمع. كما حدثنا عن أساليب تعليم الأطفال وطرق تأديبهم، وأنواع الأخطاء التي كانوا يعاقبون عادة من أجلها. وقد حدثنا عن الأضرحة التي تقام لمن اشتهر من الفقهاء وشيوخ الإسلام بالصلاح والتقوى في حياته الدنيا، لتضم رفاتهم الطاهرة حيث يتبارك الناس بزيارتها، وينعمون بالأمن والسلام في ظلها عندما تتهددهم بادرة خطر. وقد أشاد بصفة عامة بما يتحلى به هؤلاء الشيوخ والفقهاء في دنقلة من الخصال والصفات الحميدة التي زادت من تعلق المواطنين بهم وتقديرهم لهم.

(١) ويقصد بها الخلاوي (جمع خلوة) وقد كانت إلي جانب المساجد والجوامع والزوايا من أهم أماكن العلم في ذلك الحين

وعني وادنجتون بدراسة آدابهم وفنونهم الشعبية فقد تناول الحديث عن طائفة المداحين والمنشدين والشعراء المتجولين . وعرض لبعض أرجالهم ومواويلهم الشعبية التي استمع إليها في المناسبات المختلفة. وقد تناولها بالنقد والتحليل بعد أن ترجمت له في حينها إلى اللغة الإنجليزية. وقد سره بعضها، وعبر عن إعجابه وتقديره لقائلها. كما وصف لنا أنواع الغناء والرقص الشعبي الذي شاهده في الحفلات الشعبية العامة، وفي بعض الحفلات الخاصة التي دعاه إليها بعض الشخصيات البارزة في الإقليم. كذلك تناول « وادنجتون » مركز المرأة في المجتمع الدنقلاوي، إذ أشار إلى ما تتمتع به من حقوق شرعية كحقوقها في الميراث، وإلى ما تتحلى به من الصفات الطيبة التي أكسبتها احترام المجتمع وتقديره لها.

وفضلاً عن ذلك عرض « وادنجتون » في مواضع متفرقة من كتاب رحلته لبعض العادات والتقاليد السائدة بين أهل دنقلة، كتلك التي تتعلق بأنواع الطعام والشراب التي يقبلون على تناولها، ومنها عادة شرب العرقي والمريسة المنتشرة بينهم. كما أشار إلى معتقداتهم في السحر والشعوذة. كذلك أشار إلى طبائعهم وأخلاقهم، والصفات والخصال التي تميزهم عن غيرهم. ومن الموضوعات الاجتماعية الأخرى الهامة التي عالجهما الرحالة « وادنجتون » موضوع الجريمة والعقاب في المجتمع الدنقلاوي، إذ أشار إلى أنواع الجرائم التي يعاقب عليها عادة المجتمع، وإلى العقوبات التي تفرض على مرتكبيها وغير ذلك من أنظمة الحكم التي تبدو متأثرة بتعاليم الإسلام.

لفت نظر « وادنجتون ». أثناء زيارته لبعض أقاليم النوبة نزعة سكان هذه الأقاليم الدينية وتمسكهم بعقيدتهم الإسلامية التي تجلت له في صور ومظاهر دينية مختلفة عبر عنها - كما سبق أن أوضحنا- في حديثه عن معالم المجتمع الدنقلاوي. ومنها انتشار الخلاوي وأماكن تحفيظ القرآن الكريم، والمكانة السامية التي تمتع بها الفقهاء والمشايخ في نفوس الناس وإقامة الأضرحة للصلحين من أولياء الله. وهي ظاهرة اجتماعية عني « وادنجتون » بدراستها وإبرازها في كتاب رحلته. وربما كان لاشتغال « وادنجتون » بالشئون الدينية في إحدى مراحل حياته، إذ عمل - كما قدمنا- أسقفاً لمدينة درهام Durham بانجلترا قبل أن يشتهر كرحالة، أثره في اهتمامه بهذا الجانب الديني الهام في حياة المجتمعات النوبية التي قدر له زيارتها.

بيد أن المتتبع لمشاهدات هذا الرحالة في بلاد النوبة يلاحظ أن اهتمامه بدراسة النزعة الدينية في المجتمعات النوبية لم تقتصر على إبراز تلك الصور والمظاهر الدينية الدالة على تمسك سكان هذه البلاد بعقيدتهم الإسلامية، وإنما قد أمدتنا ببعض المعلومات والحقائق عن أنظمة الحكم هناك وقد حاول من خلالها أن يلقى الضوء على مدى تأثير هؤلاء الناس بتعاليم القرآن الكريم في نظم حكمهم، إذ يقول « إن الأمراء الصغار الذين يحملون لقب شيخ أو كاشف أو ملك، يبدو أنهم لم يكونوا ظالمين كلية.

فقد كانوا يعتبرون أنفسهم حكماً بإرادة الله ليحكموا الناس بعدالة القرآن . وهو القانون الوحيد كما هو التعليم الوحيد للمسلمين . وفيما يختص بجرائم القتل فإن الملك قد يعاقب بالموت . أما في حالة السرقة فليس إلا أن يضرب الجاني بالنبوت . ولا يوجد تدرج في العقاب . كما لا يسمع عن عقوبات بتر أعضاء الجسم أو الكي بالنار ، أو الإخلاء . كذلك لا يوجد عقاب وسط بين النبوت والموت [ص ٢٥٢] . ويستطرد قائلاً « أما القوانين الخاصة بحماية ممتلكات الرعية فتبدو أنها غير محددة أو واضحة ، أما فيما يتعلق بقوانين حماية السكان فلا يوجد شيء من هذا القبيل . ولولا الاحتماء باسم محمد على لما كان هناك أمل في تجول الأجانب في هذه البلاد في أمن وسلام [ص ٢٤٠] .

أما عن اهتمام الرحالة « وادنجتون » وزميله « هنبري » بالتنقيب عن الآثار القديمة في إقليم دنقلة ، فقد كان واضحاً ، وبخاصة في جزيرة أرقو . والحقيقة أن هذين الرجلين قد بذلا كل ما في وسعهما ، ولم يدخرا وسعاً من أجل تحقيق الهدف العلمي ، على الرغم من الصعوبات والعراقيل التي اعترضت طريقهما في هذا الشأن . ومنها ما يرجع - على حد قوله - إلى إحجام المواطنين وإعراضهم عن مساعدتهما في أعمال الحفر والتنقيب عن الآثار القديمة . يضاف إلى ذلك أن عابدين كاشف الرجل الثاني في حملة إسماعيل لم يكن يؤيد أثناء وجوده في دنقلة قيام هذين الإنجليزيين بمثل هذه الأعمال . ومع ذلك فقد نجح الرجلان في الكشف عن بعض المعابد والتماثيل في جزيرة أرقو [ص ٢٢٩ ، ٢٤٠] . ولقد كان للملك طمبل ملك أرقو الذي نجح « وادنجتون » في كسب صداقته أثر كبير في نجاح هذه المهمة العلمية ، إذ بعث إليهما بعدد من حراسه المسلحين بالسيوف والبنادق ليكونوا برفقتهما . ويؤكد الرحالة « وادنجتون » " أنه لم يكن في الإمكان مواصلة البحث والتنقيب عن الآثار القديمة في المنطقة دون مساعدة هؤلاء الرجال ، إذ أنه من الصعوبة بمكان أن تحمل سكان هذه الجهات على القيام بهذه الخدمة . وقد رفضوا رفضاً باتاً أن يتحركوا حتى تدفئ الشمس الدنيا (على حد تعبيرهم) . فقد أمكن بطريق إثارة الفزع في نفوسهم حمل سبعة رجال منهم على أكثر تقدير على العمل لمدة ست أو سبع ساعات . ومع ذلك لم يكن عملهم غير مثمر تماماً ، فقد كشفوا عن رأس تمثال الخرتيت الأسود الجالس ، وكذلك أساس الحائط السميك " [ص ٢٥٢] .

الاهتمام بقصة المماليك في دنقلة :

ومن الموضوعات التاريخية الهامة التي عني « وادنجتون » بدراستها في أثناء زيارته لإقليم دنقلة قصة المماليك الذين أقاموا لهم ملكاً في هذا الإقليم عقب فرارهم إلى السودان بعد مذبحه القلعة . وقد مكنته علاقاته الشخصية مع بعض ملوك النوبة وزعمائها ممن عاشوا أحداث هذه القصة ، وبخاصة الذين أسهموا في بعض أدوارها مثل الملك طمبل

من الوقوف على الكثير من تفاصيلها . هذا إلى جانب إلمامه بأقوال الرحالة السابقين الذين عرضوا لهذا الموضوع التاريخي مثل بوركهارد . بيد أن « وادنجتون » - فيما يبدو من معالجه له - كان أكثر اهتماماً وعمقاً في دراسته، فقد جاء بالمزيد من المعلومات والحقائق عن أخبار هؤلاء المماليك، وبخاصة فيما يتعلق بأخبار الدولة التي أقاموها في دنقلة، والانطباعات التي تركها حكمهم في بعض نواحي حياة سكان هذا الإقليم النوبي .

وقد أراح « وادنجتون » نفسه الستار عن سر اهتمامه بمتابعة قصة هؤلاء الناس في بداية حديثه عنهم . فقد جاء على لسانه قوله "إنه سوف يلتمس لي العذر إذا تابعت باختصار (وباهتمام) قصة جماعة من الناس يرتبط تاريخهم لسوء الحظ من نقطة واحدة بتاريخنا (تاريخ بريطانيا)" [ص ٢٢٥] . ثم يقول "وإذا كانت قوة بأسهم التي تعزى إلى شجاعتهم، وكثرة عددهم لم تستمر طويلاً، فإنهم على أقل تقدير قد أصبحوا جديرين بالاهتمام من حيث سوء الحظ الذي أخذ يلاحقهم" . [ص ٢٢٥] . ويستطرد قائلاً "وأولئك الذين لا يثير في نفوسهم الإعجاب بهؤلاء المماليك باعتبارهم أحسن فرسان العالم رشاقة وأكثرهم شجاعة، سوف يحسون بالعطف والشفقة نحو جماعة هام أفرادها على وجوههم واضطهدوا وعذبوا، وكانوا دائماً ضحية الغدر والخيانة" . [ص ٢٢٥] .

قد تناول « وادنجتون » الظروف التي واجهها هؤلاء المماليك عند دخولهم هذه البلاد، فأشار إلى حالة الانقسام والحرب التي كان عليها ملوك النوبة وزعمائها في ذلك الوقت، وإلى موقف المماليك من الأطراف المتنازعة، وإلى حروبهم مع الشايقية، أكبر قوة واجهتهم في تقدمهم نحو الجنوب منذ غادروا الديار المصرية . كما تناول بنوع من التفصيل قيام دولتهم في إقليم دنقلة . فتحدث عن حدود هذه الدولة، وعن نواحي نشاطهم الاقتصادي فيها والجهود التي بذلوها لتدعيم كيانها . فوصف نشاطهم التجاري في "مراغة" (دنقلة الجديدة) التي يذكر أنه لم يمض وقت طويل على تأسيسها حتى غدت هذه المدينة مركزاً تجارياً كبيراً يؤمها التجار من مختلف جهات السودان حتى دارفور، وتباع السلع التي تعرض فيها بالأسعار التي تباع بها في القاهرة . كما وصف نشاطهم الزراعي في إقليم دنقلة والمشروعات الزراعية التي أدخلوها للنهوض بالزراعة في هذا الإقليم . كذلك تناول « وادنجتون » في مواضع متفرقة من حديثه عن المماليك الانطباعات التي تركها حكمهم في حياة سكان الجهات التي خضعت لنفوذهم في جنوب الوادي . فقد ذكر هذا الرحالة "إنه بتأثير الحكم المملوكي استمر سكان البلاد التي خضعت لسلطانهم يشعرون بقيمة الأسلحة وضرورة اقتنائها، بينما في الجهات الأخرى مثل سكوت والمحس وهي أسبق الأقاليم السودانية إلى الخضوع للحكم المصري . ليس للبندقية أو السيف إلا قيمة بسيطة . فقد كان أهل هذه الجهات يقولون موجهين القول إلينا « ما فائدة الأسلحة لنا؟ ألسنا تحت حماية الباشا » [ص ٢٥٤] . وفي موضع آخر من حديثه عن المماليك يصف لنا "وادنجتون" بعض مظاهر التقدم النسبي التي لاحظها بنفسه في المناطق التي خضعت

لحكمهم فيقول "إنه كلما تقدمنا في دولة (مملكة) المماليك بدت البلاد أكثر خصوبة وعمراً بالسكان، والمنازل جميعها مبنية جيداً بالأحجار على النحو الذى يلاحظ على بناء الأسوار فى بعض مناطق إنجلترا". [ص ٢٢٩]. وهناك حقيقة أخرى تتعلق باختلاط المماليك بسكان البلاد الأصليين ومدى اندماجهم معهم، يشير إليها «وادنجتون»، إذ يقول "إن المماليك بعد أن استقروا فى دنقلة ببضعة شهور قاموا بإرجاع معظم زوجاتهم القاهريات، وتزوجوا من المواطنات النوبيات. وقد ظلت هؤلاء الزوجات مخلصات وفيات لأزواجهن المماليك حتى فى أواخر أيامهم التعسة وبعد فرارهم من دنقلة. وقد كن يواسين أنفسهن بالقول "إن خروج المماليك من البلاد كان بإرادة الله وليس بإرادة الباشا" [ص ٢٢٩].

ثم يتناول «وادنجتون» الحديث عن زيارته المماليك فى السودان، فيصف لنا ما كانت عليه أحوالهم من الضعف والانحلال عندما جاءت حملة إسماعيل لتقضي على البقية الباقية منهم القضاء المبرم وتمحو كل أثر لوجودهم فى هذه البلاد، وكيف أنهم اضطروا إلى الرحيل من دنقلة إلى شندى إزاء هذا الخطر الداهم الذى يتهددهم. وقد ظلوا فى شندى حتى دب ديبب الخوف فى قلب ملكها بعد أن وصلته أخبار انتصارات الباشا على الشايقية، فأمرهم بمغادرة أراضيه. ثم يأتى إلى نهاية قصة المماليك فى السودان فيحدثنا عما كان من تشتت شملهم شرقاً وغرباً، حيث اتجه القسم الأكبر منهم إلى دارفور، فى حين سار البعض الآخر فى اتجاه مضاد نحو شاطئ البحر الأحمر. وقد توقع «وادنجتون» أن يكون القضاء عليهم أو إبادتهم للمرة الأخيرة أمراً لا مفر منه [ص ٢٣٠]. وأخيراً يروى لنا أنه عندما رجع إلى مصر علم بأن القليل من المماليك ممن نسي أو تناسى ما لاقاه غيرهم من وعود محمد على قد ألقى نفسه تحت رحمة مهلكه [ص ٢٣٠].

ثانياً: مشاهدات وادنجتون ودراساته فى دار الشايقية

تعد زيارة «وادنجتون» لدار الشايقية على جانب كبير من الأهمية، بالنظر إلى ما تضمنته هذه الزيارة من مشاهدات ودراسات، قام بها، تنطوى على قيمة علمية فقد تناول «وادنجتون» وصف طبيعة الإقليم الجغرافية، حيث فتن بسحر الطبيعة وجمالها فى هذا الإقليم، وقارن بين هدوء الطبيعة فى هذه البلاد وطبيعة سكانها التى تميل إلى الخشونة والعنف. كما وصف المناطق الزراعية بها ومدى ما يبذل من جهد وعناية فى زراعتها. ومن الدراسات الأخرى الهامة التى قام بها «وادنجتون» فى إقليم الشايقية خلال

زيارته له دراسة الآثار القديمة التي اشتهر بها. وقد عنى بصفة خاصة بدراسة آثار جبل البركل من معابد وأهرام. وكذلك أهرام البلال التي تقع عند التلال التي تعرف باسمها. وإلى جانب ذلك تناول المعتقدات الدينية عند سكان النوبة القدماء وقرنها بمعتقدات قدماء المصريين، ومدى تأثيرها بها، مشيراً إلى أقوال بعض المؤرخين القدامى في هذا الشأن، أمثال هيرودوت Herodotus وجوزيف Josephns واسترابون Strabon وديودور Diodorus الصقلي.

وقد قام بدراسة واقعية لطبائع الشايقية وأخلاقهم وكذلك عاداتهم وتقاليدهم، وبخاصة ما يتعلق بنزعتهم الحربية وميلهم للقتال ولقد كانت حروبهم مع إسماعيل بن محمد على، وعلى وجه الخصوص معركة كورتى بين الطرفين التي عاش وادنجتون أحداثها عن كشب فرصة نادرة أتحت له ليقف بنفسه على حقيقة خصال هؤلاء الشايقية وتقاليدهم في الحرب والقتال ومنازلة الأعداء. والرحالة وادنجتون في حديثه عن طبائع الشايقية وخصالهم يصفهم كشعب مقاتل له خصائص متميزة عن بقية الشعوب التي قابلها في السودان خلال زيارته، إذ يقول "إنهم مشهورون بفروسيتهم وميلهم للقتال، وتفوقهم كجنود فرسان شجعان. وهم يعيشون الحرية، ويدافعون عنها بشجاعة." ويستطرد قائلاً "ولقد كان الشايقية في حرب مع المماليك. وعلى الرغم من أنها كانت حرباً سجلاً واستمرت وقتاً طويلاً، إلا أنها لم تقض عليهم، كما لم تقض على المماليك"

ويصور لنا « وادنجتون » نزعة الشايقية الحربية وحبهم للقتال، وشجاعتهم النادرة في مواجهة الأعداء - من واقع مشاهداته لقتالهم ضد قوات حملة إسماعيل عندما قدمت إلى أوطانهم- تصويراً رائعاً يقول فيه "إن الشايقية لا يتهيبون الهجوم على أعدائهم على نحو يدعو إلى الدهشة، فهم يسارعون لمنازلة عدوهم وجهاً لوجه بروح من الاستخفاف وعدم المبالاة، وبقلب منشرح كأنهم ذاهبون إلى احتفال أو مهرجان، أو تحت تأثير الإحساس بالسرور كأنهم قادمون على ملاقاتة أصدقاء قدامى اقتربوا عنهم منذ أمد طويل." [ص ٩٨]. ويستطرد « وادنجتون » في وصفه فيحدثنا عن تقاليد الشايقية في الحرب بقوله "وعند النزول إلى أرض المعركة يعطون تحية السلام عليكم : سلام الموت التي يعقبها على الفور أن يقبض كل واحد على رمحه ويوجه به طعنات قاتلة، ويستقبل أخرى مع كلمات الحب التي تخرج من الشفاه." [ص ٩٨، ٩٩].

ويرى « وادنجتون » أن هذا اللون من الشجاعة النادرة التي يتحلى بها الشايقية في الحرب والقتال، والتي تصل إلى حد الاستخفاف بالحياة وعدم المبالاة بالموت إنما هو قاصر عليهم دون غيرهم من الشعوب إذ يقول "إن هذا الازدراء بالحياة والاستخفاف بأكثر الأمور فزاعاً، إنما هي اعتبارات خاصة بهم. فهم الشعب الوحيد الذي ينظر إلى الأسلحة وكأنها أدوات لهو ولعب، وإلى الحرب وكأنها لون من ألوان الرياضة، لا ينشدون من ورائها سوى مجرد التسلية. ولا يخشون في الموت شيئاً. بل يجدن فيه الراحة." [ص

٩٩]. وهناك صفة أخرى يمتاز بها الشايقية ولا تقل عن صفة الشجاعة النادرة التي يتحلون بها، عبر عنها «وادنجتون» بقوله "إن الشايقية قد يتنازعون فيما بينهم، ويحارب بعضهم بعضاً. ولكنهم يتحدن عندما يواجهون خطراً مشتركاً من الخارج." [ص ٩٤].

وفضلاً عما تقدم، عنى وادنجتون بوصف خصائص الشايقية الجسمانية التي تتعلق بلون بشرتهم وتقاطيع وجههم وقوامهم، وقد أبدى إعجابه بلون بشرتهم إذ يقول "إن لون بشرة الشايقية الأسود الحالك - وهم يختلفون عن الزوج في كل ناحية- الذي يمتاز بصفائه ولمعانه قد بدا لعيونى غير المتحيزة أنه ألطف لون اختاره الله (لبنى البشر)".

كذلك قدم لنا «وادنجتون» من خلال معركة كورتى بعض الصور الرائعة لشجاعة نساء الشايقية ومشاركتهن للرجال فى الحرب بروح عالية. إذ يذكر هذا الرحالة "أن إشارة البدء بالهجوم عند الشايقية - كما عند غيرهم من العرب- تعطيها فتاة عذراء تلبس لباساً فاخراً وتمتطي هجيناً، ويحافظ الجميع على عفتها وطهرها بما فى ذلك الأعداء" [ص ٩٦]. ويضيف «وادنجتون» إلى ذلك "أن الإشارة التى تعطيها الفتاة ببدء الهجوم هى «ليللى - ليللى - لوى» وتكرر باستمرار وأن هذه الألفاظ ذاتها يعبر بها النساء عادة عن شعورهن بالبهجة والسرور فى الولايم والأفراح." [ص ٩٦].

على أن «وادنجتون» بعد أن يحدثنا عن نزعة الشايقية الحربية وشجاعتهم النادرة فى الحرب والقتال، كما وقف عليها بنفسه أثناء حروبهم مع إسماعيل، يؤكد بأن اعتقادهم فى السحر وأعمال الشعوذة كان له تأثير واضح لا يمكن إغفاله فيما قاموا به من أعمال بطولية خارقة للعادة ضد قوات كانت تفوقهم عدداً وعدة. فهم -على حد قوله- "قد اعتقدوا أن التعاويذ السحرية التى كتبها لهم السحرة والعرافون فى بلادهم ستمنحهم الغلبة والنصر المحقق على أعدائهم مهما كانت قوة هؤلاء الأعداء." [ص ١٠٠]. ويروى لنا «وادنجتون» فى حديثه عن معركة كورتى كيف أن الشايقية أصيبوا بخيبة أمل منقطعة النظر عندما أيقنوا بما لا يدع مجالاً للشك بأن عددهم أقوى من تعاويذهم السحرية. وقد كان أول عمل قاموا به - هو أنهم ساقوا إلى الموت هؤلاء السحرة والعرافين الذين غرروا بهم وخدعواهم على هذا النحو المشين [ص ١٠٠]. ومهما يكن من أمر فإن إسماعيل -كما يؤكد لنا «وادنجتون» نفسه قد عجز كلية عن القضاء على نزعة الشايقية الحربية بعد محاولات يائسة قام بها فى هذا السبيل لتحويلهم من شعب محارب إلى شعب مزارع يفلح الأرض وأخيراً رأى هذا القائد، وبعد أن أذهلته شجاعتهم النادرة فى محاربة قواته، أنه من الحكمة أن يستغل هذه النزعة وتلك الشجاعة التى اشتهروا بها فيما يخدم أغراضه العسكرية فى إتمام فتح السودان، وذلك بأن ألحق الكثيرين من فرسانهم بجيش الحملة.

ثالثاً: تسجيل أحداث حملة إسماعيل على السودان

على أن الرحالة « وادنجتون » لم يقتصر في حديثه عن حملة إسماعيل على السودان التي جاء إلى هذه البلاد برفقتها على شرح قصة قائدتها إسماعيل مع الشايقية وتسجيل أحداثها ، مما سنعرض له بالتفصيل ، بل تناول أيضاً من وجهة نظره الخاصة الأسباب التي رأى أنها تكمن من وراء إرسال محمد علي هذه الحملة إلى السودان وقد ربطها بطموح الوالي الشخصي ، إذ يقول "إن طموح محمد علي هو أن يمتلك وادي النيل من منبعه إلى مصبه ، وأن يكون سيداً على سكانه جميعاً ممن يشربون من نائه ، من بلاد الحبشة جنوباً حتى البحر الأبيض المتوسط (شمالاً)" [ص ٩١]. ويستطرد قائلاً "وهذا الطموح جدير بأمير عظيم مثله ، إن لم يكن ذلك بدافع الطمع . أما فيما يختص بمشروع فتح بلاد الحبشة فقد تركه عندما بلغه تأكيد رسمي بأن أي هجوم على هذه الدولة المسيحية سوف يوقعه في صدام مع الحكومة الإنجليزية . ومن ثم اقتصر فتوحاته على ممالك دنقلة ، والشايقية ، وبربر ، وشندي ، وسنار . ويدخل ضمن هذا المشروع إبادة أعدائه القدامى من المماليك الذين بسطوا سلطانهم تماماً على دنقلة ." [ص ٩١].

وبعد أن يعرض أهداف الحملة من وجهة نظره الشخصية ، يتناول بالوصف قوتها العسكرية معبراً أيضاً عن مدى استعداداتها بالنسبة للمهام الموكلة إليها . فهو يرى أن تجهيزها بوجه عام لم يكن يتناسب مع ضخامة أهدافها ، إذ يقول "إن الوسائل التي استخدمها (محمد علي) تبدو لأول وهلة أنها بالكاد تتفق والغرض من استخدامها . فجميع القوة التي تضمنتها الحملة تبلغ عشرة آلاف رجل لا يزيد عدد المقاتلين منهم على أربعة آلاف مقاتل ، وإثنى عشر مدفعاً هي التي جعلت من غير المستطاع مقاومتها ." [ص ٩٢]. ثم يتحدث « وادنجتون » عن الجنود المرتزقة الذين تكون منهم كل جيش تقريباً ، فيشرح نظام التحاقهم بالخدمة بصفة عامة ، وفي الحملات العسكرية وهذه الحملة بصفة خاصة التي يقول إن الجنود فيها قد منحوا مرتب ستة شهور مقدماً قبل أن يغادروا مصر . ثم يصف « وادنجتون » القوات التي كانت تضمها الحملة من الفرق النظامية وغير النظامية وأجناسها المختلفة . ويتناول بصفة خاصة الحديث عن فرسان البدو الذين كانوا عماد الحملة ، فيصف أسلحتهم والأغاني التي ينشدونها ويقارن بين البدو الإفريقيين والبدو الآسيويين ، ويشيد بصراوتهم جميعاً في الحرب والقتال ، وبمهارتهم الخاصة في استعمال الرمح . ويعتبرهم أفضل الجنود غير النظامية وأقدرها على القتال حين يذكر "أن أحسن الجنود في الحملة هم البدو الذين يبلغ عددهم حوالي ألف وخمسمائة

بدوى". [ص ٩٢]. ويقول إن قسماً منهم فيما يبدو من سكان المنطقة التي قهرت على أيدي الباشا في حملته تجاه معبد الإله أمون، وقسم آخر من المغاربة من سكان الصحارى المجاورة لطرابلس وتونس ومراكش. وجميعهم كانوا فرساناً وبعضهم كان لديه سونكى معلق على بندقيته. [ص ٩٢]. ثم يتحدث «وادنجتون» عن الجنود الألبانيين والجنود الأتراك في حملة إسماعيل فيذكر "أنه كان هناك عدد كبير من الألبانيين، ولكنهم لا يكونون في هذا الجيش (الحملة) كتائب متنوعة. كذلك يوجد كثير من الأتراك الأسيويين الذين كانوا أيضاً متفرقين تحت قيادات مختلفة". [ص ٩٣]. وأخيراً يشير «وادنجتون» إلى كبار القواد في الحملة فيذكر "أن القواد الكبار في الجيش (الحملة) هم عابدين كاشف وكوجى أحمد قائد (قومندان) البدو، وحسن دار، والسلحدار، وعمر كاشف. وجميعهم كانوا تحت إمرة القائد الأعلى للحملة.

أما عن سير الحملة فيصفه «وادنجتون» بقوله "إن الجيش غادر القاهرة مبكراً في الصيف. وقد عبر الشلالات (الجنادل) في أثناء الفيضان، وتقدم جنوباً دون مقاومة حتى وصل إلى دنقلة الجديدة التي وجد أن الممالك قد أخلوها، إذ كانوا قد انسحبوا منها منذ بضعة شهور إلى شندى". ويمضى «وادنجتون» في القول "إن الخطوة التالية للجيش الزاحف كانت في التقدم في وجه الشايقية". [ص ٩٧]. الذين يقدر وادنجتون قوتهم العسكرية عند مجئ حملة إسماعيل إلى بلادهم بحوالى عشرة آلاف مقاتل، أكثر من ألفين منهم من الفرسان". [ص ٩٥].

وصف لنا «وادنجتون» قصة إسماعيل قائد الحملة مع الشايقية بكامل تفاصيلها وأدوارها المختلفة. كما عاش أحداثها وسمع أخبارها بنفسه في أثناء زيارته لهذه البلاد. فهو يشرح بداية القصة بقوله "إن الباشا (إسماعيل) عند وصوله إلى دنقلة أرسل إلى الشايقية يأمرهم بالخضوع لوالده. فعبروا له عن استعدادهم لزراعة أراضيهم وتقديم الجزية المقررة. فطلب منهم أن يبرهنوا على ولائهم وإخلاصهم بإرسال أسلحتهم وخيولهم إليه. فأعادوا على مسامحة ما سبق أن رددوه، فأجابهم بأن والده قد أمره بأن يحولهم من أمة من المحاربين إلى أمة من المزارعين، وجدد ما طلبه منهم من قبل. فأجابوه بتحد سافر "إما أن تمضى إلى حال سييلك، أو تأتى لتهاجمنا". فكان أن وجه الباشا قواته إلى تخومهم.

ثم يقص علينا كيف وقع أول صدام بين الشايقية وإسماعيل بالقرب من دنقلة العجوز عندما فوجئ هو وبعض قواده مع عدد قليل من الجند بجماعة من الشايقية يهجمون عليهم. ولكن سرعان ما ردوا على أعقابهم. وقد نجح عابدين في أسر إبنة أحد زعمائهم وكانت عذراء. وقد أرسلها إسماعيل إلى والدها معززة مكرمة. ولكنه أمر في الوقت نفسه بعرض بعض الألعاب النارية ليشير الرعب في نفوس أعدائه. بيد أن أعداءه بالرغم من ذلك كانوا أقل شعوراً بالخوف مما تخيل أو توقع، إذ اكتفوا بالتعليق على الأسهم النارية وهى تنطلق في الفضاء بقولهم "ما هذا؟ هل جاء ليحارب السماء؟". ويمضى «وادنجتون» في

روايته قائلاً "أن هذا المنظر زاد من شجاعتهم، إذ أخذوا يتصايحون بالقرب من معسكرهم "إنك جئت لتحاربنا، وسواء جئت من الشمال أو من الشرق أو من الغرب، فإننا على أى حال سنفنيك".

ويصف هذه المعركة وصفاً دقيقاً يشرح فيه كيف أحاطت بمعسكر إسماعيل قوة من الشايقية يتراوح عددها بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف رجل، وكيف توالت هجماتهم على قوات الحملة فى بداية المعركة، على الرغم من شدة ما قاسوه منها. ثم ما كان من نجاح إسماعيل ونائبه عابدين فى السيطرة على زمام الموقف فى أرض المعركة، بما أبداه من ضروب الشجاعة والبطولة لمواجهة بسالة الشايقية وإستماتتهم فى القتال. كما يصور لنا النهاية الحتمية للمعركة، فيشير إلى ما كان من إدراك الشايقية فى آخر الأمر للحقيقة الواقعة وهى عجز أسلحتهم البسيطة وتعاويذهم السحرية عن الصمود أمام أسلحة أعدائهم النارية. واضطر فرسانهم إلى الفرار لمعاودة الكرة من جديد.

وأخيراً يتناول الخسائر فى الأرواح التى تكبدها كلا الجانبين المتحاربين، فيؤكد أن عدد القتلى من مشاة الشايقية كان كبيراً إذا ما قورن بعدد القتلى من قوات إسماعيل. كما يعرض لأمثلة من أعمال البطولة النادرة التى قام بها الشايقية فى المعركة وأثارت دهشة الأتراك وانتزعت إعجابهم بهم. ولقد أبدى «وادنجتون» نفسه، من واقع ما شاهده وسمعه من بسالة الشايقية فى معركة كورتى، إعجابه الشديد بهم وتقديره لهم كشعب مناضل يبذل روحه رخيصة فى سبيل الدفاع عن حريته وكيانه.

على أن المتتبع لأقوال «وادنجتون» يرى أن المناوشات بين الشايقية وإسماعيل لم تنقطع بعد هزيمتهم فى معركة كورتى. فهو بعد أن يتحدث عن خسائر الفريقين فى المعركة، يشير إلى حادثتين معينتين وقع خلالهما اشتباك بين الطرفين راح ضحيتهما عدد قليل من الشايقية. هذا بخلاف المذبحة التى جاءت فى أعقاب المعركة. وقد أفرد لها «وادنجتون» مكاناً بارزاً فى كتاب رحلته تحت عنوان "Massacre of the Sheygyà" "مذبحة الشايقية" وصف فيه المذبحة وصفاً مشيراً [ص ١١٢، ١٢٤]. تناول فيه آثارها البشعة كما رآها فى الشوارع وفى الحقول وعلى شاطئ النهر. وعرض لتأثيرها السيئ والمؤلم فى نفوس من بقى من الشايقية على قيد الحياة، من واقع ملاحظاته ومشاهداته لقسمات وتعبيرات وجوههم، وكذلك من خلال الأحاديث التى تبادلها مع بعضهم.

على أن قصة إسماعيل مع الشايقية - كما يرويها لنا «وادنجتون» لم تنته بهذه المذبحة التى ذهب ضحيتها الكثيرون منهم، وإنما انتهت بعقد الصلح بين الطرفين، ولقد شرح لنا الظروف التى تم فيها ذلك الصلح بقوله "إنه فى تلك الأثناء كان الأتراك والشايقية فى مفاوضات مستمرة (للصلح). فقد حضر حفيد الملك "صبره" إلى المعسكر اليوم، ومثل أمام الباشا الذى أنعم عليه بعباءة وشال من كشمير. ثم ودعه بالحفاوة والإكرام البالغ." [ص ١٤٧]. ويستطرد وعلى هذا النحو أغرى بقية هؤلاء العرب التمساء

على الخضوع. وهم حينما ينتشرون في سلام على أرض الإقليم سيحملون أكثرهم قوة وشجاعة على الإذعان." [ص ١٤٧]. ويختم بقوله "وهكذا سيصبح الشايقية حلفاء لقاهرهم وليسوا عبيداً له. وإن الشجاعة الجديرة بالنصر قد حصلوا على الأقل من ورائها على الراحة والخلص من العبودية".

ولكن هل نجح إسماعيل، بعد أن عقد الصلح مع الشايقية وتم له خضوعهم لسلطانه، في أن يقضى على نزعتهم الحربية، ويحولهم من شعب محارب يحرص على اقتناء الخيل والسلاح إلى شعب مزارع يفلح الأرض، ويعيش على زراعتها لغيرهم من شعوب بلاد النوبة؟ إن «وادنجتون» الذى عاش عن كذب قصة إسماعيل مع الشايقية بأدوارها وتفاصيلها المختلفة، وقد شاهد هزيمتهم على يديه، كان يظن أنهم لا بد سيخضعون لرغبة الباشا وإرادته. فهو قد توقع لهم تلك الحياة فى قوله "وربما سيتحول الجيل الثانى للشايقية بعد سنوات قلائل، وربما فى الوقت الحاضر إلى فلاحين يديرون الساقية مثل فلاحى مصر." [ص ١٠٢، ١٠٣]. على أن ما توقعه «وادنجتون» من تغيير جوهرى فى طبيعة حياة الشايقية بعد هزيمتهم على يد إسماعيل لم يحدث، ذلك أن النزعة الحربية فى هذا الشعب كانت أقوى من أن تضعف أو تستعلي إلى نزعة أخرى طابعها السلم. ولعل هذا ما أدركه محمد على أخيراً. فقد رأى بعد أن فشلت محاولاته فى أن يحولهم إلى شعب مزارع يفلح الأرض ليعيش على خيراتها، أن يستغل تلك النزعة الأصيلة فيهم فيما يخدم أغراضه العسكرية نحو إكمال فتح الأقاليم الجنوبية التى لم يكن قد تم للحملة فتحها بعد. وهذا ما صرح به «وادنجتون»، حين يقول "إن مصير بقايا فرسان الشايقية لم يكن -تماماً- كما توقعنا. وهذا ما سمعناه على لسان محمد على نفسه، خلال زيارة له قمنا بها على أثر عودتنا إلى القاهرة. فحلاً عقب رحيلنا من المعسكر -اتفق على أن القسم الأكبر منهم الذى أبقى على خيوله وأسلحته التى حارب من أجل الحفاظ عليها سوف يدخل فى خدمة إسماعيل باشا، وينضم إلى جيشه فى زحفه على الشعوب الجنوبية التى كانت أيضاً فى حالة عداء معهم".

رابعاً: دراسة بعض القبائل العربية فى السودان :

لقد عنى الرحالة «وادنجتون» أثناء رحلته فى بلاد النوبة بدراسة بعض القبائل العربية من حيث الخصال والتقاليد التى يتميزون بها. ويبدو أن المعلومات والحقائق التى أمدنا بها فى هذا الشأن قد جاءت من واقع معاشته وتعامله مع بعض أفرادها، أو بطريق الاستقصاء من المسافرين الذين سبق أن تعاملوا معها أثناء رحلاتهم إلى هذه البلاد. ومن هذه القبائل الكبابيش والعبادة. وهم من القبائل العربية فى السودان التى اشتهرت بقيادة القوافل التجارية والمسافرين عبر الطرق الصحراوية لخبرتهم بها، وبخاصة الطرق التى

ربطت بين السودان ومصر .

فهو يحدثنا عن بعض الخصال الطيبة التي يتحلى بها الكبابيش بقوله "إن جميع أفراد قبيلتهم - كما أكدوا لي - يعرفون القراءة والكتابة . وبعضهم يعملون وعازماً في القرى يتلون القرآن ويقومون بتفسيره . وأغلب القرى التي يذهب إليها هؤلاء الكبابيش توجد فيها بعض المباني التي شيّدت من أجل هذا الغرض . " ويصف « وادنجتون » حقيقة مشاعر هؤلاء الكبابيش نحو حملة إسماعيل باشا على السودان من واقع ملاحظاته الشخصية يصف حقيقة هذه المشاعر بقوله "ولقد عبر الكبابيش عن ابتهاجهم بانتصارات إسماعيل باشا ."

أما العبادة فقد وصفهم الرحالة « وادنجتون » وصفاً مغايراً ولا يتفق مع وصف من سبقوه من الرحالة مثل الرحالة "بوركهارد" الذي زار بلاد السودان (عام ١٨١٣-١٨١٤)، وقد تعرف بهؤلاء العبادة عن كثب وتعامل معهم . " [ص ١٤٩ ، ١٧٤ ، ٢٣٦ بوركهارد] . يقول في وصف خصال العبادة وطباعهم "إن العبادة يتمتعون بسمعة سيئة بين المسافرين يرددون دائماً أعمال الغدر والخيانة والعنف التي يعاملون بها من قبل هؤلاء . " على أن « وادنجتون » يستطرد قائلاً "ولكنهم (العبادة) كأفراد حسب اعتقادي - أمناء كرماء غير مسئولين عن سلوك العبادة كجماعة من السوقة والرعا . " [ص ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٢٠١ وادنجتون] .

مصادر البحث

أولاً- المصدر الأصلي

Waddington. G. & Hanbury. B.: Journal of a Visit to Some Parts of Ethiopia, London, 1822.

ثانياً- المصادر الثانوية

١- وثائق غير منشورة من قسم المحفوظات التاريخية (بقصر عابدين) « دار الوثائق القومية » .

٢- فردريك بنولا : مصر والجغرافيا - تعريب أحمد ذكي .

1- Budge. E. A. The Egyptian Sudan, Its History and Monuments (2 vols.), London, 1907.

2- Burchardt. T. L., Travels in Nubia, London, 1819.

3- Cailliaud. W., Voyage à Méroé (4 vols.), Paris, 1826.

4- Hill. R. L. A., Biographical Dictionary of the Anglo-Egyptian Sudan, Oxford, 1951.

الفصل الخامس

الرحالة وادنجتون "Waddington"

ظروف رحلته إلى السودان ودوافعها الرئيسية (عام ١٨٢٠-١٨٢١):

"جورج وادنجتون" George Waddington رحالة إنجليزي أغرم بالسياحة وقد زار بلاد أوروبا والشرق. واشتهر كرحالة إلى جانب شهرته كمؤرخ للكنيسة. وقد كان زميل كلية ترنتي بكمبردج Fellow of Trinity, Cambridge. كما تولى منصب أسقف مدينة دورهام Durham. ثم أختير محافظاً لجامعتها. (١)

أما عن زيارته للسودان فلم تكن متعمدة. فقد عزم على القيام برحلة إلى بلاد اليونان وآسيا الصغرى. وفي طريقه إلى اليونان مر بالبندقية (يناير ١٨٢٠). وهناك التقى بصديقه "برنارد هنبري" Hanbry الذي وجده يستعد للقيام برحلة إلى مصر والنوبة لمشاهدة معالمها الأثرية، ويحدوه الأمل في أن يتقدم جنوباً حتى دنقلة. وقد ألح "هنبري" على "وادنجتون" في أن يرافقه في هذه الرحلة. وأخيراً وقع "وادنجتون" تحت تأثير وإقناع صديقه. وبعد أن أمضى "وادنجتون" و"هنبري" الربيع ومعظم الصيف في بلاد اليونان أبحرا إلى الأسكندرية، فوصلاها في منتصف أغسطس عام ١٨٢٠. وهناك تأكد لهما ما سبق أن ترامى إلى مسامعهما من أن حملة بقيادة إسماعيل بن محمد على والى مصر قد غادرت القاهرة في طريقها إلى الجنوب لضم البلاد الواقعة فيما وراء الشلال الثاني إلى إدارته. وقد وجدا في هذه الحملة فرصة سانحة لتحقيق رغبتهما في زيارة هذه البلاد، الأمر الذي كان من المحتمل ألا يتحقق لهما بنجاح تام لو لم تتح لهما هذه الفرصة. ومن ثم قررا مرافقة الحملة، وعرضا هذه الرغبة على الوالى الذى لم يبد تشجيعاً كبيراً لهما، إلا أنه على الأقل لم يعترض عليها [ص ٣، ٤].

وقد قدمهما إلى والى مصر القنصل الإنجليزي فى ذلك الوقت مستر "بيتر لى" Mr. Peter Lee الذى كان بحكم طبيعة عمله لا يمانع فى مد يد المعونة والمساعدة للمسافرين من بنى جنسه. وهناك إنجليزى آخر أبدى أيضاً عطفاً ملحوظاً على مشروع "وادنجتون" و"هنبري" لزيارة بلاد النوبة، وشجعهما كثيراً على تنفيذه، وقدم لهما المعونة فى سبيل إنجاحه، يدعى مستر "براين" Brine. فعندما وجد هذا الإنجليزى أنه لا يرافقهما أحد من الأتراك، كما وأنهما لا يحملان أى خطاب توصية لأحد من ضباط الحملة، سعى إلى أن يمدهما بخطاب توصية من عابدين كاشف الرجل الثانى فى الحملة بعد إسماعيل. وقد

(1) Richard Hill: A Biog. Dict. of the Anglo - Egyptian Sudan p. 375 & George Waddington: Journal of visit to some parts of Ethiopia. p. 1.

كان "براين" جاراً وصديقاً لعابدين وقت أن كان الأخير حاكماً على إقليم المنيا في صعيد مصر. ويعبر "وادنجتون" عن أهمية هذا الخطاب في تحقيق رغبته في هذه الرحلة بقوله "إنه بدونه كان سيصبح لحاقنا بالجيش أمراً عسيراً، ووصولنا إلى بلاد النوبة كان من المحتمل ألا يتحقق." ويضيف "وادنجتون" إلى ذلك "أن هذا العمل يعد من الخدمات الجليلة التي ندين بها لهذا الرجل الإنسان ذى النفس الكريمة." [ص ٤].

وفي ١٠ نوفمبر عام ١٨٢٠ وصل "وادنجتون" ورفيقه "هنبرى" إلى وادى حلفا، ومنها إلى بطن الحجر في ١٢ نوفمبر. وفي ١٢ نوفمبر وصلا إلى دار السكوت، ومنها إلى دار المحس في ١٨ نوفمبر. وفي ٢٢ نوفمبر وصلا إلى دنقلة. ومنها تابعا سيرهما إلى دار الشايقية التي وصلها في ٧ ديسمبر (عام ١٨٢٠). وبعد الوصول إلى دار الشايقية رغبا في مواصلة تقدمهما جنوباً إلى سنار برفقة الحملة، ولكن رغبتهما لم تجد قبولاً لدى قائدها إسماعيل الذى كان لا يشعر بالارتياح التام لوجودهما مع جيشه في تلك الأثناء. وسرعان ما طلب إليهما مغادرة البلاد دون إبطاء بحجة الحرص على سلامتهما وأمنهما مما قد يصيبهما من صعاب ومخاطر [ص ١٠٥]. وعثاً حاول "وادنجتون" أن يؤثر على إسماعيل لكي يعدل عن قراره السالف الذكر [ص ١٤٨ - ١٥٤].

وقد علل "وادنجتون" عدم ارتياح إسماعيل قائد الحملة إليه وإلى زميله "هنبرى" وبالتالي إصراره على مغادرتهما البلاد دون أن يتيح لهما فرصة مواصلة تقدمهما جنوباً إلى سنار برفقة جيشه بقوله "إنه كان طبيعياً أن يرغب الباشا في أن يريح نفسه من جماعة من الناس ليسوا في خدمته، ولا يمكن أن يكونوا مفيدين له بطريقة من الطرق، حتى ولو كانوا من بعض الوجوه والاعتبارات مستقلين عنه. وبالإضافة إلى ذلك فهم مسيحيون لأن إسماعيل كان بعيداً عن الأخذ بأراء والده المتحررة في هذا الشأن. وفوق هذا وذاك فإنه يحتمل أنهما تحت حماية إنجلترا. وقد تخيل أننا سنصبح في هذه الحالة جواسيس على مقاصده. فهل كان إذن من الحكمة أن يحملنا معه على طول الطريق؟" [ص ١٥٤].

ومهما يكن من الأسباب التي جعلت إسماعيل قائد الحملة لا يشعر بالارتياح نحو الرحالة "وادنجتون" وزميله "هنبرى" ويتخذ قراره الحاسم بمغادرتهما البلاد، فإن مما لا شك فيه أن هذا القرار كان له أثره الخطير في أن تنتهى رحلتها في السودان عند دار الشايقية، في حين أتاحت لغيرهما من الأجانب الذين كانوا برفقة إسماعيل فرصة التقدم جنوباً مع جيشه إلى سنار بل إلى ما وراءها. على أن «وادنجتون» لا ينكر في الوقت نفسه الخدمات التي أداها له ولزميله «هنبرى» بعض كبار المسؤولين في الحملة، وبخاصة عابدين. كاشف نائب إسماعيل. ومن هذه الخدمات مدهما بجمع لوازم الرحلة، ووضع الحراسة الكافية لسلامتهما طيلة مدة سياحتهما في هذه البلاد.

ولقد سجل «وادنجتون» و «هنبرى» مشاهداتهما ودراساتهما المختلفة في هذه الأقاليم في كتاب نشر في لندن عام ١٨٢٢ تحت عنوان: "Journal of a Visit to Some"

"Parts of Ethiopia" ، وكان تأليف هذا الكتاب من نصيب « وادنجتون » الذى يشير فى مقدمته إلى « أن كلا منهما كان يحتفظ بجورنال يسجل فيه أخبار الرحلة ، وأنهما تبادلوا الرأى سوياً فى تصنيف الكتاب . وأنه كان من نصيبه القيام بمهمة تأليفه » . ويختتم « وادنجتون » حديثه هذا بقوله « وإنى لأشعر الآن بأن هذا العمل أبعد من أن يكون تمييزاً خاصاً لشخصى طمعت فى الحصول عليه [ص ٣٦] .

تبرز أهمية الرحلة أنها تمت أثناء تقدم حملة إسماعيل فى هذه البلاد ، لذلك تعد بحق المصادر الأولية التى لا غنى للباحث فى تاريخ الحملة عنها . كذلك تبرز أهمية الرحلة إهتمام وادنجتون بدراسة قيام دولة المماليك فى دنقلة التى أمدنا بكثير من الحقائق والأخبار الهامة عنها . . هذا بالإضافة إلى الموضوعات التاريخية الأخرى الهامة مثل الأوضاع السياسية السائدة فى بعض أقاليمه قبل مجئ حملة إسماعيل إليها ، وما كانت عليه علاقات الحكام بعضهم ببعض فى هذه الفترة . دراسة بعض نواحي الحياة الاجتماعية فى بعض المجتمعات فى السودان الشمالى مثل المجتمع الدنقلاوى والمجتمع الشايقى ، كالعادات والتقاليد السائدة فى هذه المجتمعات ، والآداب والفنون الشعبية التى اشتهرت بها ، ومركز المرأة ، والمكانة التى حظى بها رجال الدين والفقهاء فى المجتمع ، وغير ذلك من الدراسات الاجتماعية . وفوق ذلك كله النجاح الذى حققه « وادنجتون » وزميله « هنبرى » فى أعمال البحث والتنقيب عن الآثار القديمة فى بعض جهات النوبة ، إلى الحد الذى يذهب معه « بوج Budge » أحد المهتمين بدراسة الآثار القديمة فى السودان إلى القول "بأن دراسة الآثار السودانية القديمة قد بدأت بإخراج « وادنجتون » و « هنبرى » كتاب رحلتهم فى السودان [ص ٢٨ ، بوج] . فقد كان « وادنجتون » و « هنبرى » أول من نشر دراسة مفصلة عن آثار جبل البركل . كذلك يرجع إليهما الفضل - كما يؤكد « بوج » نفسه - فى القيام بأول محاولة علمية لوصف وتحقيق الآثار المصرية القديمة فى بلاد النوبة .

على أن المعلومات والأخبار التى أمدنا بها الرحالة « وادنجتون » عن مشاهداته ودراساته التى قام بها فى أقاليم النوبة التى قدر له ولزميله « هنبرى » زيارتها قد جاءت مبشرة فى أماكن متفرقة من كتاب رحلتهم ، وتحتاج إلى نوع من التنظيم والتبويب على النحو الذى ييسر للباحث أو الدارس مهمة الاستفادة منها . كذلك فإن إجلاء الحقيقة قد تطلب أحياناً مناقشة أقوال هذين الرحالتين الإنجليزيتين فى بعض ما تناولا من الموضوعات على ضوء ما تتضمنه الوثائق الرسمية من ذلك العهد التى كانت محفوظة بدار الوثائق التاريخية القومية (قصر عابدين) ، أو بمقارنتها بأقوال غيرهما من الرحالة الذين أتاحت لهم فرصة زيارة هذه البلاد فى ذلك الوقت بالذات و برفقة الحملة ذاتها ، ممن كانوا أسعد حظاً منهما فى التمتع بعطف ورعاية قائد الحملة ، ومنهم الرحالة إنجلش English الأمريكى .

أولاً: مشاهدات «وادنجتون» ودراساته في إقليم دنقلة (عام ١٨٢٠م)

جاء الرحالة «وادنجتون» وزميله «هنبري» إلى إقليم دنقلة في ٢٢ نوفمبر عام ١٨٢٠م وقد استغرقت زيارتهما لهذا الإقليم زهاء أسبوعين تجولا خلالهما بين ربوعه ومعالمه المختلفة، إذ زارا جزيرة أرقو أكبر جزر هذا الإقليم، كما زارا مدنه الرئيسية ومناطقه الأثرية. وقد قام «وادنجتون» في أثناء هذه الزيارة بدراسة بيئة الإقليم الطبيعية بعامة، وجزيرة أرقو بخاصة. وتحدث عن مدى استغلالها في الزراعة، وأشار إلى مميزات الإقليم المناخية والنباتية والحيوانية، وبخاصة الخيول التي اشتهر الدناقلة بتربيتها. وقد عرض «وادنجتون» لأقوال الرحالة وأرائهم في خصائص الخيول الدنقلوية ومميزاتها. كما وصف المدن الرئيسية في الإقليم، وتناول بصفة خاصة مدينة "دنقلة العجوز" والأطوار التي مرت بها في العصور التاريخية المختلفة من واقع مشاهدات الرحالة الذين قدر لهم زيارتها خلال تلك العصور. كذلك عنى «وادنجتون» بوصف مدينة «مراغة-دنقلا العرضي» التي أنشأها المماليك الذين فروا من مصر عقب مذبححة القلعة لتكون مقر حكومتهم التي أقاموها في هذا الإقليم بعد أن حلوا به.

ولم تقتصر مشاهدات «وادنجتون» ودراساته في إقليم دنقلة على بيئة الإقليم الطبيعية أو مدنه الرئيسية فحسب، وإنما تضمنت أيضاً المجتمع الدنقلوي ذاته والحياة الروحية لأهل دنقلة، والاهتمام بالتعليم الديني في هذا الإقليم. فقد أشار إلى ظاهرة انتشار أماكن تعليم القرآن الكريم في أجزاء الإقليم المختلفة، وإلى ما يقوم به الوعاظ المتجولون من الكبايش بصفة خاصة في هذا السبيل. كما أشار إلى وجود مدارس يتعلم فيها الأطفال مبادئ القراءة والكتابة، إلى جانب حفظ القرآن الكريم^(١). وقد حدثنا عن السادة (شيوخ الإسلام) الذين يقومون بوظيفة التعليم، وما يتمتع به هؤلاء من مكانة سامية في المجتمع. كما حدثنا عن أساليب تعليم الأطفال وطرق تأديبهم، وأنواع الأخطاء التي كانوا يعاقبون عادة من أجلها. وقد حدثنا عن الأضرحة التي تقام لمن اشتهر من الفقهاء وشيوخ الإسلام بالصالح والتقوى في حياته الدنيا، لتضم رفاتهم الطاهرة حيث يتبارك الناس بزيارتها، وينعمون بالأمن والسلام في ظلها عندما تتهددهم بادرة خطر. وقد أشاد بصفة عامة بما يتحلى به هؤلاء الشيوخ والفقهاء في دنقلة من الخصال والصفات الحميدة التي زادت من

(١) وبمقصد بها الخلاوي (جمع خلوة). وقد كانت إلي جانب المساجد والجوامع والزوايا من أهم أماكن العلم في ذلك الحين.

تعلق المواطنين بهم وتقديرهم لهم .

وعني وادنجتون بدراسة آدابهم وفنونهم الشعبية فقد تناول الحديث عن طائفة المداحين والمنشدين والشعراء المتجولين . وعرض لبعض أرجالهم ومواويلهم الشعبية التي استمع إليها في المناسبات المختلفة . وقد تناولها بالنقد والتحليل بعد أن ترجمت له في حينها إلى اللغة الإنجليزية . وقد سره بعضها ، وعبر عن إعجابه وتقديره لفائليها . كما وصف لنا أنواع الغناء والرقص الشعبي الذي شاهده في الحفلات الشعبية العامة ، وفي بعض الحفلات الخاصة التي دعاه إليها بعض الشخصيات البارزة في الإقليم . كذلك تناول « وادنجتون » مركز المرأة في المجتمع الدنقلاوى ، إذ أشار إلى ما تتمتع به من حقوق شرعية كحقها في الميراث ، وإلى ما تتحلى به من الصفات الطيبة التي أكسبتها احترام المجتمع وتقديره لها .

وفضلاً عن ذلك عرض « وادنجتون » في مواضع متفرقة من كتاب رحلته لبعض العادات والتقاليد السائدة بين أهل دنقلة ، كتلك التي تتعلق بأنواع الطعام والشراب التي يقبلون على تناولها ، ومنها عادة شرب العرقي والمريسة المنتشرة بينهم . كما أشار إلى معتقداتهم في السحر والشعوذة . كذلك أشار إلى طبائعهم وأخلاقهم ، والصفات والخصال التي تميزهم عن غيرهم . ومن الموضوعات الاجتماعية الأخرى الهامة التي عالجهما الرحالة « وادنجتون » موضوع الجريمة والعقاب في المجتمع الدنقلاوى ، إذ أشار إلى أنواع الجرائم التي يعاقب عليها عادة المجتمع ، وإلى العقوبات التي تفرض على مرتكبيها وغير ذلك من أنظمة الحكم التي تبدو متأثرة بتعاليم الإسلام .

لفت نظر « وادنجتون » أثناء زيارته لبعض أقاليم النوبة نزعة سكان هذه الأقاليم الدينية وتمسكهم بعقيدتهم الإسلامية التي تجلت له في صور ومظاهر دينية مختلفة عبر عنها - كما سبق أن أوضحنا - في حديثه عن معالم المجتمع الدنقلاوى . ومنها انتشار الخلاوى وأماكن تحفيظ القرآن الكريم ، والمكانة السامية التي تمتع بها الفقهاء والمشايخ في نفوس الناس وإقامة الأضرحة للصالحين من أولياء الله . وهي ظاهرة اجتماعية عنى « وادنجتون » بدراستها وإبرازها في كتاب رحلته . وربما كان لاشتغال « وادنجتون » بالشئون الدينية في إحدى مراحل حياته ، إذ عمل - كما قدمنا - أسقفاً لمدينة درهام Durham بانجلترا قبل أن يشتهر كرحالة ، أثره في اهتمامه بهذا الجانب الدينى الهام فى حياة المجتمعات النوبية التى قدر له زيارتها .

بيد أن المتتبع لمشاهدات هذا الرحالة فى بلاد النوبة يلاحظ أن اهتمامه بدراسة النزعة الدينية فى المجتمعات النوبية لم تقتصر على إبراز تلك الصور والمظاهر الدينية الدالة على تمسك سكان هذه البلاد بعقيدتهم الإسلامية ، وإنما قد أمدتنا ببعض

المعلومات والحقائق عن أنظمة الحكم هناك وقد حاول من خلالها أن يلقي الضوء على مدى تأثير هؤلاء الناس بتعاليم القرآن الكريم في نظم حكمهم، إذ يقول «إن الأمراء الصغار الذين يحملون لقب شيخ أو كاشف أو ملك، يبدو أنهم لم يكونوا ظالمين كلية. فقد كانوا يعتبرون أنفسهم حكاماً بإرادة الله ليحكموا الناس بعدالة القرآن. وهو القانون الوحيد كما هو التعليم الوحيد للمسلمين. وفيما يختص بجرائم القتل فإن الملك قد يعاقب بالموت. أما في حالة السرقة فليس إلا أن يضرب الجاني بالنبوت. ولا يوجد تدرج في العقاب. كما لا يسمع عن عقوبات بتر أعضاء الجسم أو الكى بالنار، أو الإخفاء. كذلك لا يوجد عقاب وسط بين النبوت والموت [ص ٢٥٢]. ويستطرد قائلاً «أما القوانين الخاصة بحماية ممتلكات الرعية فتبدو أنها غير محددة أو واضحة، أما فيما يتعلق بقوانين حماية السكان فلا يوجد شئ من هذا القبيل. ولولا الاحتماء باسم محمد على لما كان هناك أمل في تجول الأجانب في هذه البلاد في أمن وسلام [ص ٢٤٠].

أما عن اهتمام الرحالة «وادنجتون» وزميله «هنبرى» بالتنقيب عن الآثار القديمة في إقليم دنقلة، فقد كان واضحاً، وبخاصة في جزيرة أرقو. والحقيقة أن هذين الرجلين قد بذلا كل ما في وسعهما، ولم يدخرا وسعاً من أجل تحقيق الهدف العلمى، على الرغم من الصعوبات والعراقيل التي اعترضت طريقيهما في هذا الشأن. ومنها ما يرجع -على حد قوله- إلى إحجام المواطنين وإعراضهم عن مساعدتهما في أعمال الحفر والتنقيب عن الآثار القديمة. يضاف إلى ذلك أن عابدين كاشف الرجل الثانى فى حملة إسماعيل لم يكن يؤيد أثناء وجوده فى دنقلة قيام هذين الإنجليزيين بمثل هذه الأعمال. ومع ذلك فقد نجح الرجلان فى الكشف عن بعض المعابد والتماثيل فى جزيرة أرقو [ص ٢٣٩، ٢٤٠]. ولقد كان للملك طمبل ملك أرقو الذى نجح «وادنجتون» فى كسب صداقته أثر كبير فى نجاح هذه المهمة العلمية، إذ بعث إليهما بعدد من حراسه المسلحين بالسيوف والبنادق ليكونوا برفقتهم. ويؤكد الرحالة «وادنجتون» "أنه لم يكن فى الإمكان مواصلة البحث والتنقيب عن الآثار القديمة فى المنطقة دون مساعدة هؤلاء الرجال، إذ أنه من الصعوبة بمكان أن تحمل سكان هذه الجهات على القيام بهذه الخدمة. وقد رفضوا رفضاً باتاً أن يتحركوا حتى تدفئ الشمس الدنيا (على حد تعبيرهم). فقد أمكن بطريق إثارة الفزع فى نفوسهم حمل سبعة رجال منهم على أكثر تقدير على العمل لمدة ست أو سبع ساعات. ومع ذلك لم يكن عملهم غير مثمر تماماً، فقد كشفوا عن رأس تمثال الخرتيت الأسود الجالس، وكذلك أساس الحائط السميك." [ص ٢٥٢].

الاهتمام بقصة المماليك فى دنقلة :

ومن الموضوعات التاريخية الهامة التى عنى « وادنجتون » بدراستها فى أثناء زيارته لإقليم دنقلة قصة المماليك الذين أقاموا لهم ملكاً فى هذا الإقليم عقب فرارهم إلى السودان بعد مذبحه القلعة. وقد مكنته علاقاته الشخصية مع بعض ملوك النوبة وزعمائها ممن عاشوا أحداث هذه القصة، وبخاصة الذين أسهموا فى بعض أدوارها مثل الملك طمبل من الوقوف على الكثير من تفاصيلها. هذا إلى جانب إلمامه بأقوال الرحالة السابقين الذين عرضوا لهذا الموضوع التاريخى مثل بوركهارد. بيد أن « وادنجتون » - فيما يبدو من معالجه له - كان أكثر اهتماماً وعمقاً فى دراسته، فقد جاء بالمزيد من المعلومات والحقائق عن أخبار هؤلاء المماليك، وبخاصة فيما يتعلق بأخبار الدولة التى أقاموها فى دنقلة، والانطباعات التى تركها حكمهم فى بعض نواحي حياة سكان هذا الإقليم النوبى.

وقد أراح « وادنجتون » نفسه الستار عن سر اهتمامه بمتابعة قصة هؤلاء الناس فى بداية حديثه عنهم. فقد جاء على لسانه قوله "إنه سوف يلتمس لى العذر إذا تابعت باختصار (وباهتمام) قصة جماعة من الناس يرتبط تاريخهم لسوء الحظ من نقطة واحدة بتاريخنا (تاريخ بريطانيا)" [ص ٢٢٥]. ثم يقول "وإذا كانت قوة بأسهم التى تعزى إلى شجاعتهم، وكثرة عددهم لم تستمر طويلاً، فإنهم على أقل تقدير قد أصبحوا جديرين بالاهتمام من حيث سوء الحظ الذى أخذ يلاحقهم". [ص ٢٢٥]. ويستطرد قائلاً "وأولئك الذين لا يثير فى نفوسهم الإعجاب هؤلاء المماليك باعتبارهم أحسن فرسان العالم رشاقة وأكثرهم شجاعة، سوف يحسون بالعطف والشفقة نحو جماعة هام أفرادها على وجوههم واضطهدوا وعذبوا، وكانوا دائماً ضحية الغدر والخيانة". [ص ٢٢٥].

قد تناول « وادنجتون » الظروف التى واجهها هؤلاء المماليك عند دخولهم هذه البلاد، فأشار إلى حالة الانقسام والحرب التى كان عليها ملوك النوبة وزعمائها فى ذلك الوقت، وإلى موقف المماليك من الأطراف المتنازعة، وإلى حروبهم مع الشايقية، أكبر قوة واجهتهم فى تقدمهم نحو الجنوب منذ غادروا الديار المصرية. كما تناول بنوع من التفصيل قيام دولتهم فى إقليم دنقلة. فتحدث عن حدود هذه الدولة، وعن نواحي نشاطهم الاقتصادى فيها والجهود التى بذلوها لتدعيم كيائها. فوصف نشاطهم التجارى فى "مراغة" (دنقلة الجديدة) التى يذكر أنه لم يمض وقت طويل على تأسيسها حتى غدت هذه المدينة مركزاً تجارياً كبيراً يؤمها التجار من مختلف جهات السودان حتى دارفور، وتباع السلع التى تعرض فيها بالأسعار التى تباع بها فى القاهرة. كما وصف نشاطهم الزراعى فى إقليم دنقلة والمشروعات الزراعية التى أدخلوها للنهوض بالزراعة فى هذا الإقليم. كذلك تناول « وادنجتون » فى مواضع متفرقة من حديثه عن المماليك الانطباعات التى تركها

حكمتهم في حياة سكان الجهات التي خضعت لنفوذهم في جنوب الوادي. فقد ذكر هذا الرحالة "إنه بتأثير الحكم المملوكي استمر سكان البلاد التي خضعت لسلطانهم يشعرون بقيمة الأسلحة وضرورة اقتنائها، بينما في الجهات الأخرى مثل سكوت والمحس وهي أسبق الأقاليم السودانية إلى الخضوع للحكم المصري. ليس للبندقية أو السيف إلا قيمة بسيطة. فقد كان أهل هذه الجهات يقولون موجّهين القول إلينا « ما فائدة الأسلحة لنا؟ ألسنا تحت حماية الباشا ». [ص ٢٥٤]. وفي موضع آخر من حديثه عن المماليك يصف لنا "وادنجتون" بعض مظاهر التقدم النسبي التي لاحظها بنفسه في المناطق التي خضعت لحكمهم فيقول "إنه كلما تقدمنا في دولة (مملكة) المماليك بدت البلاد أكثر خصوبة وعمراً بالسكان، والمنازل جميعها مبنية جيداً بالأحجار على النحو الذي يلاحظ على بناء الأسوار في بعض مناطق إنجلترا". [ص ٢٢٩]. وهناك حقيقة أخرى تتعلق باختلاط المماليك بسكان البلاد الأصليين ومدى اندماجهم معهم، يشير إليها « وادنجتون »، إذ يقول "إن المماليك بعد أن استقروا في دنقلة ببضعة شهور قاموا بإرجاع معظم زوجاتهم القاهريات، وتزوجوا من المواطنات النوبيات. وقد ظلت هؤلاء الزوجات مخلصات وفيات لأزواجهن المماليك حتى في أواخر أيامهم التعسة وبعد فرارهم من دنقلة. وقد كن يواسين أنفسهن بالقول "إن خروج المماليك من البلاد كان بإرادة الله وليس بإرادة الباشا" [ص ٢٢٩].

ثم يتناول « وادنجتون » الحديث عن زيارته المماليك في السودان، فيصف لنا ما كانت عليه أحوالهم من الضعف والانحلال عندما جاءت حملة إسماعيل لتتقضى على البقية الباقية منهم القضاء المبرم وتمحو كل أثر لوجودهم في هذه البلاد، وكيف أنهم اضطروا إلى الرحيل من دنقلة إلى شندى إزاء هذا الخطر الداهم الذي يتهددهم. وقد ظلوا في شندى حتى دب دبيب الخوف في قلب ملكها بعد أن وصلتته أخبار انتصارات الباشا على الشايقية، فأمرهم بمغادرة أراضيه. ثم يأتي إلى نهاية قصة المماليك في السودان فيحدثنا عما كان من تشتت شملهم شرقاً وغرباً، حيث اتجه القسم الأكبر منهم إلى دارفور، في حين سار البعض الآخر في اتجاه مضاد نحو شاطئ البحر الأحمر. وقد توقع « وادنجتون » أن يكون القضاء عليهم أو إبادتهم للمرة الأخيرة أمراً لا مفر منه [ص ٢٣٠]. وأخيراً يروى لنا أنه عندما رجع إلى مصر علم بأن القليل من المماليك ممن نسي أو تناسى ما لاقاه غيرهم من وعود محمد على قد ألقى نفسه تحت رحمة مهلكه [ص ٢٣٠].

ثانياً: مشاهدات وادنجتون ودراساته في دار الشايقية

تعد زيارة « وادنجتون » لدار الشايقية على جانب كبير من الأهمية، بالنظر إلى ما تضمنته هذه الزيارة من مشاهدات ودراسات، قام بها، تنطوي على قيمة علمية فقد تناول « وادنجتون » وصف طبيعة الإقليم الجغرافية، حيث فتن بسحر الطبيعة وجمالها في هذا الإقليم، وقارن بين هدوء الطبيعة في هذه البلاد وطبيعة سكانها التي تميل إلى الخشونة والعنف. كما وصف المناطق الزراعية بها ومدى ما يبذل من جهد وعناية في زراعتها. ومن الدراسات الأخرى الهامة التي قام بها « وادنجتون » في إقليم الشايقية خلال زيارته له دراسة الآثار القديمة التي اشتهر بها. وقد عنى بصفة خاصة بدراسة آثار جبل البركل من معابد وأهرام. وكذلك أهرام البلال التي تقع عند التلال التي تعرف باسمها. وإلى جانب ذلك تناول المعتقدات الدينية عند سكان النوبة القدماء وقارنها بمعتقدات قدماء المصريين، ومدى تأثيرها بها، مشيراً إلى أقوال بعض المؤرخين القدامى في هذا الشأن، أمثال هيرودوت Herodotus وجوزيف Josephns واسترابون Strabon وديودور Diodorus الصقلي.

وقد قام بدراسة واقعية لطبائع الشايقية وأخلاقهم وكذلك عاداتهم وتقاليدهم، وبخاصة ما يتعلق بنزعتهم الحربية وميلهم للقتال ولقد كانت حروبهم مع إسماعيل بن محمد علي، وعلى وجه الخصوص معركة كورتى بين الطرفين التي عاش وادنجتون أحداثها عن كثب فرصة نادرة أتاحت له ليقف بنفسه على حقيقة خصال هؤلاء الشايقية وتقاليدهم في الحرب والقتال ومنازلة الأعداء. والرحالة وادنجتون في حديثه عن طبائع الشايقية وخصالهم يصفهم كشعب مقاتل له خصائص متميزة عن بقية الشعوب التي قابلها في السودان خلال زيارته، إذ يقول "إنهم مشهورون بفروسيتهم وميلهم للقتال، وتفوقهم كجنود فرسان شجعان. وهم يعشقون الحرية، ويدافعون عنها بشجاعة." ويستطرد قائلاً "ولقد كان الشايقية في حرب مع المماليك. وعلى الرغم من أنها كانت حرباً سجالاً واستمرت وقتاً طويلاً، إلا أنها لم تقض عليهم، كما لم تقض على المماليك"

ويصور لنا « وادنجتون » نزعة الشايقية الحربية وحبهم للقتال، وشجاعتهم النادرة في مواجهة الأعداء -من واقع مشاهداته لقتالهم ضد قوات حملة إسماعيل عندما قدمت إلى أوطانهم- تصويراً رائعاً يقول فيه "إن الشايقية لا يتهيبون الهجوم على أعدائهم على نحو يدعو إلى الدهشة، فهم يسارعون لمنازلة عدوهم وجهاً لوجه بروح من الاستخفاف وعدم المبالاة، ويقلب منشرح كأنهم ذاهبون إلى احتفال أو مهرجان، أو تحت تأثير الإحساس

بالسرور كأنهم قادمون على ملاقاتة أصدقاء قدامى افترقوا عنهم منذ أمد طويل". [ص ٩٨]. ويستطرد «وادنجتون» في وصفه فيحدثنا عن تقاليد الشايقية فى الحرب بقوله "وعند النزول إلى أرض المعركة يعطون تحية السلام عليكم: سلام الموت التى يعقبها على الفور أن يقبض كل واحد على رمحه ويوجه به طعنات قاتلة، ويستقبل أخرى مع كلمات الحب التى تخرج من الشفاه". [ص ٩٨، ٩٩].

ويرى «وادنجتون» أن هذا اللون من الشجاعة النادرة التى يتحلى بها الشايقية فى الحرب والقتال، والتى تصل إلى حد الاستخفاف بالحياة وعدم المبالاة بالموت إنما هو قاصر عليهم دون غيرهم من الشعوب إذ يقول "إن هذا الأزدرء بالحياة والاستخفاف بأكثر الأمور فزعا، إنما هى اعتبارات خاصة بهم. فهم الشعب الوحيد الذى ينظر إلى الأسلحة وكأنها أدوات لهو ولعب، وإلى الحرب وكأنها لون من ألوان الرياضة، لا ينشدون من ورائها سوى مجرد التسلية. ولا يخشون فى الموت شيئا. بل يجدن فيه الراحة". [ص ٩٩]. وهناك صفة أخرى يمتاز بها الشايقية ولا تقل عن صفة الشجاعة النادرة التى يتحلون بها، عبر عنها «وادنجتون» بقوله "إن الشايقية قد يتنازعون فيما بينهم، ويحارب بعضهم بعضاً. ولكنهم يتحدثون عندما يواجهون خطراً مشتركاً من الخارج". [ص ٩٤].

وفضلاً عما تقدم، عنى وادنجتون بوصف خصائص الشايقية الجسمانية التى تتعلق بلون بشرتهم وتقاطيع وجههم وقوامهم، وقد أبدى إعجابه بلون بشرتهم إذ يقول "إن لون بشرة الشايقية الأسود الحالك - وهم يختلفون عن الزوج فى كل ناحية- الذى يمتاز بصفائه ولمعانه قد بدا لعيونى غير المتحيزة أنه ألطف لون اختاره الله (لبنى البشر)".

كذلك قدم لنا «وادنجتون» من خلال معركة كورتى بعض الصور الرائعة لشجاعة نساء الشايقية ومشاركتهن للرجال فى الحرب بروح عالية. إذ يذكر هذا الرحالة "أن إشارة البدء بالهجوم عند الشايقية - كما عند غيرهم من العرب- تعطىها فتاة عذراء تلبس لباساً فاخراً وتمتطى هجيناً، ويحافظ الجميع على عفتها وطهرها بما فى ذلك الأعداء". [ص ٩٦]. ويضيف «وادنجتون» إلى ذلك "أن الإشارة التى تعطىها الفتاة ببدء الهجوم هى «ليللى - ليللى - لولو» وتكرر باستمرار وأن هذه الألفاظ ذاتها يعبر بها النساء عادة عن شعورهن بالبهجة والسرور فى الولائم والأفراح". [ص ٩٦].

على أن «وادنجتون» بعد أن يحدثنا عن نزعة الشايقية الحربية وشجاعتهم النادرة فى الحرب والقتال، كما وقف عليها بنفسه أثناء حروبهم مع إسماعيل، يؤكد بأن اعتقادهم فى السحر وأعمال الشعوذة كان له تأثير واضح لا يمكن إغفاله فيما قاموا به من أعمال بطولية خارقة للعادة ضد قوات كانت تفوقهم عدداً وعدة. فهم -على حد قوله- "قد اعتقدوا أن التعاويذ السحرية التى كتبها لهم السحرة والعرافون فى بلادهم ستمنحهم الغلبة والنصر المحقق على أعدائهم مهما كانت قوة هؤلاء الأعداء". [ص ١٠٠]. ويروى لنا

« وادنجتون » في حديثه عن معركة كورتى كيف أن الشايقية أصيبوا بخيبة أمل منقطعة النظير عندما أيقنوا بما لا يدع مجالاً للشك بأن عددهم أقوى من تعاويذهم السحرية. وقد كان أول عمل قاموا به - هو أنهم ساقوا إلى الموت هؤلاء السحرة والعرافين الذين غرروا بهم وخدعوه على هذا النحو المشين [ص ١٠٠]. ومهما يكن من أمر فإن إسماعيل - كما يؤكد لنا « وادنجتون » نفسه قد عجز كلية عن القضاء على نزعة الشايقية الحربية بعد محاولات يائسة قام بها في هذا السبيل لتحويلهم من شعب محارب إلى شعب مزارع يفلح الأرض وأخيراً رأى هذا القائد ، وبعد أن أذهلته شجاعتهم النادرة في محاربة قواته ، أنه من الحكمة أن يستغل هذه النزعة وتلك الشجاعة التي اشتهروا بها فيما يخدم أغراضه العسكرية في إتمام فتح السودان ، وذلك بأن ألحق الكثيرين من فرسانهم بجيش الحملة .

ثالثاً : تسجيل أحداث حملة إسماعيل على السودان

على أن الرحالة « وادنجتون » لم يقتصر في حديثه عن حملة إسماعيل على السودان التي جاء إلى هذه البلاد برفقتها على شرح قصة قائدها إسماعيل مع الشايقية وتسجيل أحداثها ، مما سنعرض له بالتفصيل ، بل تناول أيضاً من وجهة نظره الخاصة الأسباب التي رأى أنها تكمن من وراء إرسال محمد على هذه الحملة إلى السودان وقد ربطها بطموح الوالى الشخصى ، إذ يقول "إن طموح محمد على هو أن يمتلك وادى النيل من منبعه إلى مصبه ، وأن يكون سيداً على سكانه جميعاً ممن يشربون من مائه ، من بلاد الحبشة جنوباً حتى البحر الأبيض المتوسط (شمالاً)" [ص ٩١]. ويستطرد قائلاً "وهذا الطموح جدير بأمر عظيم مثله ، إن لم يكن ذلك بدافع الطمع . أما فيما يختص بمشروع فتح بلاد الحبشة فقد تركه عندما بلغه تأكيد رسمى بأن أى هجوم على هذه الدولة المسيحية سوف يوقعه في صدام مع الحكومة الإنجليزية . ومن ثم اقتصر فتوحاته على ممالك دنقلة ، والشايقية ، وبربر ، وشندى ، وسنار . ويدخل ضمن هذا المشروع إبادة أعدائه القدامى من المماليك الذين بسطوا سلطانهم تماماً على دنقلة ." [ص ٩١].

وبعد أن يعرض أهداف الحملة من وجهة نظره الشخصية ، يتناول بالوصف قوتها العسكرية معبراً أيضاً عن مدى استعداداتها بالنسبة للمهام الموكلة إليها . فهو يرى أن تجهيزها بوجه عام لم يكن يتناسب مع ضخامة أهدافها ، إذ يقول "إن الوسائل التي استخدمها (محمد على) تبدو لأول وهلة أنها بالكاد تتفق والغرض من استخدامها . فجميع

القوة التي تضمنتها الحملة تبلغ عشرة آلاف رجل لا يزيد عدد المقاتلين منهم على أربعة آلاف مقاتل، وإثنى عشر مدفعاً هي التي جعلت من غير المستطاع مقاومتها. [ص ٩٢]. ثم يتحدث «وادنجتون» عن الجنود المرتزقة الذين تكون منهم كل جيش تقريباً، فيشرح نظام التحاقهم بالخدمة بصفة عامة، وفي الحملات العسكرية وهذه الحملة بصفة خاصة التي يقول إن الجنود فيها قد منحوا مرتب ستة شهور مقدماً قبل أن يغادروا مصر. ثم يصف «وادنجتون» القوات التي كانت تضمها الحملة من الفرق النظامية وغير النظامية وأجناسها المختلفة. ويتناول بصفة خاصة الحديث عن فرسان البدو الذين كانوا عماد الحملة، فيصف أسلحتهم والأغاني التي ينشدونها ويقارن بين البدو الإفريقيين والبدو الآسيويين، ويشيد بضراوتهم جميعاً في الحرب والقتال، وبمهارتهم الخاصة في استعمال الرمح. ويعتبرهم أفضل الجنود غير النظامية وأقدرها على القتال حين يذكر "أن أحسن الجنود في الحملة هم البدو الذين يبلغ عددهم حوالي ألف وخمسمائة بدوي". [ص ٩٢]. ويقول إن قسماً منهم فيما يبدو من سكان المنطقة التي قهرت على أيدي الباشا في حملته تجاه معبد الإله أمون، وقسم آخر من المغاربة من سكان الصحارى المجاورة لطرابلس وتونس ومراكش. وجميعهم كانوا فرساناً وبعضهم كان لديه سونكى معلق على بندقيته. [ص ٩٢]. ثم يتحدث «وادنجتون» عن الجنود الألبانيين والجنود الأتراك في حملة إسماعيل فيذكر "أنه كان هناك عدد كبير من الألبانيين، ولكنهم لا يكونون في هذا الجيش (الحملة) كتائب متنوعة. كذلك يوجد كثير من الأتراك الآسيويين الذين كانوا أيضاً متفرقين تحت قيادات مختلفة". [ص ٩٣]. وأخيراً يشير «وادنجتون» إلى كبار القواد في الحملة فيذكر "أن القواد الكبار في الجيش (الحملة) هم عابدين كاشف وكوجى أحمد قائد (قومندان) البدو، وحسن دار، والسلحدار، وعمر كاشف. وجميعهم كانوا تحت إمرة القائد الأعلى للحملة.

أما عن سير الحملة فيصفه «وادنجتون» بقوله "إن الجيش غادر القاهرة مبكراً في الصيف. وقد عبر الشلالات (الجنادل) في أثناء الفيضان، وتقدم جنوباً دون مقاومة حتى وصل إلى دنقلة الجديدة التي وجد أن المماليك قد أخلوها، إذ كانوا قد انسحبوا منها منذ بضعة شهور إلى شندى". ويمضى «وادنجتون» في القول "إن الخطوة التالية للجيش الزاحف كانت في التقدم في وجه الشايقية". [ص ٩٧]. الذين يقدر وادنجتون قوتهم العسكرية عند مجئ حملة إسماعيل إلى بلادهم بحوالي عشرة آلاف مقاتل، أكثر من ألفين منهم من الفرسان. [ص ٩٥].

وصف لنا «وادنجتون» قصة إسماعيل قائد الحملة مع الشايقية بكامل تفاصيلها وأدوارها المختلفة. كما عاش أحداثها وسمع أخبارها بنفسه في أثناء زيارته لهذه البلاد. فهو يشرح بداية القصة بقوله "إن الباشا (إسماعيل) عند وصوله إلى دنقلة أرسل إلى الشايقية يأمرهم بالخضوع لوالده. فعبروا له عن استعدادهم لزراعة أراضيهم وتقديم

الجزية المقررة . فطلب منهم أن يبرهنوا على ولائهم وإخلاصهم بإرسال أسلحتهم وخيولهم إليه . فأعادوا على مسامعه ما سبق أن رددوه ، فأجابهم بأن والده قد أمره بأن يحولهم من أمة من المحاربين إلى أمة من المزارعين ، وجدد ما طلبه منهم من قبل . فأجابوه بتحد سافر "إما أن تمضى إلى حال سبيلك ، أو تأتي لتهاجمنا" . فكان أن وجه الباشا قواته إلى تخومهم .

ثم يقص علينا كيف وقع أول صدام بين الشايقية وإسماعيل بالقرب من دنقلة العجوز عندما فوجئ هو وبعض قواده مع عدد قليل من الجند بجماعة من الشايقية يهجمون عليهم . ولكن سرعان ما ردوا على أعقابهم . وقد نجح عابدين في أسر إبنة أحد زعمائهم وكانت عذراء . وقد أرسلها إسماعيل إلى والدها معززة مكرمة . ولكنه أمر في الوقت نفسه بعرض بعض الألعاب النارية ليثير الرعب في نفوس أعدائه . بيد أن أعداءه بالرغم من ذلك كانوا أقل شعوراً بالخوف مما تخيل أو توقع ، إذ اكتفوا بالتعليق على الأسهم النارية وهي تنطلق في الفضاء بقولهم " ما هذا؟ هل جاء ليحارب السماء؟" . ويمضى « وادنجتون » في روايته قائلاً " أن هذا المنظر زاد من شجاعتهم ، إذ أخذوا يتصايحون بالقرب من معسكرهم "إنك جئت لتحاربنا ، وسواء جئت من الشمال أو من الشرق أو من الغرب ، فإننا على أي حال سنفنيك" .

ويصف هذه المعركة وصفاً دقيقاً يشرح فيه كيف أحاطت بمعسكر إسماعيل قوة من الشايقية يتراوح عددها بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف رجل ، وكيف توالى هجماتهم على قوات الحملة في بداية المعركة ، على الرغم من شدة ما قاسوه منها . ثم ما كان من نجاح إسماعيل ونائبه عابدين في السيطرة على زمام الموقف في أرض المعركة ، بما أبداه من ضروب الشجاعة والبطولة لمواجهة بسالة الشايقية وإستماتتهم في القتال . كما يصور لنا النهاية الحتمية للمعركة ، فيشير إلى ما كان من إدراك الشايقية في آخر الأمر للحقيقة الواقعة وهي عجز أسلحتهم البسيطة وتعاويذهم السحرية عن الصمود أمام أسلحة أعدائهم النارية . واضطر فرسانهم إلى الفرار لمعاودة الكرة من جديد .

وأخيراً يتناول الخسائر في الأرواح التي تكبدها كلا الجانبين المتحاربين ، فيؤكد أن عدد القتلى من مشاة الشايقية كان كبيراً إذا ما قورن بعدد القتلى من قوات إسماعيل . كما يعرض لأمثلة من أعمال البطولة النادرة التي قام بها الشايقية في المعركة وأثارت دهشة الأتراك وانتزعت إعجابهم بهم . ولقد أبدى « وادنجتون » نفسه ، من واقع ما شاهده وسمعه من بسالة الشايقية في معركة كورتى ، إعجابه الشديد بهم وتقديره لهم كشعب مناضل يبذل روحه رخيصة في سبيل الدفاع عن حريته وكيانه .

على أن المتتبع لأقوال « وادنجتون » يرى أن المناوشات بين الشايقية وإسماعيل لم تنقطع بعد هزيمتهم في معركة كورتى . فهو بعد أن يتحدث عن خسائر الفريقين في المعركة ، يشير إلى حادثتين معينتين وقع خلالهما اشتباك بين الطرفين راح ضحيتهما

عدد قليل من الشايقية. هذا بخلاف المذبحة التي جاءت في أعقاب المعركة. وقد أفرد لها «وادنجتون» مكاناً بارزاً في كتاب رحلته تحت عنوان "Massacre of the Sheygyà" "مذبحة الشايقية" وصف فيه المذبحة وصفاً مشيراً [ص ١١٣، ١٢٤]. تناول فيه آثارها البشعة كما رآها في الشوارع وفي الحقول وعلى شاطئ النهر. وعرض لتأثيرها السيئ والمؤلم في نفوس من بقى من الشايقية على قيد الحياة، من واقع ملاحظاته ومشاهداته لقسمات وتعبيرات وجوههم، وكذلك من خلال الأحاديث التي تبادلها مع بعضهم.

على أن قصة إسماعيل مع الشايقية - كما يرويها لنا «وادنجتون» لم تنته بهذه المذبحة التي ذهب ضحيتها الكثيرون منهم، وإنما انتهت بعقد الصلح بين الطرفين، ولقد شرح لنا الظروف التي تم فيها ذلك الصلح بقوله "إنه في تلك الأثناء كان الأتراك والشايقية في مفاوضات مستمرة (للصلح). فقد حضر حفيد الملك "صبره" إلى المعسكر اليوم، ومثل أمام الباشا الذي أنعم عليه بعباءة وشال من كشمير. ثم ودعه بالحفاوة والإكرام البالغ." [ص ١٤٧]. ويستطرد وعلى هذا النحو أغرى بقية هؤلاء العرب التعساء على الخضوع. وهم حينما ينتشرون في سلام على أرض الإقليم سيحملون أكثرهم قوة وشجاعة على الإذعان." [ص ١٤٧]. ويختم بقوله "وهكذا سيصبح الشايقية حلفاء لقاهرهم وليسوا عبيداً له. وإن الشجاعة الجديرة بالنصر قد حصلوا على الأقل من ورائها على الراحة والخلاص من العبودية."

ولكن هل نجح إسماعيل، بعد أن عقد الصلح مع الشايقية وتم له خضوعهم لسلطانه، في أن يقضى على نزعتهم الحربية، ويحولهم من شعب محارب يحرص على اقتناء الخيل والسلاح إلى شعب مزارع يفلح الأرض، ويعيش على زراعتها لغيرهم من شعوب بلاد النوبة؟ إن «وادنجتون» الذي عاش عن كذب قصة إسماعيل مع الشايقية بأدوارها وتفصيلها المختلفة، وقد شاهد هزيمتهم على يديه، كان يظن أنهم لا بد سيخضعون لرغبة الباشا وإرادته. فهو قد توقع لهم تلك الحياة في قوله "وربما سيتحول الجيل الثاني للشايقية بعد سنوات قلائل، وربما في الوقت الحاضر إلى فلاحين يديرون الساقية مثل فلاحى مصر." [ص ١٠٢، ١٠٣]. على أن ما توقعه «وادنجتون» من تغيير جوهرى في طبيعة حياة الشايقية بعد هزيمتهم على يد إسماعيل لم يحدث، ذلك أن النزعة الحربية في هذا الشعب كانت أقوى من أن تضعف أو تستعلي إلى نزعة أخرى طابعها السلم. ولعل هذا ما أدركه محمد على أخيراً. فقد رأى بعد أن فشلت محاولاته في أن يحولهم إلى شعب مزارع يفلح الأرض ليعيش على خيراتها، أن يستغل تلك النزعة الأصلية فيهم فيما يخدم أغراضه العسكرية نحو إكمال فتح الأقاليم الجنوبية التي لم يكن قد تم للحملة فتحها بعد. وهذا ما صرح به «وادنجتون»، حين يقول "إن مصير بقايا فرسان الشايقية لم يكن -تماماً- كما توقعنا. وهذا ما سمعناه على لسان محمد على نفسه، خلال زيارة له قمنا بها على أثر عودتنا إلى القاهرة. فحالا عقب رحيلنا من المعسكر -اتفق على أن

القسم الأكبر منهم الذى أبقي على خيوله وأسلحته التي حارب من أجل الحفاظ عليها سوف يدخل في خدمة إسماعيل باشا، وينضم إلى جيشه في زحفه على الشعوب الجنوبية التي كانت أيضاً في حالة عداء معهم".

رابعاً: دراسة بعض القبائل العربية في السودان :

لقد عنى الرحالة « وادنجتون » أثناء رحلته في بلاد النوبة بدراسة بعض القبائل العربية من حيث الخصال والتقاليد التي يتميزون بها . ويبدو أن المعلومات والحقائق التي أمدنا بها في هذا الشأن قد جاءت من واقع معاشته وتعامله مع بعض أفرادها ، أو بطريق الاستقصاء من المسافرين الذين سبق أن تعاملوا معها أثناء رحلاتهم إلى هذه البلاد . ومن هذه القبائل الكبابيش والعبادة . وهم من القبائل العربية في السودان التي اشتهرت بقيادة القوافل التجارية والمسافرين عبر الطرق الصحراوية لخبرتهم بها ، وبخاصة الطرق التي ربطت بين السودان ومصر .

فهو يحدثنا عن بعض الخصال الطيبة التي يتحلى بها الكبابيش بقوله " إن جميع أفراد قبيلتهم - كما أكدوا لي - يعرفون القراءة والكتابة . وبعضهم يعملون وعازلاً في القرى يتلون القرآن ويقومون بتفسيره . وأغلب القرى التي يذهب إليها هؤلاء الكبابيش توجد فيها بعض المباني التي شيدت من أجل هذا الغرض . " ويصف « وادنجتون » حقيقة مشاعر هؤلاء الكبابيش نحو حملة إسماعيل باشا على السودان من واقع ملاحظاته الشخصية يصف حقيقة هذه المشاعر بقوله " ولقد عبر الكبابيش عن ابتهاجهم بانتصارات إسماعيل باشا . "

أما العبادة فقد وصفهم الرحالة « وادنجتون » وصفاً مغايراً ولا يتفق مع وصف من سبقوه من الرحالة مثل الرحالة " بوركهارد " الذي زار بلاد السودان (عام ١٨١٣-١٨١٤) ، وقد تعرف بهؤلاء العبادة عن كذب وتعامل معهم . " [ص ١٤٩ ، ١٧٤ ، ٢٣٦ بوركهارد] . يقول في وصف خصال العبادة وطباعهم " إن العبادة يتمتعون بسمعة سيئة بين المسافرين يرددون دائماً أعمال الغدر والخيانة والعنف التي يعاملون بها من قبل هؤلاء . " على أن « وادنجتون » يستطرد قائلاً " ولكنهم (العبادة) كأفراد حسب اعتقادي - أمناء كرماء غير مسئولين عن سلوك العبادة كجماعة من السوق والرعاع . " [ص ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٤ ، ٣٠١ ، ٩٥ ، وادنجتون] .

مصادر البحث

أولاً- المصدر الأصلي

Waddington. G. & Hanbury. B.: Journal of a Visit to Some Parts of Ethiopia, London, 1822.

ثانياً- المصادر الثانوية

١- وثائق غير منشورة من قسم المحفوظات التاريخية (بقصر عابدين) « دار الوثائق القومية » .

٢- فردريك بنولا : مصر والجغرافيا - تعريب أحمد ذكي .

1- Budge. E. A. The Egyptian Sudan, Its History and Monuments (2 vols.), London, 1907.

2- Burchardt. T. L., Travels in Nubia, London, 1819.

3- Cailliaud. W., Voyage à Méroé (4 vols.), Paris, 1826.

4- Hill. R. L. A., Biographical Dictionary of the Anglo-Egyptian Sudan, Oxford, 1951.

الفصل السادس

الرحالة الأمير "بكلر مسكاو Muskau"

ظروف رحلته إلى السودان (عام ١٨٢٧):

هو بكلر مسكاو هرمان لودويج هندريك Puckler Muskau Herman Luduig Hendrick ولد في مسكاو Muskau في لوساتيا Lusatia، وهو سائح ألماني. وقد سافر إلى مصر للتعرف على أحوالها، والوقوف على معالم النهضة الحديثة التي حققتها تحت حكم محمد علي باشا الذي ذاع صيته. وهناك اشترى من سوق الرقيق بالقاهرة بنت حبشية تسمى "محبوبة" ساح بها في مصر العليا، حيث استقبله محمد علي باشا في أسيوط. بعد ذلك سافر إلى السودان عام ١٨٢٧ للتعرف أيضاً على أحواله والوقوف على ما أصابه من تطور بعد أن خضع لحكم هذا الوالي. وقد وصل الأمير بكلر مسكاو إلى الخرطوم (عام ١٨٢٧) وصعد النيل الأزرق إلى "وادي مدني" Wady Medineh. ثم عاد إلى أوروبا، وقد رافقته "محبوبة" إلى فيينا. (١) وقد نشر الأمير بكلر مسكاو رحلته في مصر والسودان باللغة الألمانية. ثم نشرت باللغة الإنجليزية في لندن عام ١٨٤٥ تحت عنوان: "مصر في عهد محمد علي" Egypt under Mehemet Ali

وكتاب الرحلة من جزئين: الجزء الأول دون فيه مشاهداته وملاحظاته عن مظاهر النهضة الإدارية والعسكرية والاقتصادية التي شهدتها مصر على عهد محمد علي باشا في النصف الأول من القرن التاسع عشر. أما الجزء الثاني وهو الذي يعيننا في هذا المقام - فقد دون فيه زيارته لبلاد السودان. وقد عني خلال هذه الزيارة بمشاهدة المناطق الأثرية وما تحويه من الآثار القديمة التي ورد ذكرها في كتب بعض الرحالة الأوروبيين الذين سبقوه إلى زيارة هذه البلاد مثل "كايو" Cailliaud الفرنسي و"بوركهارد" السويسري. وعلق الأمير بكلر مسكاو على مشاهدات هؤلاء الرحالة وملاحظاتهم بما شاهده هو ولاحظه بنفسه. بيد أن الأمر الذي شغل به الأمير بصورة واضحة في زيارته للسودان، هو متابعة سياسة محمد علي العمرانية في جنوب الوادي بعد أن شاهد مظاهرها الحية في شماله. وليقف بنفسه على حقيقة التطور الذي أصاب الجنوب على عهده. وقد قرأ عن هذه البلاد دون شك في كتب الرحالة الذين قاموا بزيارتها من قبل.

(1) Richard Hill, Biographical dictionary of the Anglo - Egyptian Sudan, p. 311

الأهمية التاريخية والعلمية للرحلة :

أمدنا بكلر مسكاو بوصف على جانب من الأهمية للمدن والقرى والمناطق السودانية التي زارها عام ١٨٣٧ ، مدعماً وصفه ودراسته لبعض نواحي النشاط البشرى في هذه المدن والقرى والمناطق بإحصائيات وبيانات هامة تتعلق بعدد السكان والمصانع التي عيّنت حكومة محمد علي باشا بإنشائها في بعض المدن . وكذلك عدد السواقي في بعض القرى ، ومساحة ما ترويه من الأراضي الزراعية مستدلاً على ازدهار الزراعة في هذه الجهات بانتشار السواقي ، وبالتالي مدى التطور الزراعى الذى أصاب بعض القرى والمناطق السودانية على عهد محمد علي . وقد أشار في الوقت نفسه إلى الغلات والمحاصيل الزراعية الجديدة التي دخلت زراعتها بلاد السودان لأول مرة على ذلك العهد . كذلك تناول النظام الضريبي الذي فرضته حكومة محمد علي في السودان على المزارعين في القرى ، وناقش باستفاضة هذا النظام وأقوال بعض الرحالة الذين سبقوه في هذا النظام مما سنعرض له في حينه .

ومن المدن والقرى والمناطق السودانية الهامة التي قدر لبكلر مسكاو زيارتها وتعرض لوصفها ، ولنشاط أهلها ، ومشروعات حكومة محمد علي فيها ، دنقلة ، مروى ، شندى ، المتمة ، وسنار ، ومنطقة النيل الأزرق . ولقد أتاحت له زيارة منطقة النيل الأزرق ومشاهدة هذا النهر ، وما سمعه عن قرب من معلومات عن مجراه -أتاح له كل ذلك بحث ودراسة احتمال أن تكون منابع النيل في المرتفعات الشامخة البعيدة في بلاد الحبشة . وهو احتمال أن يقول إنه كان واثقاً منه للغاية ، وإنه أطلع محمد علي باشا عليه أثناء حديثه معه عن الرحالة "بروس" . كما أطلع عليه أيضاً الحكممدار خورشيد باشا حكممدار السودان . ويذكر أنهما اقتنعا به .

كذلك أشار الأمير بكلر مسكاو وبمناسبة حديثه عن احتمال أن تكون منابع النيل في مرتفعات الحبشة إلى اهتمام محمد علي باشا بالكشف عن منابع النيل وما كان من أمر إرسال البعثات المتتالية للكشف عن منابعه في الجنوب . كما تحدث عن الجهود التي ينبغي أن تسهم بها الدول الأوروبية وبخاصة إنجلترا بالاتفاق مع مصر لإنجاز هذا العمل الكشفي الهام ، لما فيه على حد قوله من إضافة للعلم والمعرفة . أما الأقاليم السودانية الأخرى التي لم يقدر على زيارتها ، ولكنه أمدنا بمعلومات هامة عنها تضمنت موقعها الجغرافى ، وطبيعتها الجغرافية ، وما يمارسه أهلها من نشاط في مجال الزراعة والتجارة والصناعة ، فضلاً عن نظم الحكم في بعضها ، فهى التاكا ، وإقليم كردفان ، ومملكة تقلى ، وإقليم دارفور .

ومن المزايا العلمية والتاريخية الأخرى التي تمتاز بها رحلة بكلر مسكاو ، هى

اجتماعاته مع محمد علي باشا التي أتاحت له الفرصة لأن يناقشه في المشروعات المختلفة التي أقامها في بعض مناطق السودان التي خضعت لحكمه والتي قدر له زيارتها، وكذلك في مشروعات أخرى زراعية هامة رأى ضرورة القيام بها في مناطق سودانية أخرى شاهدها بنفسه على الطبيعة. وقد كان -كما قدمنا- خبيراً بشئون الزراعة. ومن المشروعات التي عرضها على الباشا مشروع ربط الدلتا الواقعة إلى الجنوب من الخرطوم بين النيل الأزرق والنيل الأبيض، التي تمتاز بخصوبة أراضيها، بشبكة من الترع والقنوات. وهو ما عرف بعد ذلك بمشروع الجزيرة. بيد أنه -كما سنرى- قد انتقد بصراحة بعض تصرفات رجال حكومة محمد علي في السودان، ومنها ارتكاب بعض الحكام والموظفين المظالم ضد الأهالي والإساءة إلى حريتهم، والمتاجرة بأقوات المواطنين. وقد ذكر على سبيل المثال احتكار أحد التجار الأغنياء بالاتفاق مع أحد موظفي الحكومة في دنقلة، بيع الغلال وغيرها من المؤونة اللازمة للأهالي بأسعار مضاعفة عند حاجتهم إليها.

كذلك أشار في حديثه عن شندى والمتممة بشئ من التفصيل إلى الآثار المدمرة لأعمال الدفتردار الانتقامية التي كان قد ارتكبها انتقاماً لمقتل الأمير إسماعيل في شندى، ومنها حرق المنازل والبيوت، وقتل وأسر الآلاف من السكان الأبرياء، وما كان من أمر تأنيب محمد علي باشا له ومحاولاته لعلاج هذا الموقف المأسوي الذي خلفه صهره.

ومن الأمور الأخرى الهامة التي عاب فيها الأمير بكلم مسكاو حكومة محمد علي في السودان، والتي تشير في الوقت نفسه إلى جانب هام في تاريخ علاقات هذه الحكومة بجيرانها الأحباش، ما كان من أمر حملات قنص الرقيق التي اعتادت القوات المصرية القيام بها في المناطق السودانية المتاخمة للحبشة كل عام، وما كانت ترتكبه هذه القوات من أعمال عدوانية ضد الأحباش دون تقدير لحقوق الجيرة. ثم ما انتهى إليه الأمر من نفاذ صبر الأحباش بتدبير مذبحه بشعة ضد القوات المصرية قتل وأسر خلالها الآلاف من هذه القوات.

ومع ذلك فقد امتدح الأمير بكلم مسكاو بصفة عامة حكومة محمد علي في السودان، ودافع عن أهم النظم التي وضعتها لحكم هذه البلاد وهو نظام الضريبة التي فرضتها على الفلاحين في القرى. فقد ناقش الأمير بكلم مسكاو أقوال بعض الرحالة الذين عابوا على الحكومة فرض هذا النظام، مثل الرحالة Cadalene واعترض عليها، وخلص إلى أن نظام الضريبة التي فرضتها حكومة محمد علي على الفلاحين في القرى السودانية ليس مجحفاً بالدرجة التي يتصورها البعض، بل إنه -على حد قوله- يدفع الفلاح إلى الجد والعمل ونبذ التراخي والكسل عندما يدرك عظم المسؤولية الملقاة على عاتقه.

أولاً- وصف المدن والمناطق الرئيسية في الرحلة

مدينة دنقلة (عام ١٨٣٧) :

في الطريق إلى دنقلة شاهد قري وصفها "بأنها قري كبيرة يبلغ امتدادها فرسخاً، بيوتها مبنية بالطوب غير المحروق، وأسقفها مغطاة بطبقة سميكة من سعف النخيل، ومحاطة بحقول غنية بمحاصيلها المثمرة. وسوف تنتج خلال شهرين أو ثلاثة أشهر المحصول الثاني." ويضيف قائلاً "وهذه الحقول تكفل لهم قدراً كبيراً من الطمأنينة التي أخذت تسود هنا منذ حكم محمد علي." (١) كذلك شاهد وهو في طريقه إلى دنقلة منطقة أخرى يصفها "بأنها تزرع جيداً ويزيد من انتعاشها البيوت المتفرقة المصنوعة من الطوب التي تمتد على مسافة فرسخ على جانب نهر النيل إلى جزيرة وقرية "دهل" Dahl الكبيرة وسكان "دهل" أكثر مدنية وألفة من سكان دار الهشار أو الحجر Dar-el-Hadshar. والأهالي يقدمون ما لديهم (من منتجات الريف) للبيع وأسعارهم منخفضة مثل الضأن ومنتجاته، والبط، والصنادل والأشياء المصنوعة من سعف النخيل. ولكن الدجاج الذي نجده في كل مكان في الشرق، وبخاصة في مصر بأعداد كبيرة يبدو أنه غير معروف كلية هنا. والسكان يعرفون بيض الطيور البرية. بيد أنهم لا يرغبون في أكلها." كما يصف "الحافر" أو الحفير التي يذكر بأنها تبعد حوالي فرسخ عن النيل "بأنها تمتاز بمنازلها الجيدة، كذلك فإن الزراعة فيها يبدو عليها المزيد من العناية والاهتمام، والسكان أكثر مدنية."

أما عن مدينة دنقلة فقد وصفها "بأنها تنقسم إلى قسمين متميزين :

القسم الأول؛ وهو محصن بالحوائط والأبراج الكافية للدفاع ضد المواطنين. وفي هذا القسم يقطن رجال الحكومة والعساكر من مشاة وفرسان. أما القسم الآخر؛ من دنقلة فهو أكثر اتساعاً واقتراباً من النهر، وتقطنه بقية السكان البالغ عددهم حوالي أربعة آلاف نسمة. كما توجد سوق معدة إعداداً جيداً، وقليل من المنازل المبنية بالطوب الأحمر ذات النوافذ الخالية من الزجاج، ويمتلكها المواطنون الأثرياء." [الجزء الثاني ص ١٦٠]. وعن النشاط الزراعي في منطقة دنقلة ذاتها يذكر "أن سهول دنقلة مهمة إهمالاً كبيراً، وأن مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية قد هجرت بسبب الأمراض الوبائية التي اكتسحت عدداً كبيراً من السكان في السنوات الأخيرة. وتتوالى الهجرات من هذه الجهات إلى إقليم دارفور. كما أن الري الصناعي قد توقف بطبيعة الحال، ونبتت أشجار السنط الكثيفة في مساحات واسعة، وأخذ حيوان التيتل يتردد عليها." [ص ١٥٨]. بيد أنه في مكان آخر من كتاب رحلته يذكر "أن عدد السواقي في دنقلة يتراوح بين أربعة آلاف

(1) Puckler Muskau, Egypt under Mehemet A li, vol. II, pp. 147.

وخمسة آلاف ساقية". وقد علق على ذلك بقوله "إن هذا دليل قاطع على اتساع نطاق الزراعة في هذه الجهات." [ص ١٧٢]. ويتحدث عن نظام الاحتكار الذي فرضته حكومة محمد علي في السودان فيقول "إن الحكومة تقوم باستلام الحنطة والأرز وغيرهما من الغلات الزراعية من الأهالي وتبيعه لهم عند حاجتهم إليها بسعر مرتفع." [ص ١٦٦]. ويضيف "أن الحكومة تمتلك في دنقلة عدة حدائق، تحتوى على الكروم [ص ٣١١]. وكثير من أشجار الفاكهة التي جلب بعضها من كردفان، وترويهما السواقي لأن منسوب مياه النيل في جهات دنقلة منخفض." [ص ١٦٥]. أما عن الماشية في إقليم دنقلة فإنها تمتاز بضخامتها واستدارة ظهرها، وأن المواد الغذائية خصوصاً اللحوم تبدو لنا جيدة في دنقلة بشكل ملحوظ، وأسعارها لا زالت منخفضة." [ص ١٦٤].

كما أشار إلى "أن الزراف ينتشر في الصحراء المجاورة لدنقلة، وثمان الزرافة الواحدة يتراوح بين خمسين وسبعين دولاراً، وأنه لا بد من تصريح خاص من الحكومة بصيدها." [ص ١٦٥]. وعن النشاط الصناعي في دنقلة حدثنا عن مصنع النيلة الذي أسسه محمد علي في دنقلة، وهو من الصناعات الجديدة التي أدخلها في بعض المناطق السودانية التي خضعت لحكمه ومنها دنقلة. يقول: "إنه ينتج ثلاثة أنواع من النيلة: النوع الأول قرشاً، وتباع بثمانين قرشاً." [ص ١٦٤]. ويضيف إلى ذلك "أن المصنع ينتج بصفة عامة خمسين أقة سنوياً، وأنه لا يوجد موظف أوروبى واحد في المصنع." [ص ١٦٤].

وهناك صناعة محلية أخرى في إقليم دنقلة اشتهر بها أهل دنقلة قبل حكم محمد علي للسودان، وهي صناعة نوع من الأقمشة، حدثنا عنه وما كان له من أهمية في التعامل بين الناس بقوله "إن نوعاً من قماش الكتان الرديء يقوم الأهالي بصناعته في تلك الجهات. وإنه فيما مضى كان يقطع إلى أشرطة طويلة يتعاملون بها بدلا من النقود في بلاد بربر وكذلك في السودان." [ص ١٥٢]. ويستطرد قائلاً "إن السكان الآن يجبرون في كل مكان -وهم على مضمض- على التعامل بعملة الحكومة طبقاً لقيمتها الثابتة. وإنه لا بد من اتباع مثل هذه الصرامة (أى إرغامهم على التعامل بها) لأنه بدونها لا يقبل المواطنون على التعامل بعملة الحكومة." [ص ١٥٢]. كذلك حدثنا عن صناعة نوع من الخمور لفت نظره ويبدو أنه تعاطاه أو تذوقه في أثناء زيارته دنقلة، إذ يصفه بقوله "يصنع في دنقلة نوع (من الخمور) يسمى "بلبل" Bil-Bil يشبه البيرة، ولكنه مرطب وطعمه مقبول في الطقس الحار. وينتشر استعماله حتى في الخرطوم." [ص ١٦٤].

أما عن تجارة دنقلة، فيحدثنا عن أهمية موقع دنقلة الجغرافي على طريق التجارة بين أقاليم السودان ومصر قائلاً "إنه في طريقه من كرسكو إلى دنقلة شاهد قافلتين من الرقيق وثلاثة قوافل من الإبل في طريقها إلى مصر." [ص ١٣٦]. ويضيف "أن آلافاً من الإبل ترسل سنوياً من الأقاليم السودانية لسد حاجة مصر، كما أن الطلب على الرقيق لا يزال

متزايدا". [ص ١٢٦]. وفي مكان آخر من كتاب رحلته يذكر "أن القوارب تأتي من دنقلة إلى مصر محملة بالرقيق من الذكور والإناث". [ص ١٠٤]. وفي ذلك إشارة واضحة إلى أن تجارة دنقلة مع مصر كان بعضها يجد طريقه عبر الصحراء والبعض الآخر عبر نهر النيل. على أنه يشير في الوقت نفسه إلى ظاهرة خطيرة بدأت تهدد العلاقات التجارية التقليدية بين دنقلة وبعض مناطق السودان الأخرى، مع مصر، حين يتحدث عن تحول بعض تجارة هذه البلاد السودانية عن مصر إلى أقطار أخرى مجاورة بسبب النظام الجمركي الذي فرضته حكومة محمد علي في السودان على بعض السلع والمنتجات السودانية ذات القيمة التجارية مثل العاج والصمغ، فضلاً عن ظلم الحكام، إذ يقول "لقد أصبح نادراً مرور القوافل الكبيرة في الطريق الصحراوي إلى دنقلة والقادمة من سنار "ودهل" Dahl و"ساقية العبد" Saki-El-Abd، لأن طريق التجارة الداخلية تحول إلى طرق أخرى إلى بلاد بربر ومملكة تونس بسبب نظام الجمارك الداخلية غير المعقول والسخيف للغاية معاً، وكذلك بسبب ظلم حكام المناطق الداخلية الذين زادوا من صعوبة إدارة هذه المناطق النائية". [ص ١٢٠].

مدينة مروى (عام ١٨٢٧م)

يصف الرحالة بكلر مسكاو المنطقة التي تقع فيها مدينة مروى بأنها تضم ألفاً ومائتين ساقية، وأن المظهر العام لها يدل على انتعاشها وتقدم أهلها، فالقرى مبانيها أجود من مباني غيرها، والحقول تكسوها المحاصيل الزراعية الغنية. كما أن الشواطئ غنية بالكثير من قطعان الماشية. أما مدينة مروى ذاتها فيصفها بأنها تشمل بعض المنازل الحسنة ومن بينها مصنع النيلة الذي هو جدير بالمشاهدة. وفي منتصف الطريق بين "الدبة" و"مروى" تقع "أم أمبكول" Ambukol التي يصفها بأنها مقر الكاشف، وتقع فيها سوق في حقل رملي بالقرب من أكواخ القرية (قرية أمبكول). ونصف البضائع التي تعرض فيه من الصناعات الأوروبية مثل المرايا والآلات المعدنية البسيطة والخرز الزجاجي وبعض البفنة الإنجليزية الخشنة. أما باقي البضائع المعروضة فعبارة عن المنتجات الريفية، وبخاصة المواد الاستهلاكية. كما تعرض الصنادل الحجازية الملونة [ص ١٧٧]. أما المنطقة التي تقع فيها قرية "أمبكول" فيصفها "بأنها ليست كبيرة، ويوجد بها ثلثمائة وأربعون ساقية، بمعدل ساقية لكل ثمانية إلى عشرة أشخاص". [ص ١٧٩].

مدينة شندى (عام ١٨٢٧م):

وقبل أن يصف مدينة شندى يرجع إلى ما كانت عليه المدينة قبل أعمال الدفتردار التخريبية التي ارتكبها فيها، إذ يقول "إنها كانت قبل أن يدمرها الدفتردار مدينة مزدهرة

تقوم بنشاط تجارى كبير". [ص ٢٤٢]. ويمضى قائلاً: "إنه من المؤلم أن ينظر المرء إلى هذه المدينة التي كانت تضم فى الماضى خمسين ألف نسمة. فمنازلها المتهدمة لا زالت تمتد على جميع الجهات فى الحقول المجاورة التى أصبح قسم كبير منها مهجوراً". [ص ٢٥٣]. ثم يستطرد فيحدثنا عن موقف محمد على باشا من أعمال الدفتردار البشعة فى شندى، فيقول "إن محمد على وهو أكثر حنكة وسياسة من الدفتردار بذل جهده فى سبيل إزالة الأثر السيئ الذى تركه الدفتردار، فمعظم المشايخ فى هذه الجهات يتسلمون منه مكافآت، والشيخ بشير يتقاضى بمفرده خمسمائة قرشاً شهرياً من الحكومة، ويعد ذلك مبلغاً كبيراً". [ص ٢٥٣]. وربما كان لهذه السياسة الطيبة التى أخذ محمد على يسلكها مع مشايخ المنطقة التى تقع فيها شندى بعد أحداث الدفتردار المؤلمة، أثرها الواضح فى انتشار الأمن والطمأنينة فى ربوع هذه البلاد، ويذكر فى مكان آخر من كتابه "أن الطريق الصحراوى الذى يصل إلى شندى وتقطنه عرب الحسينية كان أيام الرحالة "بوركهارد" تكتنفه الكثير من المخاطر. أما الآن فى عهد محمد على فقد أصبح السير فيه آمناً كما هو الحال فى مصر". [ص ٢١٠].

مدينة المتممة (عام ١٨٣٧م):

ويصف مدينة المتممة ويقارنها بدنقلة التى تشبهها من بعض الوجوه بقوله "إن المتممة تقع مقابل شندى إلى الجنوب قليلاً. وهى فى حجم ومساحة دنقلة، وتشبهها فى بيوتها المبنية بالطوب الجاف المصنوع من الطفل (الطين)، ولكن منظرها العام أكثر إزدراء". [ص ٢٤٣]. ويصف لنا ما قام به الدفتردار فى المتممة من أعمال بشعة، وما خلفه من آثار سيئة، على نحو أكثر وضوحاً وتفصيلاً مما حدثنا به عنه فى شندى، إذ يقول "إن قسوة الدفتردار فى تلك المدينة ما زالت أثارها قائمة، فقد قتل الدفتردار ما يقرب من ستة آلاف نسمة. وبذلك تسبب فى إفقار البلاد من سكانها، على نحو ما فعل فى شندى. فحتى النساء صغاراً أو كباراً ممن فقدن أزواجهن أرسلهن جميعاً كرقيق إلى القاهرة. بيد أن محمد على عندما علم بذلك أمر بإطلاق سراحهن، وأنبه على قسوته". [ص ٣٢١]. ويصف لنا فى الوقت نفسه ما صار عليه حال مدينة المتممة بعد ذلك الدمار الذى أصابها على يد الدفتردار، وكيف عادت إليها الحياة والنشاط من جديد وبصورة تدعو إلى الإعجاب، فهو يقول: "إنه لأمر يدعو إلى الدهشة حقاً إنه بعد هذا التخريب والفرز استطاعت البلاد خلال خمس عشرة سنة أن تستعيد نشاطها، وتصبح مرة أخرى مدينة منتعشة يقدر سكانها بالآلاف. وقد عاودوا نشاطهم التجارى فى شتى نواحي التجارة، وكذلك نشاطهم الصناعى. فهم يصنعون نوعاً من البفتة يقومون بصباغتها بصبغة جميلة ذات لون أحمر قاتم، وأيضاً نوعاً من قماش الكتان الخشن الرمادى اللون، وأشكالاً من

الحصر على جانب كبير من الجمال، وكذلك سلماً وأوانى من سعف النخيل. ويباع ريش النعام هنا بكثرة بسعر زهيد يبلغ فرنك واحد فقط للرطل الذى يباع فى القاهرة بثلاثين فرنكاً". [ص ٢٤٣].

منطقة النيل الأزرق (عام ١٨٣٧م):

لقد وصل الرحالة بكلر مسكاوى فى رحلته فى السودان جنوباً إلى النيل الأزرق - كما سبق أن أوضحنا - حيث صعد النهر إلى "وادي مدني" Wady Medineh، ومنها سار إلى "ماسلينة" Masselineh التى تقع على مسيرة ثمانية فراسخ إلى الغرب من "وادي مدني". وقد وصف منطقة النيل الأزرق وصفاً متكاملأ تناول فيه طبيعة التربة فى المنطقة، ونشاط أهلها الزراعى والمشروعات الزراعية التى يمكن لحكومة محمد على فى السودان أن تقوم بها للنهوض بالزراعة وزيادة الإنتاج الزراعى فى هذه المنطقة، بالنظر إلى اتساعها وخصوبة تربتها، كما تناول نشاط أهل المنطقة الصناعى الذى امتازوا به، وكذلك نشاطهم الرعوى وثروتهم الحيوانية. كل ذلك جاء فى وصف الرحالة بكلر مسكاو للقرى الرئيسية التى زارها فى هذه المنطقة مثل قرية "نوبا" Nuba وقرية "ماسلينة" Masselineh، وقرية "وادي مدني" Wady Medineh.

كذلك فإن وصوله إلى منطقة النيل الأزرق وهى القريبة من حدود السودان المتاخمة للحبشة، ومشاهدته لمعالم الطبيعة فى هذه الجهات عن قرب، جعله يتناول الحديث عن منابع نهر النيل واحتمال أن تكون فى بلاد الحبشة المجاورة. حيث تسقط الأمطار الغزيرة على جبالها الشامخة. كما أنه تناول جانباً خطيراً من علاقة حكومة محمد على فى السودان بجيرانها الأحباش، إذ أشار إلى حملات قنص الرقيق التى اعتادت قواتها أن تقوم بها على حدود الحبشة كل عام، وما كان يتخللها من اعتداءات على الأحباش دفعتهم إلى بعض الأعمال الانتقامية ضد هذه القوات مما سنتناوله بالتفصيل فى حينه.

يصف طبيعة التربة فى منطقة النيل الأزرق "بأنها على درجة عالية من الخصوبة، بحيث أنه إذا ما سقطت كمية كبيرة من الأمطار فى إحدى السنوات، فإن المحاصيل الزراعية تكفى لسبع سنوات قادمة. ولكن لسوء الحظ لم يأت فصل غزير المطر منذ عشر سنوات، مما أدى إلى حدوث فاقة من حين لآخر. ومع ذلك فهم الآن يتوقعون حدوث البركة لأن موسم الأمطار ظهر مبكراً قبل موعده المعتاد بأربعين يوماً". [ص ٢٢٦]. ويصف مباني القرى فى هذه المنطقة بقوله "إن مباني قرى هذه الجهات - كما تبدو - تمتاز بأنها جيدة ومتسعة، ويملك الأهالي قطعاناً من الماعز والإبل تأتي إلى النهر لتستقى من مائه، مما يؤخذ عادة دليلاً على تقدم سكان هذه القرى". [ص ٢٢٤، ٢٢٦].

ويصف قرية نوبا، Nuba إحدى قرى منطقة النيل الأزرق التى زارها "بأنها تمتاز بجودة

أراضيها وبالحقول الخصبة التي تحيط بها، وأنه لا يوجد بها إلا القليل من السواقي لأن فصل الأمطار يكفي تقريباً لرى الأراضي لجميع الأغراض الزراعية." [ص ٣٢١]. أما قرية "مسلينة" Masselneh التي تقع إلى الغرب من قرية "وادي مدني" في اتجاه النيل الأبيض فيصفها بأنها قرية كبيرة أكثر نظافة وذوقاً في مبانيها من "قرية وادي مدني". ثم يتحدث عن النشاط التجاري فيها بقوله "ويعقد فيها (قرية مسلينة) سوق سنوي عظيم، بالإضافة إلى سوق كبيرة تعقد مرتان في الأسبوع؛ يوم الثلاثاء والسبت في سهل فسيح عند نهاية القرية. وفي هذه السوق تعرض الصنادل والأحذية (التمائم) والأسلحة وتراب الذهب وأدوات الزينة لملابس النساء، بالإضافة إلى منتجات الريف الزراعية والصناعية." [ص ٣٥٥]. ويصف المنتجات والصناعات الريفية التي اشتهرت بها قرى هذه البلاد بشئ من التفصيل معبراً عن إعجابه الشديد وتقديره الكبير لتلك الصناعات والمنتجات الريفية بقوله "إنها تشمل الحصر من سعف وألياف النخيل والتي يتخللها سيور جلدية ملونة تلويناً بديعاً، وهي تفوق نظائرها في أوروبا جمالاً وبهاءً وإبداعاً، وفي نفس الوقت أسعارها منخفضة جداً. ويقومون كذلك بصناعة الأطباق والأواني والكؤوس البدائية (البسيطة) ذات الأشكال المتنوعة من ثمار نبات القرع المختلفة التي تلون غالباً مثل الأواني الأتروسكونية برسوم الحيوانات التي يصور الكثير منها تصويراً بديعاً. وهذه الأواني خفيفة الوزن مثل الجلد، ومع ذلك فهي أكثر تحملاً، وسهلة التنظيف، كما أنه لا يعلق بها شئ من محتويات الطعام، كما هو الحال في الأواني الخشبية. ولا توجد سلطانية لبن أبسط وأجمل في صنعها من ثمرة القرع بعد نضجها." [ص ٣٦٤ - ٣٦٥]. ويضيف "أن الزيت غير معروف لدى أهالي الجنوب على النيل الأزرق، لذلك فهم يحرقون الزبد لإشعال مصابيحهم. كما يستخدمون الزبد بكميات كبيرة بدلاً من الدهان. ومن المحتمل أن يكون ذلك هو السبب الذي من أجله يكرهون الزبد كعنصر من عناصر الطعام." [ص ٣٢٠] ويستطرد قائلاً "إن هذه السلع تعرض بأثمان منخفضة جداً، ويحرص أهالي تلك الجهات على إخفاء الأشياء غير المتداولة في السوق لمدة عام يضطر المسافر (الزائر) الراغب في شرائها إلى الانتظار خلالها في مكان ما وقتاً طويلاً يكفي لإدخال الثقة في نفوسهم نحوه. ويرجع الدافع إلى ذلك أن الأتراك قد جرت عاداتهم أن يحصلوا على ما يريدون من تلك السلع إما كرهاً أو بضمن بخس جداً." [ص ٣٥٨].

أما عن المشروع الزراعي الذي اقترح على محمد علي باشا تنفيذه في منطقة النيل الأزرق والأراضي الواقعة بين النيل الأزرق والنيل الأبيض بعد زيارته لهذه الجهات ومشاهدة معالمها الطبيعية، فقد قدم له دراسة لظروف البلاد الطبيعية، وما كانت عليه هذه البلاد من انتعاش وازدهار في الماضي، ثم ما أصابها بعد ذلك من تدهور. وأخيراً ما يمكن أن ينالها من تقدم يعيدها إلى حالة الازدهار والانتعاش التي كانت عليها من قبل. وقد عبر عن ذلك بقوله "إن منطقة النيل الأزرق تمتاز بخصوبتها في كل بقعة من بقاعها.

وجزء منها يزرع عقب سقوط المطر. وقد كانت هذه المنطقة هي وجزء من شبه جزيرة مروى تروى وتزرع باستمرار، وتضم مدناً زاهرة وأهلة بسكانها، كما كانت تخرقها طرق القوافل. وإن الجهات المهجورة منها لا تحتاج إلا للرجال والمال، ونشر الصناعة لتصبح مرة أخرى منطقة منتعشة. "ويستطرد قائلاً" والدلتا الواقعة بين النيل الأزرق والنيل الأبيض، تمتاز بخصوبتها مع افتقارها إلى السكان. ولو أن محمد على ربطها بشبكة من الترغ والقنوات لكان ذلك معيناً لا ينضب من الخيرات الوفيرة." [ص ٣٧٢]. ويضيف "بأنه كتب إلى محمد على باشا تقارير مطولة عن هذا الموضوع، وأن الباشا وعد أن تكون موضع اهتمامه وعنايته. ويقول إنه أولى هذه الأقطار اهتماماً وعناية أكثر من ذي قبل." [ص ٣٧٢].

يقول عن الموضوع الخاص بالكشف عن منابع نهر النيل "لقد وصل خورشيد (حكمدار السودان) في استكشافاته جنوباً إلى خط عرض ٨ تقريباً" [ص ٣٠٢]، لكنه لم يشاهد ما يدل على وجود منابع النيل في هذا الاتجاه الذي تشير إليه خرائطنا. "ووفقاً لما دلت عليه احتمالاتنا نتيجة لذلك، فإن تلك الجبال التي ينبع منها تقع إلى الجنوب الشرقي، حيث الجبال الشامخة في أقاصى الحبشة. وقد وصل خورشيد إلى ذلك الاحتمال، بل إن محمد على نفسه وصل إليه، عندما كنا نتحدث عن بروس، إذ أبدى رأيه في أن منابع النيل الحقيقية يجب أن يبحث عنها فيما وراء الحبشة." [ص ٣٠١]. ويضيف قائلاً: "وعلى الرغم من أن منابع النيل كانت موضع بحث وكشف دون الوصول إلى نتيجة خلال أربعة آلاف سنة، فإننى واثق تمام الثقة بفضل ما حصلت عليه من المعلومات، ومعرفتى بتلك البقاع أنه لا توجد عقبات كأداء تحول دون اكتشافه، لو أننا اتبعنا وسائل الكشف الصحيحة." [ص ٣٠١]. ويستطرد: "ولا يسعنى هنا سوى أن أعبر عن دهشتى كيف أن دول أوروبا لم تفكر في تنظيم بعثة لهذا الغرض، وعلى رأس هذه الدول تلك الدولة الفتية الغنية انجلترا العظمى التي يروقها القيام بمثل هذه الأمور، بفضل ما جبل عليها أهلها من حب الترحال (الرحلات)، فضلاً عن قدرتهم على تنفيذ مثل هذا المشروع. ولو أن فرداً أو حكومة تعلن عن استعدادها للقيام بتلك المهمة وعن تحملها نفقات هذه الرحلة مع قناعة بأن الهدف منها هو زيادة المعرفة والعلم، فإنه لن توجد بعد ذلك ثمة صعوبة أياً كان نوعها في ضمان الحصول على التعضيد الكافي من الحكومة المصرية التي بدونها يتعثر دون شك تنفيذ مثل هذا المشروع" [ص ٣٠١].

ثانياً: دراسات الرحالة بكلر مسكاو فى شرق السودان وغربه

إقليم التاكا :

لقد حدثنا عن إقليم التاكا شرق السودان، فتناول موقع الإقليم الجغرافى، وطبيعة أراضيه، واتساع العاصمة التى تحمل اسم الإقليم، وموقف سكان الإقليم من دفع الضريبة لحكومة محمد على، مشيراً إلى بعض ما جاء فى كتاب الرحالة كايو Cailloud الفرنسى عن إقليم التاكا، إذ يقول "إن إقليم التاكا يقع حسب الخرائط التى وضعها الرحالة "كايوه" بين قوز رجب ونهر العظيرة والحبشة. وبعض الأهالى العديدين الذين يقطنون هذا الإقليم يدفع الضريبة للوالى (محمد على باشا)، ولكن لابد بصفة دائمة من استخدام قوة السلاح فى جمعها" [ص ٣٤٤].

ويضيف "أن سهول التاكا تمتاز بأنها متسعة، وأهله بالسكان، وصالحة جداً للزراعة. وعاصمة الإقليم التى تحمل اسمه ربما يبلغ اتساعها ستة أمثال الخرطوم" [ص ٣٤٤].

إقليم كردفان :

لقد قدم لنا الرحالة "بكلر مسكاو" دراسة هامة لإقليم كردفان تناول فيها وصف مدينة "الأبيض" عاصمة الإقليم، وثروة الإقليم الحيوانية والمعدنية، وبخاصة معدن الذهب، وما كان من أمر اهتمام حكومة محمد على باستخراجه من مناطقه فى مرتفعات "شبيون". ونظرة الأهالى المشوبة بالحقده على الحكومة لمنافستها لهم فى استخراج هذا المعدن النفيس. كما تضمنت هذه الدراسة عرض مشروع "هولرويد" Holroyd الزراعى الذى اقترحه على محمد على ليخدم المنطقة الواقعة بين النيل الأزرق والنيل الأبيض، ومنطقة كردفان المجاورة، فضلاً عما يعود عليه من منافع كثيرة، إذا ما تم تنفيذه. كذلك تناول فى دراسته لإقليم كردفان تحت حكم محمد على عملية فنص الرقيق من مناطق الزنوج فى الداخل، التى اعتادت الحكومة أن تقوم بها كل عام. كما أشار إلى انتشار تجارة الرقيق بين شعوب إفريقية الداخلية، والأسباب التى من أجلها يصبح منع هذه التجارة الشائنة أمراً صعباً على محمد على.

ويصف مدينة "الأبيض" عاصمة إقليم كردفان "بأنها أكثر الأماكن إتساعاً وإزدحاماً فى السودان الخاضع لحكومة مصر، ويزيد عدد سكانها على عشرين ألف نسمة، أغلبهم يسكنون فى أكواخ على شكل خيام ذات شكل طريف. والشخصيات البارزة هى التى تقطن منازل من الطفل (الطين) مثل التى فى الممتمة" [ص ٢٤٩]. أما عن طبيعة إقليم كردفان الرعوية وثورته الحيوانية فيصفها بقوله "إن جميع كردفان الشمالية تغطيها

السافانا التي لا حد لها، وأشجار السنط تنمو أحياناً منفردة، وأحياناً أخرى تنمو متجمعة على شكل غابات يوجد بها الزراف وقطعان من النعام وأعداد من التيتل من مختلف الأنواع" [ص ٢٤٩]. وعن الماشية التي اشتهر بها إقليم كردفان وقد أشار إلى ما سبق أن ذكره الدكتور هولرويد Holroyd في هذا الشأن من أن وفرة الماشية في شمال كردفان غير عادية إلى درجة كبيرة، وأن بعض السكان يملكون قطعاناً تزيد على عشرة آلاف رأس، وجميعها يجد مرعاه في السافانا. وهذا دليل على أن المياه لا بد أن تكون متوافرة أسفل سطح الأرض [ص ٢٤٩، ٢٥٠]. ويقول: "لقد كان من رأى الدكتور (هولرويد) أن هذه البلاد في الإمكان أن تتحول إلى أغنى البقاع في إفريقيا، لو أن قناة حفرت من "جبل موجل" أو من البحر (النيل) الأزرق إلى النيل الأبيض والتي لا يمكن تنفيذها دون صعوبة كبيرة. بهذه الوسيلة يمكن الحصول على جزيرة بين هذين النهرين حتى الخرطوم تكون أكثر ازدهاراً من مصر السفلى. وهنا سيكون المنجم الحقيقي لمحمد علي، إذ عن طريق زراعة القطن وقصب السكر والنيلة ومعظم أنواع الغلال،، وكذلك السنامكا التي تنمو نمواً سريعاً، يمكنه الحصول على موارد كبيرة" [ص ٢٥٠].

وعن الثروة المعدنية في إقليم كردفان يتحدث الرحالة "بكلر مسكاو" عن معدن الذهب بصفة خاصة وعن جهود حكومة محمد علي لاستخراجه من مناجمه هناك بقوله "إن مناجم ذهب كردفان تتركز في شيبون وقد أرسل محمد علي الخبراء النمساويين للكشف عن هذه المناجم تحت إشراف الرئيس "روسيجر" Russeger، وكان يرافق البعثة حرس كبير مؤلف من أربعمئة من المشاة ومائتين من الفرسان. وكان وجود مثل هذا الحرس لازماً في تلك المنطقة التي يوجد بها أقوام سود شجعان ميالون للقتال يملأ قلوبهم الحقد من أجل ذهبهم الذي كانوا يتابعون غسل ترابه، وإن كان ذلك يتم بطريقة غير متقنة، ولكن بقدر كبير من الصبر وطول الأناة. ومن هنا يتاجرون فيه على نطاق واسع مع كردفان وسنار بل ودنقلة أيضاً". [ص ٣٠٣]. ويضيف "أن مصطفى بك قد شغل من عهد قريب بالحرب معهم، فأحرق "شيبون" وأخضع بعض المناطق الجبلية هناك، لكن هذا كله لم يثبت أقدام المصريين هناك". [ص ٣٠٣].

وفي مكان آخر من الكتاب يشير إلى مناطق أخرى للذهب في كردفان بقوله: "إنه إلى الشرق من شيبون" توجد مرتفعات "أبو شفارة كفارمة" Abul Shaareh Kaarmeh في الغرب و"البورام" El-Bouram و"مهري" Mohri و"تنجور" Tangour إلى الجنوب من جبل "طيرة" Teerah وسهول بلاد "فرتيت" Fartit. وجبل "طيرة" يقع على مسيرة يوم من "شيبون". وجميع هذه الجبال المنفصلة أهلة جداً بالسكان الزوج الذين مثل النمل في كثرتهم. هذه الجبال المنفصلة والمنخفضة من المحتمل أن تكون امتداداً لسلسلة من الصخور الأولية التي تخترق إفريقيا من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، ويقول خبراء المعادن أنها تبدو الموطن الرئيسي لمعدن الذهب في هذا الجزء من العالم. وبين جبل "طيرة" وجبل

"تنجور" يوجد سهل ذو تربة رملية ناعمة غنية بتراب الذهب. ومع أن غسل تراب الذهب لا يتم بمهارة، إلا أن الرجل يمكن أن ينتج ما قيمته من فرنكين إلى ثلاثة فرنكات في اليوم. [ص ٢٠٨]. كذلك يشير إلى وجود معادن أخرى في إقليم كردفان، إذ يذكر أن هناك الأرض التي تغطيها الرمال الناعمة المبللة التي تحتوي علي صخر يستخرج منه معدن يقوم الأهالي بصهره وصناعة الأسلحة الجيدة جداً منه.

أما عن قنص الرقيق من المناطق الداخلية في إقليم كردفان التي يقطنها هؤلاء الزوج، وما يرتبط بهذا العمل من قيام تجارة شائعة شائعة بين شعوب إفريقية الداخلية هي تجارة الرقيق، فقد أمدنا الرحالة بمعلومات هامة في هذا الشأن، إذ يقول إن قنص الزوج المتوحشين في الداخل الذي يحدث بانتظام كل عام [ص ٢١٠-٢١١]، ليمد الحكومة بهؤلاء التعساء لهو عمل من أعمال البربرية الذي لا يقبل له عذر. إلا أن هذه التجارة تعم بين جميع شعوب إفريقية الداخلية، كما أنها تجارة مربحة لحكام الأقاليم الذين يقومون في الوقت نفسه بتجارتهم الخاصة بهم في الرقيق المأسورين، ويمدون أنفسهم بما يحتاجون إليه. لذلك فإنه سيكون من الصعب جداً على محمد علي أن يمنعها كلية [ص ٢٤٦]. ويضيف: إن أخا سلطان دارفور الذي يقيم لاجئاً في "الأبيض" منذ قيام الثورة في دارفور، هذا الأمير يقوم بتجارة مربحة في الأطفال المخصيين، ويجد راحة وسعادة في القيام هو وابنه بالجزء الأكبر من هذا العمل (خصي الأطفال) الذي يتم بطريقة بربرية بأيديهم" [ص ٢٥١]. ويستطرد: "وفي مصر العليا يوجد ديران مسيحيان (أقباط) مورد هما الرئيسى من عملية الخصى التي يقومون بها على نطاق واسع، حتى أنهم يمدون جميع بلاد مصر تقريباً وجزءاً من تركيا بهؤلاء المخصيين" [ص ٢٥١]. وأخيراً يحدثنا عن معاملة الأهالي في كردفان وفي الشرق بصفة عامة للرقيق بقوله: "إن هؤلاء الرقيق لا يعاملهم الأهالي في كردفان، كما في جهات الشرق بوجه عام معاملة قاسية، وإن كان الدكتور "هولرويد" قد شاهد (ولكن في منزل أوروبي) رجلين جدعت أنفاهما لمحاولتهما الفرار من أسرهم، وهو أمر مفزع، بيد أنه لا يقتصر على هؤلاء الرقيق وحدهم، لأنه في هذه البلاد يستطيع كل رجل أن يعامل أولئك الذين تحت يده كما يشاء" [ص ٢٥١].

يقول: "إن إقليم تقلى الجبلى يقع إلى الجنوب الشرقي من كردفان وهو أقل شأناً من الأقاليم الأخرى (دارفور وكردفان المجاورة). وعلى الرغم من وقوعه مباشرة بين كردفان وسنار، إلا أنه يمتاز بموقع حصين يشد أزره نظام حربى ممتاز. ومن هذا أصبح في استطاعة أهله الشجعان صد هجمات الأعداء. والحكومة صارمة للغاية، والسلطان الحالى شاب زكى (ذو شخصية) قوية قادر على أن يجمع جيشاً قوامه خمسين ألف رجل. وجميع الأراضي ملك للسلطان الذى له أيضاً السلطة على كل فرد من أفراد رعيتة. ومع ذلك يقال إنه يحكم شعبه حكماً عادلاً، ليس فيه قسوة أو جبروت" [ص ٢٠٤]. وعن نشاط أهل "تقلى" يقول: "إن الذهب يوجد في هذا الإقليم، والزواج الذين يقومون بغسل تراب

الذهب في منطقة "شيبون" المتاخمة للإقليم هم أولاً وقبل كل شيء في خدمة حاكم تقلى، وهم يقومون ببعض التجارة مع الجلابية الأجانب. ولا تبدو عليهم مظاهر الرفاهية التي تتجلى بوضوح داخل قصر السلطان." [ص ٣٠٥].

ويضيف الرحالة "بكلر مسكاو" إلى ذلك ما أكدده له مصطفى بك (حاكم كردفان) عن إمكانية دخول الأجانب إلى إقليم تقلى، معبراً عنه بالقول: "إن أى شخص أجنبي تبدو أغراضه واضحة مثل التاجر لا يجد صعوبة في الحصول على موافقة للدخول إلى تقلى، حيث لا يوجد تعصب ديني هناك" [ص ٣٠٦]، ويعلق على الناحية الدينية بالذات بقوله "ولكن مصطفى بك لا يعرف معرفة تامة إذا كان جميع السكان (سكان تقلى) قد اعتنقوا الإسلام" [ص ٣٠٦].

من الملاحظ أن إقليم دارفور لم يكن ضمن الأقاليم والمناطق السودانية التي قدر للرحالة "بكلر مسكاو" زيارتها عام ١٨٣٧ بيد أن اهتمامه بالتعرف على هذا الإقليم جعله يمدنا بمعلومات هامة عنه تضمنت عاصمة السلطنة التي هي مقر سلطان دارفور، وطبيعة الإقليم الجغرافية، من حيث مصادر المياه والحياة النباتية. وأخيراً موقف سلطان دارفور من كل أجنبي يرغب في دخول بلاده. يقول الرحالة "بكلر مسكاو": "إن كوبة ليست عاصمة سلطنة دارفور ومقر السلطان - كما تخبرنا بذلك المصورات الجغرافية - وإنما هي "تندلتى فاشر" Tendelti Fassir (الفاشر) التي لا توجد على خريطة. لقد كانت كوبة المقر التجارى فحسب، ولكن المدينة الأخرى التي تبدو أكثر جمالاً واتساعاً هي مقر الملك (السلطان) والشخصيات العظيمة. وعن طبيعة الإقليم الجغرافية يذكر "أنه لا يوجد في دارفور نهر كبير، وإنما توجد جداول مياه تتسع إلى أنهار، إلى جانب عدة آبار وأحواض مائية، ولذلك ليست هناك حاجة إلى ماء في أى مكان في الصحراء المجاورة. وتوجد غابات هناك. والأرض خصبة جداً، ومن المحاصيل الزراعية الفواكه مثل البرتقال والليمون والرمان والشمام وأنواع أخرى، كما توجد أصناف الخضر التي توجد في السودان وكردفان" [ص ٢٥٧]. أما عن موقف سلطان دارفور من الأجنبي الذي يرغب في دخول بلاده فيقول "إن سلطان دارفور يسمح لأى شخص (أجنبي) أن يدخل مقاطعاته، ولكن لا يسمح لأحد من الأجانب الذين دخلوها بمغادرتها" [ص ١٦٩]. ويضيف "أن الدكتور "إكن" Dr. Iken الذى قصد استثمار ثروته في دارفور يتحدث عن رجلين إنجليزيين كانا يقيمان معه هناك مدة خمس سنوات، وأنهما يعاملان معاملة حسنة ويجدون كل شئ متوافراً لديهم، ولكن حتى الآن لا يجدون وسيلة للهروب" [ص ١٦٩].

ثالثاً: الرحالة بكلم مسكاو وحكومة محمد على فى السودان

لقد تناول بالوصف والدراسة بعض مشروعات حكومة محمد على فى السودان فى مجال الزراعة والإنتاج الزراعى ، وفى مجال الثروة الحيوانية ، وفى مجال التعدين والصناعة ، وفى مجال التجارة المحلية والتجارة الخارجية . وفى مجال الزراعة والإنتاج الزراعى عنى "بكلر مسكاو" بمتابعة اهتمام الحكومة بإقامة السواقى فى كثير من قرى المناطق السودانية التى خضعت لها ، وما ترتب عليه من انتعاش الزراعة وزيادة المساحة المزروعة ووفرة الإنتاج الزراعى فى كثير من القرى التى شاهدها بنفسه . وقد قدم بيانات بالأرقام عن عدد السواقى فى هذه القرى . كذلك تحدث عن قرية أمبوكول التى وصفها "بأنها ليست كبيرة ، ولكن يوجد بها ثلاثمائة وأربعون ساقية ، وأن كل ساقية يملكها من ثمانية إلى عشرة أشخاص" [ص ١٧٩].

وفى مجال التعدين والصناعة حدثنا عن جهود حكومة محمد على فى الكشف عن المعادن فى بعض الأقاليم السودانية التى خضعت له ، وبخاصة الكشف عن معدن الذهب فى مرتفعات «شيبون» فى إقليم كردفان ، وما كان من أمر إرسال الخبراء الفنيين فى التعدين من الأوربيين [ص ٢٠٣]. كذلك حدثنا عن صناعة النيله التى أدخلها محمد على فى السودان ، فوصف مصنع النيله الذى أقامه فى مدينة دنقلة وأمدنا بمعلومات هامة عن نوع الإنتاج ومقدار ما ينتجه المصنع سنوياً والسعر الذى يباع به ، كذلك أشار إلى مصنع النيله الذى أقامته حكومة محمد على فى مدينة "مروى" ووصفه بأنه هو الجدير بالمشاهدة من بين المنازل والمنشآت الأخرى [ص ١٨١].

وفى مجال التجارة الداخلية حدثنا الرحالة "بكلر مسكاو" عن جهود حكومة محمد على فى السودان للنهوض بنظام التعامل بين السودانيين فى عمليات البيع والشراء ، وذلك بإصرارها على أن يكون هذا التعامل بعملة نقدية قيمتها ثابتة ، بدلاً من أثواب القماش الصغيرة التى اعتادوا التعامل بها فيما بينهم ، حتى لو كان فى هذا الإجراء ما يضايقهم [ص ١٥٢]. أما فى مجال التجارة الخارجية ، وبخاصة مع مصر ، فقد حدثنا عن حرص محمد على باشا على تنشيط الحركة التجارية بين مصر والسودان بتشجيع المصريين على شراء الماشية على وجه الخصوص من الأقاليم السودانية ، لوفرتها فى هذه الأقاليم وحاجة مصر إليها لخدمة الأغراض الزراعية بها ، تحقيقاً لمبدأ التعاون والتكامل الاقتصادى بين شطرى الوادى الذى سعى إلى تنفيذه بعد خضوعهما لحكومة واحدة [ص ٢١٠]. وقد ارتبط حرص حكومة محمد على على تنشيط حركة التجارة فى الأقاليم

السودانية التي خضعت لها، ومع مصر بصفة خاصة، اهتمامها الملحوظ بنشر الأمن والأمان في الطرق الصحراوية والنهرية التي ربطت بين البلدين.

وقد أبدى إعجابه وتقديره لجهود الحكومة في هذا الشأن، إلا أنه عاب سياستها في نواحي أخرى، ومنها نظام الرسوم الجمركية ونظام الاحتكار الذي فرضته على بعض السلع والمنتجات السودانية ذات القيمة التجارية. كذلك أبدى استياءه من تصرفات بعض الحكام وسوء معاملتهم للأهالي واعتدائهم على حرية الناس. فقد شاهد تاجراً غنياً وموظفاً قبطياً مرتبه الشهري ألف قرش وينفق أضعافه عشرين مرة، يشتريان جميع الغلال في مخازن الحكومة بسعر محدد، فإذا ما احتاج أحد المواطنين لشيء منها لغذائه اضطر بدافع الحاجة والضروة التي لا تمهله لانتظار المحصول الجديد إلى شرائه من هذين الشخصين بضعف أو ثلاثة أضعاف السعر المحدد، بينما يقسم الرجلان الأرباح فيما بينهما [ص ١٦٧].

كذلك لنتقد حملات قنص الرقيق التي اعتادت الحكومة القيام بها سنوياً في المناطق التي يقطنها هؤلاء الزوج في داخل كردفان، ومتاجرة الحكام وكبار الموظفين بهذه السلعة البشرية [ص ٣١٠، ٣١١، ٢٤٦].

لئن كان الأمير "بكلر مسكاو" قد عاب على محمد على تطبيقه بعض النظم في السودان، وأهمها النظام الجمركي ونظام الاحتكار -الذين قيادا حرية التجارة في الأقاليم السودانية التي خضعت له إلا أنه أبدى تأييده لنظام الضرائب الذي فرضه على الفلاحين في القرى السودانية والذي عابه معظم الرحالة الأوروبيين الذين سبقوه إلى زيارة السودان، واعتبروه نظاماً مجحفاً بالفلاحين السودانيين وأرجعوا إليه السبب الرئيسي في هجر الفلاحين قراهم إلى الصحارى والأقاليم المجاورة، وبالتالي ترك مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية دون زراعة. بل لقد ناقش أقوال هؤلاء الرحالة وأراءهم في هذا النظام الضريبي مثل الرحالة "كادلفين" Cadalvene الفرنسي الذي زار السودان عام ١٨٢٩م، ودافع عن وجهة نظر حكومة محمد على في السودان في فرضه، رغم أنه أورد بعض مساوئه عند حديثه عنه من حيث إلزام أفراد القرية ككل بدفعها، حتى لو كان بينهم المفلس أو العاجز عن دفعها. يقول إنه بالرغم من ذلك فقد اعتبر الأمير بكلر مسكاو الضريبة التي فرضها "محمد على" على الفلاحين في قرى السودان غير مجحفة بالدرجة التي يتصورها البعض. بل إنها على حد تعبيره تدفع الفلاحين على الجد والعمل، إذ يقول "إن الضرائب التي يدفعها الأهالي في منطقة دنقلة والبلاد الممتدة حتى شندى تفرض على السواقي،، ويدعى كادلفين زوراً وبهتاناً أن الحكومة تقسو في تقديرها، إذ أنها تصل إلى ٢٢ دولاراً عن كل ساقية، كما أن الفلاح عليه أن يقدم للحكومة مقداراً غير محدود من المحصول الذي يضطر بعد ذلك لشراؤه من الحكومة بأسعار مرتفعة- لكن الحقيقة أن الساقية الكبيرة التي تستطيع أن تروى أربعة أفدنة وتنتج في المحصول الأول ٤٠ أردباً، هذه الساقية تقدر الضريبة المفروضة عليها بـ ١٥ دولاراً فقط، وأما الساقية الصغيرة فيقل

مقدار الضريبة المقرر عليها . ولا يدفع الفلاح بالإضافة إلى الضريبة النقدية ضريبة أخرى عينية من المحصول ، إلا أنه ترك لرؤساء الأقسام الحق في أخذ جزء من الضريبة عيناً طبقاً للتعريف التي تحددها الحكومة سنوياً (وهذه الحصة العينية لا تزيد قانوناً على خمسة أراذب) [ص ١٧٣].

ويعلق الأمير بكلر مسكاو على هذا النظام الضريبي الذي فرضته حكومة محمد علي في السودان بقوله : "وإن هذا النظام من شأنه أن يؤدي إلى مساوئ، ولكن من جهة أخرى إذا كان الرؤساء أمناء فإنه يسهل على الفلاحين دفع الضرائب المقررة عليهم بصفة مستمرة فقد شاهدت بنفسى أمثلة عديدة أثناء رحلتي في هذه البلاد تؤكد أن الفلاحين يفضلون دفع الضريبة عيناً ، وليس صحيحاً ما تذكره الكتب من أن الفلاح يجب عليه أن يسلم للحكومة جميع المحصول الذي جمعه بسعر منخفض ثم يشتريه فيما بعد بسعر مرتفع ، إذ الحقيقة أن الفلاح يقدم جزءاً من الضريبة المفروضة عليه عيناً من محصوله ، ويخصم ثمنه من جملة الضريبة المستحقة عليه . وإذا اضطرت خسارة المحصول أو سوء الإدارة أو أى ظرف آخر إلى شراء بذور التقاوى من الحكومة فإنه في مثل هذه الحالة يجب عليه أن يشتريها بسعر يزيد على السعر الذي سلم به للحكومة ، ولكن دائماً طبقاً للسعر المحدد . وفي هذه السنة وضعت الحكومة الأسعار بحيث لا يزيد الفرق بين سعر التسليم والسعر الذي يباع به للفلاح على قرشين مصريين لأردب الذرة ، وثلاثة قروش لأردب الشعير ، وعشرة قروش لأردب القمح" [ص ١٧٤]. ويمضى في تعليقه قائلاً "وإذا استدان الفلاح إما لسوء معاملة الموظفين . وهو أمر دون شك غالباً ، أو لإهماله هو وكسله ، وهذا ليس قليل الحدوث ، فإن حالته تصبح حقيقة سيئة ، ولكن من ليس منهم مديناً بشئ للحكومة تكون له حرية التصرف في كل محصوله بعد دفع الضريبة المقررة عليه . أما الضريبة التي تفرض بعد ذلك على الحبوب التي تباع في المدن فإنها لا تقع على عاتق الفلاح وإنما على عاتق التاجر الذي يتعامل فيها" . [ص ١٧٤].

ويختم الأمير مناقشته لنظام محمد علي الضريبي في السودان بإبداء رأيه الصريح في هذا النظام إذ يقول أنه مقتنع اقتناعاً تاماً عن طريق المشاهدة أن ما تتطلبه الحكومة من الفلاحين بالنظر لخصوبة التربة في هذا الإقليم خصوبة غير عادية ، بحيث تنتج الأرض عشرة أمثال ما تنتجه في الأقاليم الأخرى لا يعد مجحفاً على الإطلاق . إذ أن كل شخص بعد دفع الضريبة المستحقة عليه يستطيع بقليل من التدبير والمثابرة أن يكتسب قوته الضروري وقوت أسرته ، وإن كان لا يستطيع أن يخترن مقادير كبيرة منه . وإن أى شخص عرف ولاحظ جيداً سكان هذا الإقليم ينبغي أن يعترف أن هذا النظام بالضبط أنسب لحالهم ، فهو النظام الوحيد الذي يستطيع أن يجنبهم الكسل والتدهور ، لأنه يدفعهم للعمل . ولو أن الإدارة هنا استطاعت أن تنفذ مطالب الحكومة فحسب ، فإنه لن يكون هناك بؤس بين السكان ، كذلك لن تكون هناك هجرة من الحقول ، بل سوف تكون في

ممتلكات محمد علي طبقات عاملة ليس على النمط الحديث الذي نشاهده الآن (في أوروبا)، وإنما وفقاً لفلسفة عملية يمكن "لفولتير" أن يقول بمقتضاها "إن في مصر لويس الرابع عشر"، ذلك أن حاجة الإنسان ينبغي أن تنقص للضرورة، لأن هذا يدفعه للعمل، وتلك هي طبيعة البشر (وهذا ما ينطبق على الفلاح أكثر من غيره). ينبغي أن يكون العدد الأكبر فقيراً وليس بائساً - هذا هو رأي محمد علي أيضاً. وإنه لمن الحماقة أن نرغب في أن يعيش جميع الناس في رغد من العيش، لأن تحقيق ذلك مستحيل.

مصادر البحث

أولاً- المصدر الأصلي

- Puckler, Muskau: Egypt under Mehemet Ali, (2 vols.). London 1845.

ثانياً- المصادر الثانوية

- Richard Hill: Biographical Dictionary of the Anglo-Egyptian Sudan. Oxford 1951.

- دكتور نسيم مقار: الأسس التاريخية للتكامل الاقتصادي بين مصر والسودان - دراسة في العلاقات الاقتصادية المصرية السودانية (١٨٢١-١٨٤٨) - القاهرة ١٩٨٥.

الفصل السابع

الرحالة فرديناند قرن F.Werne

ظروف رحلاته إلى السودان :

الرحالة "فرديناند قرن F. Werne" ألماني الجنسية من مقاطعة وستفاليا. يتبين لنا من روايته عن نفسه أنه كان قبطان سفينة ومهندساً، وأنه قضى فترة من عمره في بلاد اليونان يحتمل أنه شغل خلالها بالحرب التي كانت قائمة وقتذاك ضد السلطات الحاكمة. ثم سافر إلى السودان، حيث التحق بخدمة حكومة محمد علي. وقد كان له أخ يعمل طبيباً بإدارة الشؤون الطبية المصرية، وقد توفي بالخرطوم. ولقد اشترك "قرن" في حملة الحكمدار أحمد باشا "أبو ودان" على إقليم التاكا بشرق السودان عام ١٨٤٠، حيث أشرف على إقامة السد الذي أمر هذا الحكمدار ببنائه على مجرى حوض القاش، ليحول مياهه إلى نهر العطبرة، فيضطر الهدندوة سكان هذه الجهات إلى التسليم والخضوع للحكومة. وفي إقليم التاكا، حيث أنشأ الحكمدار أحمد باشا "أبو ودان" مديرية التاكا الجديدة، واتخذ كسلا عاصمة لها، أقام قرن سبعة شهور، استطاع خلالها أن يقف على أحوال تلك البلاد، وطبيعة سكانها، وعلاقتهم بجيرانهم^(١).

ثم رافق "قرن" حملة البكباشي المصري سليم قبطان الثانية التي أرسلها محمد علي في النيل الأبيض للكشف عن منابع نهر النيل جنوباً (عام ١٨٤٠ - ١٨٤١)، فأتاحت له فرصة زيارة مناطق بعيدة في السودان الجنوبي وأواسط إفريقية. ظلت حتى ذلك الوقت مجهولة وبعيدة عن أنظار الرحالة والمكتشفين الأوروبيين.

وقد سجل "قرن" مشاهداته ودراساته في أقاليم السودان المختلفة التي زارها في ثلاثة مؤلفات باللغة الألمانية :

الأول : "Feldzug von Sennar nach Taka" (Stuttgart, 1851) وقد ترجم إلى اللغة الإنجليزية عام ١٨٥٢ تحت عنوان "African Wonderings" وقد وصف "قرن" في هذا المؤلف حملة الحكمدار أحمد باشا "أبو ودان" العسكرية على إقليم التاكا لضمه إلى الإدارة المصرية عام ١٨٤٠.

والثاني : "Reise durch Sennar, nach Mander, Masiib, Gheli" (Berlin, 1852.) وقد ضمن "قرن" هذا المؤلف وصفاً لسهل البطانة بين نهري العطبرة والنيل الأزرق بالسودان الشرقي.

(1) Werne: Expedition to discover the sources of the white Nile in the years 1840 / 1841, Vol. I, p. 17 & vol.

والثالث: "Expedition Zur Entdeckung der Quellen des Weissen Nils" (Berlin, 1848) وقد ترجم هذا المؤلف إلى اللغة الإنجليزية في لندن عام ١٨٤٩ تحت عنوان: "Expedition to Discover the Sources of the White Nile in the Years, 1840, 1841." (London, 1849)

وهذا المؤلف يعد بحق المصدر الرئيسي لحملة البكباشى المصرى سليم قبطان الثانية للكشف عن منابع النيل كما يدل عليه عنوانه. ويمكن للباحث أن يستدل على أهمية هذا المؤلف فى ذلك الشأن إذا علم أن المصادر الأخرى لتلك الحملة الكشفية وأهمها التقرير الذى وضعه "دارنو" D'Arnaud الذى كان أيضاً برفقتها لم ينشر حتى الآن، ولا يزال محفوظاً فى مكتبة الجمعية الجغرافية بباريس. فضلاً عما امتازت به مشاهداته ودراساته من الدقة التى نلمسها بصورة واضحة فى حديثه عن سياسة الحكمدار أحمد باشا "أبو ودان" فى الحكم وبخاصة فى الشؤون الإدارية والمالية، والتى دللنا على صحتها ودقتها بما ورد فى هذا الشأن فى الوثائق والمكاتبات الرسمية من ذلك العهد. التى قدر لنا الاطلاع عليها فى أرشيف سراى عابدين بالقاهرة (القصر الجمهورى).

أولاً: مشاهدات "قرن" ودراساته فى أقاليم السودان الشمالى:
لعل من أهم الموضوعات التى عالجها "قرن" فى كتابه هى السياسة التى انتهجها الحكمدار أحمد باشا "أبو ودان" فى إدارة وحكم السودان (١٨٢٨-١٨٤٣). كما تناول بصفة خاصة نشأة مدينة الخرطوم العاصمة الجديدة للسودان على عهد محمد على، والتطور الذى أصابها خلال حكمه أحمد باشا "أبو ودان"، وما قام به الحكمدار أحمد باشا "أبو ودان" من إصلاحات لعمرانها والنهوض بها وحمايتها من الأوبئة وأخطار الفيضان. كذلك حدثنا "قرن" عن القبائل الرعوية فى السودان الشمالى وهى البقارة والكبابيش.

سياسة الحكمدار أحمد باشا "أبو ودان" فى حكم السودان:
يجمع الرحالة الذين زاروا السودان مدة حكم الحكمدار أحمد باشا "أبو ودان"، وكذلك المورخون السودانيون على القول بأن هذا الحكمدار كان من أقوى الشخصيات التى حكمت السودان على عهد محمد على وأشداهم بأساً (١).
ويشبه "قرن" السودان على عهد أحمد باشا "أبو ودان" بروسيا زمن القيصر نيقولا، من حيث أنه كان مثار رعب فى نفوس الموظفين المصريين والترک الذين كانوا -على حد قوله- يبدون كالخرس أمامه لا يجرؤ أحد منهم على الكلام، وحتى الموظفين الأوروبين،

(1)Robinson: the rulers of the Sudan.... Journal of African Society, Vol. XXIV, P 42.

وإن لم يستخدم معهم الشدة التي كان يعامل بها الموظفين الآخرين، إلا أنهم لم يسلموا من إهاناته.

ويصف "قرن" شدة بأس الحكمدار أحمد باشا "أبو ودان" وصرامته في معاملة الموظفين، وبخاصة المرتشين والمختلسين منهم بقوله "إن أحمد باشا لم يقنع بما كشف من اختلاس وتزوير حسابات السنوات الماضية، وبما أنجز من مراجعة هذه الحسابات، بل أخذ يعاقب هؤلاء الموظفين المختلسين لاختلاساتهم، فلم يعد أحد منهم يمتلك شيئاً سوى رداءه الحقيقير، إذ أن كل ما كانوا يمتلكونه قد تم بيعه، المنزل والحديقة والملابس، والأدوات المنزلية وأدوات المطبخ. وباختصار كل شيء حتى الأبسط والأغصية التي كانوا يستعملونها أثناء نومهم وأثناء راحتهم. وقد وضعت أثمان هذه الأشياء في الخزانة العامة." [ص ٢٧ قرن]. ويستطرد قائلاً: "حقيقة أن جميع الموظفين الأتراك تقريباً خائنون ويعملون من أجل إثراء أنفسهم أو اختلاس أموال الدولة. بيد أن المبلغ الذي يثبت على الموظف اختلاسه يكون في العادة ضعف أو أربعة أضعاف ما يمتلكه. وفي هذه الحالة يستولى علي جميع ممتلكاته، وإذا رغب في أن يظل في منصبه (لتسديد ما عليه) فإنه لا يعطى من أجره إلا مقداراً من الذرة وأما الباقي فيخصم من دينه ويوضع في الخزانة." [ص ٢٧ قرن]. ويستطرد "قرن" قائلاً وفي بعض الحالات يحكم على الذين اشتركوا مع الموظفين في جريمة الاختلاس بأن يسددوا ما تبقى عليه من دين بعد بيع ممتلكاته. وقد يكون من بين هؤلاء الشركاء من كان موظفاً كبيراً عند الباشا سابقاً أو زميلاً له أو رفيقاً للمحصل. وهذا الحكم يتبع عادة عندما يكون الشركاء من القبط. والكثير منهم يشنقون لمجرد إشاعة الرعب في النفوس" [ص ٢٧، ٢٨].

على أن هذه الشدة والصرامة التي اتسمت بها سياسة الحكمدار أحمد باشا "أبو ودان" فيما يبدو اقتصرت بصفة خاصة على الحكام والموظفين المرتشين والمختلسين وعلى المشتركين معهم في أعمال الرشوة والاختلاس، ولا يوجد ما يشير إلى أنه عامل بها المواطنين السودانيين العاديين أو شيوخهم، بل على العكس من ذلك عامل شيوخ وزعماء القبائل، ولا سيما من لهم سطوة ونفوذ واضح على قبائلهم وشعوبهم، معاملة طيبة وذلك لخدمة المصالح العليا للحكومة (أو بما يوصف بحسن السياسة). وهو ما يشير إليه الرحالة "قرن" نفسه في حديثه عن حملة الحكمدار أحمد باشا "أبو ودان" على المرتفعات المجاورة لمناطق فازوغلي والكاميل الشهيرة بمعدن الذهب. إذ يقول: "إن أحمد باشا (الحكمدار) كان قد أخضع في حملة، سكان جبل "طابي" Tabi و"أبا رقرق" و"سنجة" Singue، و"بني شنقول" (على مسيرة ١٢ يوماً خلف فازوغلي)، ودخل في سلم معهم، كما استعان بالشيخ سليمان الذي كانت مقاطعته تمتد من "أبا ناندي" Aba Nande أسفل الروصيرص حتى "فازوغلي" على حمل رؤساء هذه المناطق على طاعة الباشا. وكان سليمان رغم كبر سنه يتمتع بمكانة وسمعة قوية بينهم. ولكن محمد علي كان حانقاً على

شيوخ جبال فازوغلى والكمامل لعدم إظهارهم الولاء والخضوع له. ولذلك أخذ أحمد باشا يتبع سياسة المهادنة وإرسال الهدايا إلى رؤساء الكمامل حيث توجد أغنى مناجم للذهب هناك، وإلى رؤساء "فازانجور" Fazangur و"دهب" Duhb، وحتى إلى رؤساء "جلا" وإلى "أبو ساروت" Abu Sarrot الذى كان يثير الرعب فى جميع الجبال الواقعة خلف فازوغلى الذى كان قد تسلم هدايا من السيوف والملابس التركية من محمد على، ولكن بعد مضى ١٤ يوماً عاد إلى السلب فنهب جميع مخازن البارود واستولى على البقر والإبل [ص ٤٢-٤٣].

ويتناول الرحالة "قرن" سياسة أحمد باشا "أبو ودان" المالية ويقارنها بسياسة سلفه الحكمدار خورشيد باشا فيقول: "بالإضافة إلى الأموال التى كانت مصر ترسلها إلى السودان لإعانة الجيوش، كان الذهب الذى يرسل من فازوغلى وكردقان إلى القاهرة ليضرب نقوداً، يرد بالتالى إلى السودان، لأن خورشيد كان دائم الشكوى من خلو الخزانة من المال [ص ٣٥]. "أما أحمد باشا فقد عرف كيف يزود نفسه بالذهب اللازم. وقد أرسل إلى مالية العزيز أربعة آلاف كيس من الفائض من الخزانة. ولكى يظهر أنه أحسن من سلفه أرسل إليه هدية من ألف وخمسمائة أوقية من الذهب وإلى جانب ذلك كان ينفق نفقات كبيرة، إذ كان يدفع للعساكر أكثر مما كان يدفعه لهم خورشيد باشا مرة ونصف، كما اشترى آلافاً من الإبل والحمير لحاجة "الغزوة" إليها فى عمليات النقل." [ص ٣٥].

ويعلق "قرن" على هذه السياسة المالية التى انتهجها الحكمدار أحمد باشا "أبو ودان" فى السودان، معبراً عن رأيه فيها بصراحة وموضوعية بقوله: "وإن المرء قد يستنتج من ذلك أن إصلاحاً شاملاً فى نظام الحكومة قد تم على يد هذا الباشا، وأن اتعاشاً فى الزراعة قد جاء بتلك الأموال وذلك الذهب، ولكن هذا الفائض الذى حصل عليه، إنما قد جاء من مصادر ونواح أخرى أكثر مما هو نتيجة لتقدم البلاد وازدهارها. فإذا كانت الضرائب المباشرة لم تدفع بانتظام عن طريق الكشاف، فإن لدى أحمد باشا وسائل أخرى عديدة يضغط بها على الأهالى للحصول على الذهب، ومنها فرض الضرائب الجائرة من المال والذهب" [ص ٩٥]، وبيع الغلال من شئون الحكومة ومزارعها، وكذلك الغنائم والأسلاب التى يحصل عليها من "غزوات" قنص الرقيق [ص ٣٥، ٣٦].

على أن "قرن" لا ينكر فى الوقت نفسه على الحكمدار أحمد باشا أبو ودان قيامه ببعض الإصلاحات والمشروعات العمرانية. فهو يذكر أن زراعة النخيل التى يمكن أن تكون مصدر خير وبركة على البلاد، كانت فى سنار كما هو الحال فى التاكا ذات الخصوبة الخارقة للعادة، مهملة إهمالاً تاماً، رغم أن البساتين القريبة من مدينة سنار، وكذلك الحدائق الكثيرة فى الخرطوم تعطى لنا الأمثلة الحية على الفوائد الكثيرة التى يمكن أن تجنى من شتل بعض أنواع النبات والزرع إلى هذه المناطق الجنوبية. ويقول: "إن أحمد باشا قد نقل إلى سنار بطريق النهر ستة آلاف نخلة صغيرة، حيث اختار لغرسها أرضاً واطئة جداً حتى تفيض عليها مياه الفيضان ويوفر تكاليف ربيها." [ص ٩٨].

مشروعات الحكمدار أحمد باشا "أبو ودان" في الخرطوم:

من الملاحظ أن الإدارة المصرية في السودان (حكومة الفتح الأول ١٨٢٠/١٨٢١م) لم يقع اختيارها على إحدى المدن السودانية مثل بربر أو سنار أو الأبيض لتكون عاصمة البلاد ومقر الحكومة الجديدة، وإنما اختارت موقعا وسطا عند ملتقى النيل الأزرق بالنيل الأبيض وأقامت عليه مدينة الخرطوم الحالية (١). ويعرض لنا "قرن" نشأة مدينة الخرطوم وطبيعة موقعها الجغرافي، وما قام به الحكمدار السابق خورشيد باشا الذي يرجح أنه المؤسس الحقيقي للخرطوم من منشآت عمرانها، إذ يقول: "إن الخرطوم عاصمة بلاد السوان التي يعيش فيها الآن خليط من السكان يبلغ عددهم حوالي ثلاثين ألف نسمة، وتقع حسب تقرير "دوق بول ولیم" Duke Paul William (الذي زار السودان عام ١٨٤٠) على خط عرض ٢٥° ٤١' ١٥" شمالاً، كانت منذ بضع سنوات عبارة عن أكواخ لصيادي الأسماك، وعلى لسان من اليابس يمتد من المدينة شمالاً تجاه مدخل النيل الأبيض كانت توجد الحقول والحدائق. ومن هنا حدث التوسع لهذه المدينة في اتجاه النيل الأزرق فصاعداً إلى الجنوب الشرقي، وهكذا اتسع نطاق الحدائق على هذا الجانب الرئيسي، بينما توجد أكواخ المواطنين مبعثرة على حافة النيل الأبيض. وهذه المجموعة الصغيرة من البيوت الكائنة في مكان أكواخ الصيد تسمى "البلد" ومعناها القرية (بخلاف المدينة)" [ص ٥٥].

ويمضي "قرن" في حديثه قائلاً: "ومن الجائز أن خورشيد باشا كان المؤسس الحقيقي للخرطوم، لأنه جعلها مقراً له، كما أنشأ فيها مزيداً من المنشآت العامة، بالإضافة إلى المرقأ الذي أقامه على النيل الأبيض، وكذلك على النيل الأزرق. وباستثناء الجامع والسوق، فإن جميع البيوت من الخشب أو من الأحجار. والبيوت المنشأة حديثاً ضيقة بحيث تتسبب في وجود البرك التي تضر بالصحة العامة ضرراً بليغاً". [ص ٥٥]. ثم يتناول "قرن" المشروعات العمرانية التي قام بها الحكمدار أحمد باشا "أبو ودان" في الخرطوم وقد شاهد تلك المشروعات بنفسه، بل ربما اشترك في تنفيذ بعضها بحكم عمله كمهندس. يقول: "لقد أحس أحمد باشا بالأضرار الصحية التي تنجم عن وجود البرك داخل المدينة. لأنه هو نفسه وقع فريسة للحميات، فأراد أن يتلافى أضرار هذا الموقع غير الصحي لتلك المدينة، ليس بردم هذه البرك عن طريق هدم المنازل المجاورة لها فحسب، بل بالعمل على توسيع الشوارع ليتجدد فيها الهواء. ولكي يجعل المدينة في مأمن من أي خطر قد تتعرض له من جراء فيضان النيل الأزرق، قام بتقوية جسور النهر بتعليقها وتعريضها وغرس الأشجار عليها. وبالطريقة ذاتها أقام حائطاً طويلاً بمحاذاة النيل الأبيض، وترك

(1) Walkley: the story of Khartoum, S. M. S. R., Vol. XIII, P.P. 22-5-8.

مساحة واسعة من الأراضي الرملية تحت الزراعة. ثم طلب عمل رسم تخطيطي لموقع الخرطوم أنجز بسرعة، ولو أنه على مقياس كبير. [ص ٥٥].

ويبدو أن الرحالة "قرن"، قد أعجب بهذا الطابع العملي لشخصية الحكمدار أحمد باشا أبو ودان مما يفسر بسعة أفق هذا الحكمدار وإدراكه لقيمة العلوم التطبيقية سواء في مجال الهندسة أو الطب وأهميتها في خدمة الحياة البشرية وتطويرها، إذ نراه يعلق على تلك الجهود التي قام بها الحكمدار أحمد باشا أبو ودان للنهوض بالخرطوم مدنياً وصحياً بقوله "والواقع أن أحمد باشا كان رجلاً عملياً، إذ كان يرى أن كل شخص ينبغي أن يكون على قدر من المعرفة بالعلوم التطبيقية مثل الهندسة الطب." [ص ٥٦]. ويمضى في وصف المشروعات الأخرى بقوله أن النيل الأزرق يفيض تقريباً تحت منازل الخرطوم، وقد ألقى بكثير من الرمال خلال الأعوام القليلة الماضية على شاطئه الشرقي من قرية "هبة" Hubba إلى جزيرة "توتى" Tuti. حتى أن سكان هذه القرية الكبيرة يضطرون حين تهدأ المياه إلى أن يذهبوا بعيداً... كما أن سكان الجزيرة يخوضون النهر إلى الشاطئ الأيمن. ولقد لاحظ أحمد باشا كل ذلك جيداً عندما سافرنا سوياً بطريق النيل إلى "طومانيات" Tomaniat جنوب الحلفاية، حيث استولى على أجود الحقول من الشايقية بطريق غير قانوني، وأمر بعمل خمسين ساقية. لذلك وحتى يجنب المدينة ما قد تتعرض له من أخطار في المستقبل - أحدث شقاً (كسراً) عند انحناء الشاطئ الأيمن بالقرب من "توتى" ليحمل الرمل من "هبة" بواسطة قناة، وليعمق مجرى النهر هناك. [ص ٦٢، ٦٤].

ويكشف "قرن" عن الدوافع الحقيقية لقيام أحمد باشا أبو ودان بتلك الإصلاحات العمرانية في مدينة الخرطوم بقوله "ومهما يكن من أمر، فإن الفكرة التي كانت تجول بخاطره ويتوق إلى تحقيقها هي أن يجعل مقر حكمه حصيناً، ويقوم المصانع على جزيرة "توتى"، ويجعل من الخرطوم جزيرة بأن يصل النيل الأزرق والنيل الأبيض بقناة، لأن مثل هذه القناة كانت قائمة فيما مضى بين "سوبا" والنيل الأبيض، والقدماء يرون أن النيل الأبيض والنيل الأزرق كانا يلتقيان سوياً هناك." [ص ٦٤].

البقارة

البقارة من القبائل الرعوية الهامة التي تنتشر في مساحة كبيرة من السودان الشمالي، ولها شهرتها الواسعة في تاريخ السودان الاقصادى في مجال النشاط الرعوى وتربية الماشية والخيول والأغنام. ولقد أمدنا الرحالة "قرن" بمعلومات وحقائق هامة عن هؤلاء البقارة خلال زيارته أقاليم السودان الشمالي عندما كان يعمل كمهندس في حكومة محمد على في السودان كما أمدنا بمعلومات عنهم خلال رحلته إلى أقاليم السوان الجنوبي وأعلى النيل برفقة حملة البكباشى سليم قبطان الثانية. ففي القسم الأول من كتاب رحلة "قرن" في السودان الشمالي يتناول البقارة بقوله: "البقارة (رعاة البقر) قبيلة عربية تنتشر على مساحة كبيرة تقطن بعيداً شمال مجرى النيل الأبيض، وتمتلك البلاد الممتدة حتى كردفان، واسم البقارة يجمع بين عدد كبير من القبائل الرعوية البدوية التي تعتبر فروعاً من نفس الأصل. وعلى الرغم من أنها أخذت تحتل أماكن مختلفة وتحمل أسماء مختلفة، إلا أنها ارتبطت بالتدريج بالاسم الأصلي لعنصرها، وذلك بعد أن تفرقت بحثاً وراء المناطق الرعوية أو تشتتت من جراء الخصومات والمنازعات." [ص ٧٩]. ويستطرد قائلاً: "وبالنظر لرابطة الأصل الواحد، فإنه لا تقوم بينهم حروب. وقد ظلت أرض المرعى باستمرار لا نزاع عليها فيما بينهم منذ أقدم الأزمنة، والقبائل الأخرى معترفة بذلك." [ص ٧٩].

ثم يصف علاقات البقارة بجيرانهم من الشلك والدينكا، ويقارن بين مواقف كل من البقارة على الجانب الأيسر والجانب الأيمن للنيل الأبيض. كما يصف موقف حكومة محمد على في السودان من البقارة، ويقارنه بموقف مملكة الفونج منهم بقوله "والبقارة هنا على الشاطئ الأيسر للنيل الأبيض كلهم فرسان مما يمكنهم من شن غارات جريئة على أراضي الشلك والدينكا (وهم ليسوا فرسان مثلهم)، بخلاف البقارة على الجانب الأيمن للنهر في إقليم سنار، فهم خاضعون (مسالمون) يقومون مع أسرهم بتربية الماشية تاركين مهمة حراسة الخيام لنسائهم وأطفالهم. أما هم فيتنقلون من مكان لآخر، ويضرمون النار في المساء لظهي الطعام أمام كل خيمة. والحقيقة أنه بالنظر لصعوبة حركتهم يفرض عليهم الباشا الجزية، ويعاملون معاملة الخصوم. وفي هذا الشأن يتساوى الفونج مع الأتراك." [ص ٧٩]. ويستطرد "قرن" قائلاً والبقارة يضطرون أيضاً إلى الذهاب إلى الشاطئ للماء وللرعى. وفي تلك الأثناء يكمن لهم الشلك من حين لآخر، ويسلبونهم وينهبونهم. وهم بذلك ينتقمون لما لحق بهم، ويجازونهم بمثل جزائهم." [ص ٨٠]. ويصف لنا كيف كان الشلك ينقضون على أعدائهم من البقارة قائلاً "ولقد علمت أن الشلك

الذين يقيمون في هذه الأجزاء على جزر النهر وعلى كلا الشاطئين، ولكن بعيداً إلى الشمال على الشاطئ الأيسر فقط، يقومون بحملات النهب والسلب بمهارة خارقة للعادة، إذ هم يزحفون على أيديهم وأرجلهم بسرعة كالحيات. ونادراً ما يلجأون إلى العنف في سرقاتهم، وإنما يصلون إلى غرضهم بالخدعة. ويقال أن الشلك أيضاً يضطرون إلى استخدام الحيلة في هذا الجزء الداخلي من بلادهم الذي يمتد طبقاً لملامحهم البربرية شمالاً إلى مدخل النيل الأبيض، لأن عددهم أصبح قليلاً جداً من جراء زحف القبائل العربية (البقارة) عليهم بخيولهم وأسلحتهم". [ص ٨٠].

ويتحدث "قرن" أيضاً عن البقارة في القسم الثاني من كتابه فيصف ثروتهم الحيوانية، ومظهرهم العام، وطبائعهم وطبيعتهم المرحية، ونشاطهم، ووعيمهم التجاري، وتمسكهم بأسلحتهم، وعراقة أصلهم وعلاقاتهم بحكومة محمد علي، وبجيرانهم من الشلك والدينكا، إذ يقول "إن البقارة يشغلون بالرعى ويمتلكون الخيول وكذلك الماعز والضأن، إلا أنهم يبدون بوجه عام كشعب أكثر مدنية ونظافة، رغم ما يبدو على ملابسهم من قذارة، وهي ذات لون أبيض وأزرق، ولا تقارن بغيرها". [ص ٣٠٩]. ويستطرد قائلاً "وعندما حضرنا إليهم تقدم الجميع، وفي الحال أقاموا سوقاً منظمة، وأتى نساؤهم بالبن والزبد والتمر هندي الطازج. وهم متحررون في حركاتهم يضحكون ويمرحون. وهم يسعون إلى بيع سلعهم بأعلى ثمن بقدر ما يستطيعون. ويتبادلون بها الملح والخرز والفلفل وعقود بيض النعام. وهم لا يفرطون في أسلحتهم. لأنهم دائماً في حالة حرب. يشعرون بالعار في بيعها. وهم ليسوا من دم خليط لأنهم لا يتزوجون مع أي قبيلة أخرى. ومن وقت لآخر يدفون الجزية (للحكومة)، ومن الجائز أن تكون هبة أو عطية". [ص ٣١٠، ٣١١].

ثم يقول "قرن" "لقد أخبرونا أنهم سيغيرون إلى الدينكا (إنهم يسمون الدينكا باسم "جانقى" Jenghs)، رغم أن الأخيرين شعب مختلف عنهم، ويقطن شمال الشلك، يسكنون إلى الشمال كما نقل إليهم. كذلك قالوا إنه يوجد هنا قليل من شعب الشلك الذين كانوا قد تقهقروا عند وصولهم إلى الجزيرة، وأنه لا يوجد ما يخيف منذ أن مات شيخ الشلك عبد الرحمن. وهم يعتبرون أنفسهم أصحاب جميع هذه البلاد". [ص ٣١١].

الكبابيش

الكبابيش من القبائل الرعوية الكبيرة في السودان الشمالي التي اشتهرت بتربية الإبل على نطاق واسع، فضلاً عن شهرتها بقيادة قوافل التجارة، وبخاصة بين السودان ومصر، لمعرفتهم وخبرتهم الواسعة بالدروب والطرق الصحراوية بين شطرى الوادى، لما عرف عنهم من الصدق والأمانة. ولقد قاموا بدور كبير فى خدمة حكومة محمد على فى السودان فى مجال النقل التجارى عبر الطرق الصحراوية وحمايتها. ونالوا كذلك إعجاب وتقدير جميع الرحالة الأوروبيين الذين رافقوهم فى رحلاتهم إلى السودان فى النصف الأول من القرن التاسع خلال الفترة التى نحن بصدد دراستها، ومنهم "بوركهارد" الذى أثنى على خبرتهم بشئون الصحراء وأمانتهم ثناء عاطراً. أما "قرن" فقد جاءت المعلومات والحقائق التى أمدنا بها عن هؤلاء الكبابيش قليلة نسبياً، إذ اكتفى بالحديث عن ثروتهم الكبيرة من الإبل والخيول، وبعض أوجه علاقاتهم بحكومة محمد على بالسودان. يقول: "إنه فى الداخل فيما وراء « مندره » Mandara يقطن الكبابيش. وهم بدو ينتشرون على مساحة واسعة، ويمتلكون قطعاناً كبيرة من الإبل والخيول التى يقودونها من وقت إلى آخر إلى الشاطئ، لتشرب، وليزودوا أنفسهم بالماء الصالح للشرب. وفى هذه الأثناء يترقبهم سليمان كاشف ليحصل منهم على الجزية." [ص ٢٢٥].

ويتحدث "قرن" الكبابيش بقوله: "إن آلافاً من الإبل يقودها الكبابيش لترتوى على الشاطئ الأيسر (للنيل الأبيض) يأتون من الداخل. ويقال إنهم يمتلكون من هذه الحيوانات أكثر مما تمتلكه القبائل الأخرى مجتمعة. وهذا يحدث كل ثمانية أو عشرة أيام. والقبيلة تأخذ معها عند رجوعها مقدار ما يحتاجونه من الماء." ثم يصف واقعة بين سليمان كاشف وجماعة من الكبابيش، يبدو أن "قرن" كان شاهد عيان لها، قائلاً "لقد أراد سليمان كاشف أن يكون صداقة معهم (أثناء الحملة الاكتشافية) لأنه رأى أنهم يمتلكون بعض الضأن والماعز، ولكنهم ركضوا وكأنما زوبعة على وشك أن تهب متحصنين متكئين فى جماعة على هيئة جيش." [ص ٢٢٥]. وهذه الواقعة التى يسردها الرحالة "قرن" تؤخذ -دون شك- كدليل قاطع على عدم وجود الثقة بين هؤلاء الكبابيش وهذا الحاكم الذى يمثل الحكومة، كما تدل فى الوقت نفسه على يقظة هؤلاء البدو ووعيهم، وشدة إدراكهم لحقيقة مصالحهم.

ثانياً- مشاهدات "قرن" ودراساته في أقاليم السوان الجنوبي وأعلى النيل

على أثر عودة حملة البكباشى سليم الأولى فى النيل الأبيض دون أن تحقق الهدف الرئيسى المقصود من إرسالها، وهو الكشف عن منابع نهر النيل جنوباً، بسبب العوائق الطبيعية التى اعترضت سيرها فى مجرى النهر عند نهاية مواطن العلياب، أخذت الحكومة المصرية فى إعداد حملة كشفية ثانية (١٨٤٠/١٨٤١) تكون أكثر استعداداً من سابقتها، ويصحبها عدد من العلماء والمهندسين من ذوى الخبرة بأعمال الكشوف وتدوين الملاحظات العلمية والجغرافية عن طبيعة النهر فى أجزائه العليا كقياس عرض وعمق المياه وسرعة التيار، وكذلك عمل الخرائط والرسوم الجغرافية للجهات التى يتم كشفها فى أثناء سير الحملة.

ومن العلماء والمهندسين الأوربيين الذين رافقوا هذه الحملة لهذا الغرض "ثيو" Thi- baut الفرنسى الذى كان قد رافق الحملة الأولى تحت اسم مستعار هو إبراهيم الشايقى، واشتهر بخبرته بمعرفة جزائر الشلك لكثرة طوافه فيها. و"ساباتييه" Sabatier و"دارنو" D'Arnaud الفرنسيان، والمهندس الألمانى "قرن" Werne. وجميعهم قد سافروا مع الحملة على نفقة الحكومة المصرية باستثناء "قرن" الذى سافر على نفقته الخاصة. وكان رأيه فيها استشارياً. كذلك رافق الحملة سليمان كاشف. [ص ٣٢٦، ٣٢٧].

وقد واصلت تلك الحملة الكشفية الثانية تقدمها جنوباً فى النيل الأبيض وأعلى النيل، يرافقتها "قرن" حتى بلغت خط عرض ٢٢ ٤' من خطوط العرض الشمالية. وهكذا أتاحت للرحالة "قرن" فرصة زيارة الأقاليم النائية من السودان الجنوبى وأعلى النيل، فأمكنه ذلك أن يجمع العديد من المعلومات والحقائق جمعها خلال مشاهداته ودراساته فى تلك الأقاليم. وقد تضمنت مشاهداته طبيعة تلك الأقاليم الجغرافية، والقبائل المختلفة التى تقطنها، والخصائص الطبيعية والبشرية المميزة لتلك القبائل، وأوجه النشاط الذى تمارسه من زراعة وصناعة وتجارة وفق طرق ونظم بدائية، وعاداتها وتقاليدها، والنظم والتقاليد التى تحكم العلاقات بين أفرادها، وغير ذلك مما يجذب السائح الأوروبى ويشده إلى مشاهدتها ودراساتها.

الشلك

يصف الرحالة "قرن" طبيعة بلاد الشلك النباتية بقوله: "هناك في المناطق الجنوبية التي يسكنها الشلك والدينكا توجد أنواع من نباتات الفصيلة البصلية تقوم مقام الطعام لدى المواطنين. والبطاطس لا يمكن أن تنمو أكثر مما هو عليه الحال في مصر التي هي أكثر برودة، لأنها ستكون مائية كثيرة السائل بسبب الرى المستمر، وتنطبق هذه الحالة أيضاً على الحشائش." [ص ١٢٥]. ويصف "قرن" الحقول في بلاد الشلك وأنواع النبات التي تنمو فيها والتي يبدو أن الشلك لم يبذلوا جهداً يذكر في زراعتها بقوله "وهناك حقول شاسعة تنحدر تدريجياً نحو النهر ينمو عليها نبات الويكة (البامية)، ولا يبدو أن هذه النباتات من بذر الإنسان، وإلا اقتلعت سيقانها القديمة بعد جنى المحصول، ما لم تكن قد تركت لتحمى النباتات الصغيرة من حرارة الشمس، حتى تصبح قادرة على أن تغطى الأرض بأوراقها، لأن الرى الصناعى لا يفكر فيه هنا. والشلك وكذلك الدينكا على الشاطئ الأيسر للنهر، إلى جانب معيشتهم على الحبوب (الذرة والدخن) فإنهم يتغذون على نوع من الفاكهة "الجليد" Geilid، وهي تنمو دائماً هنا، وعلى بذور أنواع مختلفة من العشب الطويل يعرف باسم "جنا الجيش"، ومعناها أطفال الحشيش وهي تسمية لها معناها ودلالاتها، ويتبعها أيضاً نوع من الأرز البرى (الأرز الشلكى). وكذلك يتغذون على لحوم الماشية والضأن والماعز، كما أنهم لا يحترقون لحوم التماسيح وأفراس النهر." [ص ١٣٤ - ١٣٦].

ثم يتحدث "قرن" عن ثروة الشلك الحيوانية قائلاً "إن هؤلاء الشلك وكذلك الدينكا في أعلى النيل لا يملكون خيولاً أو إبلأ، وإنما يملكون فقط البقر والضأن. وعندما يستولون على حصان أو إبل من الأتراك لا يقتلوننها، ومن المحتمل أنهم لا يأكلون لحم هذه الحيوانات، وإنما يفقأون عيونها كعقاب لها لأنها أوصلت الأعداء إلى بلادهم. وفي الحقيقة أنه قد يكون من الصعب على هذه الحيوانات أن تقاوم طبيعة تلك الأرض المستنقعية. ويمكن أن نستدل على ذلك بما هو حادث دائماً في إقليم التاكا، حيث أنه بالنظر إلى نفوق الكثير من الخيل والإبل خلال فصل الرطوبة، فإنها تساق إلى الأجزاء المرتفعة في الإقليم." [ص ١٣٧].

وفي موضع آخر من الكتاب يتحدث "قرن" عن نشاط الشلك الرعوى بقوله "لقد تأكد لى أن الشلك يرعون ماشيتهم في أى مكان يرغبون فيه، إذ أن مياه الفيضان في هذه السنة (١٨٤٠/١٨٤١) قد غطت أراضى مراعيهم الأصلية بالوحد، أو أن المياه انسحبت متأخرة، مما ترتب عليه عدم وجود عشب كاف لماشيتهم والقليل الذى نما أستهلك. ونظراً لحاجتهم إلى العشب فإن عدداً كبيراً من الشلك تجمعوا وقد سلحوا أنفسهم

بالرماح العريضة وساقوا قطعانهم من مصب السوبات إلى الجنوب، ولكن بعيداً عن الشاطئ الأيمن لدينكا. وقد انسحب الدينكا وهم يرعون الآن في الداخل وقد نبذوا في الوقت نفسه صيد الأسماك من النهر". [ص ٢٩٢].

وهناك جوانب أخرى من حياة الشلك الاجتماعية والاقتصادية تناولها الرحالة "قرن" في حديثه عن أدوات الزينة التي يُقبل عليها الشلك والتي يفضلونها وطرق حصولهم عليها، والسلع والمنتجات المحلية التي يقايضون بها مما يتوافر وجودها أو إنتاجها في أوطانهم، إذ يقول "إن الشلك لا يزورون أدوات الزينة، ورغم أنهم يقبلون على الخرز الزجاجي، فإنهم يفضلون الأشياء ذات القيمة الحقيقية. وقد قالوا أن الجلابة (تجار العبيد) والتجار يقومون بزيارة بلادهم مراراً وتكراراً، ويأتي بعضهم من الخرطوم على الإبل ومعهم الأقمشة القطنية، وأثواب الدمور، والخرز وغيره يعرضونها مقابل البقر وسن الفيل والعسل والسمنسم .. ويبلغ ثمن البقرة ثوب دمور. ومثل هذه القطعة من المنسوجات القطنية لها قيمة محددة مثل قيمة العملة النقدية". [ص ٢٨٨]. ويصف "قرن" مكانة التاجر في نظر الشلك بقوله: "ومما يدهش له الإنسان أن التاجر في نظرهم رجل مقدس تقريباً" [ص ٢٨٨]. ويعلق على ذلك قائلاً "وإنى لا أوصى أى رجل أبيض أن يقوم بعمل التجارة هنا إذا لم يشأ أن يقتل".

وهناك سوق يعقد في قرية تعرف "بالآيس" اعتاد الشلك الذهاب إليه ليقايضوا سلع ومنتجات بلادهم التي من أشهرها الماشية والعاج بسلع ومنتجات أخرى يحتاجون إليها، يشير إليه "قرن" بقوله: "هناك قرية صغيرة بسيطة قد يصل تعدادها إلى خمسين كوخاً كانت تسمى "الآيس" رغم أنها ليست إلا قرية صيفية للراحة وصيادي الأسماك تابعة لمدينة الآيس الواقعة أعلى الإقليم، فإنها أيضاً أشبه بالمركز التجاري بين الشلك وأهل سنار حيث يقايض فيه تجار الآيس عبيدهم والكرابيج (التي يعم استعمالها هنا وهي مصنوعة من جلد فرس النهر)، والتمر هندي والبامية الجافة (الويكا) مقابل المواشي ذات القرون والذرة والمنسوجات. وعن بعض السلع والأشياء التي كان الشلك يقومون بصناعتها لخدمة بعض أغراض الحياة البسيطة التي كانوا يعيشونها يذكر "قرن" أنه إلى جانب الحُصر الجميلة المنبسطة يوجد في بلاد الشلك الأواني المصنوعة من الطفل أكبر حجماً وأكثر جمالاً مما نجده في سنار، وهي على شكل "برمة" [ص ١٤٢].

لقد وصف "قرن" أكواخ الشلك التي يعيشون فيها والتي تعرف باسم "التكل" بأنها مبنية على نمط الأكواخ التي توجد في جهات السودان الأخرى، مع اختلاف في سقفها الذي يبدو بخلاف الأكواخ الأخرى المخروطة الشكل، إذ هو مقوس الشكل. [ص ١٣٦، ١٣٩]. ويقارن "قرن" بين قري الشلك وقري جيرانهم من الدينكا فيقول "إن أكواخ الشلك تقع على مسيرة ساعة تقريباً من حافة النهر والقرى التي على أرض الشلك تفوق كثيراً عدد قري الدينكا على الشاطئ المقابل لها في بعض الجهات على الأقل. وهي مقامة

بحيث تجاور بعضها البعض في شكل مجموعات صغيرة تضم كل مجموعة منها عدداً من الأكواخ "التكل" التي تنتشر بين الأشجار في حين تجد أكواخ الدينكا مقامة على شاطئ النهر الذي تقل أو تنعدم فيه الأشجار. [ص ١٤٦]. أما عن المواد التي استخدمها الشلك في بناء أكواخهم فيذكر الرحالة "قرن" "أن هؤلاء المواطنين قد اعتادوا قطع الأشجار القريبة لاستخدامها في بناء أكواخهم، دون أن يعنوا بقري بدلاً منها، لمستقبلهم أو مستقبل أطفالهم، إذ أنهم لا يفكرون إلا في حاجتهم الضرورية." [ص ١٤٠]. ويصف "قرن" عاصمة الشلك بقوله إن هناك عدد كبير من القرى على الشاطئ الأيسر في أرض الشلك يقول العرب (البقارة) أنها عاصمة الشلك "ديناب" Dennab. وهذا الاسم يطلق على ذيل الحيوان. وقد نعتوها بهذه التسمية بالنظر إلى طول صفوف الأكواخ التي تضمها مجموعة القرى، كما أنها متماثلة، مع أنه من المحتمل أن يكون الاسم (اسم العاصمة) هو "كاك" Kak. [ص ١٤٦، ١٤٩].

وعن تعداد الشلك وقت زيارته لهذه المناطق الجنوبية في أعالي النيل (١٨٤٠/١٨٤١) يشير إلى أن عدد الشلك حسب تقدير سليمان كاشف يبلغ ٢٠٠,٠٠٠ نسمة. [ص ١٤٥]. ويعلق الرحالة "قرن" على هذا التقدير لتعداد الشلك في ذلك الوقت "بأنه إذا صح فمعناه أن هناك خيران كثيرة في الداخل تتغذى من مياه النيل الأبيض، يقوم على ضفافها عدد كبير من الأكواخ، بحيث تزاحم بعضها بعضاً، كما هو الحال على ضفاف النهر الرئيسي." [ص ١٤٥].

لقد عبر عن نزعة الشلك القتالية برواية واقعية يرويها عن موقف هؤلاء الشلك من حملة البكباشي سليم قطان الأولى للكشف عن منابع النيل عندما علموا بوصولها إلى بلادهم. يقول "قرن" إن سلطان أو باندو "Bando الشلك في العام الماضي عند وصول الحملة الأولى خشى أن تكون معادية، لذلك جمع ألوفاً عديدة من الرجال وفي تلك الأثناء ظل الأتراك لمدة يومين أو ثلاثة أيام حتى وصلوا معه إلى صلح. وقد قدم لهم الماشية والضأن." [ص ١٤٤].

أما عن عداء الشلك التقليدي لجيرانهم من البقارة، فإن "قرن" يصف علاقات الشلك بهؤلاء البقارة وصفاً دقيقاً ومعبراً، يقول "إن كراهية هؤلاء الزنوج لهؤلاء العرب (البقارة) لا حد لها، ففي حالة وقوع أحد البقارة أسيراً في أيديهم، فإنهم يضربونه ضرباً مبرحاً بالنبابيت حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة، وذلك لأن القتل بالحربة في عرفهم شرف كبير لا ينبغي أن يحظى به الأسير من هؤلاء البقارة، رغم أن العرب البقارة لا يذبحون الشلك الذين يقعون أسرى في أيديهم، ليس احتراماً لتعاليم القرآن، وإنما بدافع أنانيتهم الموروثة. وعندما يأتي البقارة إلى النهر لرعى الماشية على العشب الذي يعتبر علفاً جيداً، وهو ينمو بعد أن يحترق ويتلاشى قصب الغاب، فتتشب الحروب القصيرة باستمرار بين الشلك والبقارة، وفيها يبدى الأخيرون (البقارة) شجاعة كبيرة، كما يذكر ذلك سليمان

الكاشف نفسه." [ص ١٢٢]. ويقارن بين معاملة الشلك لأسرى البقارة ومعاملتهم لأسرى الدنكا المجاورين لهم بقوله "وعلى العكس من ذلك لا يقتلون أسرى الدينكا إذا وقعوا فى أيديهم، إذ ينظرون إلى هؤلاء الدنكا باعتبارهم سكاناً أصليين وجيراننا قدامى." [ص ١٢٢].

ويفسر لنا قرن أسباب العداء التقليدى بين الشلك والبقارة بقوله "لقد اعتاد الشلك والبقارة القيام بغارات السلب والانتقام من حين لآخر، فالبقارة كانوا يخطفون من الشلك أطفالهم، حيث كانت خيولهم السريعة التى لا يملك هؤلاء الزنوج نظيراً لها تؤدى لهم أجل الخدمات فى هذا الشأن. أما الشلك فكانوا ينتقمون من البقارة بخطف ماشيتهم وقد استخدموا فى ذلك القوارب التى اشتهروا بصناعتها." [ص ٢٨٧]. ويصف ذلك النوع من القوارب التى كان الشلك يستخدمونها فى السطو على جيرانهم البقارة "بأنها تفوق فى الحجم والسعة والمتانة قوارب القبائل الأخرى، إذ لها مقدمة طويلة، وتسع من عشرين إلى ثلاثين رجلاً يجلسون فى صفوف متوازية. وهى عبارة عن سيقان أشجار ضخمة شد بعضها إلى بعض بحبال ليفية، وتلون عادة باللون الأحمر أو الأخضر الذى يحصلون عليه من طبقة الأرض." [ص ٢٨٧].

الدينكا

الدينكا من القبائل الزنجية الكبيرة التى تقطن السودان الجنوبى وأعالى النيل على ضفاف النيل الأبيض، وتجاور أوطان الشلك. يقول الرحالة "قرن" فى وصف طبيعة وجغرافية الشواطئ التى يحتلها الدينكا على النيل الأبيض، ويقارنها بشواطئ الشلك "إن الشواطئ تتفاوت فى الانحدار من مكان إلى آخر. وإبنى لا زلت أؤكد أن بلاد الدينكا أكثر ارتفاعاً من بلاد الشلك. لذلك فإن جذب الأولى وكثافة أشجار الثانية الواقعة على الشاطئ الأيسر يرجع إلى هذا السبب." [ص ٢٩٠].

ويصف "قرن" الجزر التى يقطنها الدينكا فى النيل الأبيض، ودورها فى حمايتهم من أعدائهم سواء من القبائل المجاورة لهم فى أقاليم السودان الجنوبى مثل الشلك أو من أقاليم السودان الشمالى القريبة منهم مثل الأتراك فى حكومة محمد على بقوله "وهناك جزر مستنقعية طويلة ينمو عليها قصب الغاب وغيره من النباتات المتلاصقة والمتصافرة بعضها مع بعض تمتد من بلاد الدينكا إلى وسط المجرى. وهكذا الحال على الجانب الأيسر للنهر، وإن كان على مقياس أصغر. والمسافة بين الشاطئ والآخر تبلغ أكثر من ساعة. وقصب الغاب على هذا النحو يكون حماية لا يمكن التغلب عليها، حتى عندما يبلغ ارتفاع المياه أقصاه. وكذلك الحال على الشاطئ الأيسر، إذ تحميهم هذه النباتات التى

توجد تحت الماء . بيد أن الأتراك على الرغم من ذلك تمكنوا من الوصول إلى هذين الشعبين (الدينكا والشلك) عن طريق البر (اليابس). فقد نجح سليمان كاشف نفسه في قهر الشلك مرتين على حدود إقليمهم (عن طريق الغزوات التي اعتاد شنّها لقنص الرقيق). وتلك الهجمات المفاجئة والغادرة لهذه "الغزوات" لا يمكن تسميتها بالحروب أو المعارك. [ص ١٢٢].

ويصف "قرن" نمط الزراعة التي يمارسها الدينكا وأنواع الغلات التي كانوا يقومون بزراعتها بقوله: "إن أهل الدينكا يتنقلون إلى الداخل لبيدورا حقولهم بالذرة والدخن. وهذه الحقول يقال إنها تقع في الغابة، ويحتمل -كما يبدو لي- أن هذه الغابة تقع في حوض (منخفض)، كما هو الحال في إقليم التاكا، حيث يمكن حجز مياه الأمطار أو سيول المجارى الجبلية لمدة طويلة، وإلا كانت الأرض جافة جداً. وفي تلك الحالة لا يمكن بذرها." [ص ١١٨]. كذلك يشير إلى أنواع أخرى من النبات التي اشتهرت بها بعض مناطق الدينكا، إذ يقول "إنه يوجد التمر في (بعض) مناطق الشلك والدينكا، ويكثر في بعض الجهات بدرجة كبيرة. وطعمه سار ومقبول في هذه الجهات. ويحتل المكان الأول في المواد الغذائية التي يقدمها السودانيون للأثيوبيين. ويسمى في بلاد السودان "العرديب". ولكن في مصر يسمى التمر هندي (فاكهة الهند) ... كذلك توجد أشجار الصمغ الغنية في تلك الأجزاء [ص ١٥٤]، التي لم يكن القدماء يحصلون منه إلا على القليل لاستهلاكهم (المحلى). والذي لا يقارن بمقادير الصمغ و"القفونية" التي صارت تستخدم في الأغراض التجارية لأول مرة في الأزمنة الحديثة." [ص ١٢٤].

لقد شاهد الرحالة "قرن" جزيرة "أبا" التي تقع في مجرى النيل الأبيض ويحدثنا عن تلك الجزيرة الكبيرة، فيصف طبيعة الحياة النباتية، وأنواع الحيوانات والطيور التي تعيش فيها، وكذا الغلات الزراعية التي يقوم الأهالي بزراعتها. وأنواع النباتات التي تنمو بها نمواً برياً بقوله "إن جزيرة أبا لا تبدو أن الفيضان يغطيها كلها. ولذلك فهي مغطاة تجاه الداخل بالأشجار المخضرة. ويقال إنه يوجد هنا عدد كبير من الأسود، كما يوجد عدد كبير من أسراب الفراخ السوداني التي يطلق عليها هنا اسم جدات الفرعون (فراخ فرعون) وهو اسم يطلق للتحقير. ولكن لا بد أن يكون هذا الاسم قد اشتهر بما ذكر في القرآن أكثر مما يدل عليه التعبير. وتكثر أفراس البحر في هذه المنطقة. ويزرع هنا الدخن الذي ينتشر استخدامه في كردفان، والباشية وهي نوع من الخضر نصادفه في المناطق الممتدة من هنا شمالاً حتى بلاد اليونان وهي تنمو نمواً شيطانياً في الجزيرة." [ص ١١٣].

أما عن طبيعة الدينكا التي تميزت بعدم ميلهم إلى ممارسة الأعمال الحرفية، وقد حاولت حكومة محمد علي تدريبهم على القيام بها، ولكنها فشلت في نهاية الأمر في تغيير نمط الحياة الذي اعتادوه. يقول قرن: "إنه بقنص الرقيق ستحرم البلاد من الزوج

الأحرار المستقلين الذين رغم فقرهم يرفضون أن يجندوا للعمل في استخراج الذهب والفضة. وهم يفضلون الحياة القديمة لأنهم يحبون العادات القديمة حتى ولو رأوا وأجبروا على أن تكون لهم عادات أحسن. وها هو مثل يغنى عن كثير. فإن عدداً كبيراً من زنوج الدينكا الذين أصبحوا أصحاب حرف هربوا من فازوغلى (حيث المناجم التي يستخرج منها معدن الذهب) حاملين معهم أدوات حرقتهم. بيد أنهم لم يأخذوا هذه الأدوات معهم من أجل الفائدة العظمى التي لتلك الأدوات، ولكن لمجرد استخدامها في البحث عن الحديد لعمل الرماح أو الأساور منه. هذا ما أكده لنا جنودنا وأفراداً من الدينكا. وبعض هؤلاء المهاجرين (الهاريين) كانوا أيضاً من صناع السفن، ولكن لم يلاحظ معهم (عند هروبهم) سفن رغم الفائدة التي كانت ستعود عليهم منها في حملات السلب وقطع الطرق التي يقومون بها. [ص ٣٠٧].

قبائل أعالي النيل

بالإضافة إلى قبائل الشلك والدينكا التي تقطن بعض أقاليم السودان الجنوبي حدثنا "قرن" عن قبائل أخرى تقطن مناطق أعالي النيل مثل "البندريال" Bundurials، و"الكيك" Keks، و"البحور" Bohrs، و"البامبير" Bambers و"البوكو" Bukos و"الليان" Liens و"الشير" Tshiers، و"الباري" Bari. ولقد تناول في حديثه عن هذه القبائل التي تقطن مناطق أعالي النيل، بعض مظاهر الحياة النباتية في أوطانهم ونشاطهم الزراعي والغلات التي يقومون بزراعتها، وبعض نواحي النشاط الأخرى التي يمارسونها مثل تربية الماشية، وصيد الأسماك والحيوانات البرية مثل الفيل وطرق صيدها، وصناعة الأسلحة وأدوات الزينة من المعادن والعاج. وقد قارن أحياناً بين القبائل بعضها ببعض، من حيث الشكل والتكوين الجسماني فضلاً عن بعض النواحي الأخلاقية. كما تعرض لجوانب من حياتهم الاجتماعية من عادات وتقاليد، وأشاد بما يتحلى به بعضهم من حسن التدبير في المعيشة، وكذلك تعرض للحروب التي تنشأ عادة بينهم، وأوضح الأسباب الرئيسية لنشوبها، والدور الذي تلعبه الماشية في حياتهم، ونظام التعامل فيما بينهم.

الحياة النباتية والنشاط الزراعي :

يصف الحياة النباتية والنشاط الزراعي الذي تمارسه القبائل في مناطق أعالي النيل التي شاهدها في أثناء رحلته في هذه المناطق ويقارن أحياناً بعض مشاهداته فيها بما شاهده في مناطق النيل الأبيض مثل بلاد الشلك بقوله "إنه كلما تقدمنا جنوباً في منطقة البحر

(النيل) الأبيض [ص ٥٢]. نجد أن أشجار التمر هندی والسنت تختلف في شكلها عن تلك التي في بلاد الشلك، كما نلاحظ بعض الجزر الصغيرة والكبيرة مغطاة بالذرة، كما أن الشاطئ الأيمن في بعض الجهات قد زرع بالذرة التي حصدت من وقت قريب، وهي من النوع ذات اللون الأحمر ولا تعطى إلا قليلاً من الدقيق. كذلك توجد بين النباتات الأخرى في بعض الجهات نبات الفول الصغير المتسلق ذات اللون الأبيض والأحمر ينمو نمواً برياً ضخماً على الأرض. [ص ٥٠ - ٥١].

ويستطرد "قرن" في وصف المزروعات في هذه المناطق من أعالي النيل، معبراً عن دهشته من وجود زراعة القطن في تلك الجهات بكميات كبيرة في حين ينمو نمواً برياً في حوض النيل الأبيض، قائلاً "وإنه لمن المدهش أن الأهالي في هذه الجهات يزرعون القطن بكميات كبيرة وقد لاحظت في جزيرة "جانكير" Tshanker قطناً معروضاً للبيع. وقد دهشت لذلك لأنى وجدت القطن ينمو نمواً برياً في حوض النيل الأبيض. ويبدو أنهم يجدلون من الخيوط القطنية بعض ملابسهم مثل الرحط Rahat، ويلونوها باللون الأحمر أو الأصفر، مستغلين في ذلك نوعاً من المادة الطينية الملونة." [ص ٨٩]. ويضيف "قرن" إلى ذلك "أن بعض المناطق في هذه الجزيرة تغطيها مزارع التبغ في مساحات أكبر بكثير مما لاحظناه من قبل. وهناك سياج يحمي الجزيرة من الحيوانات البحرية. كما أن هناك نبات قصب الغاب الموضوع لحماية هذه المزروعات من حرارة الشمس. والشئ الذي لم نلاحظه في جهات أخرى من قبل، ولكن لاحظناه هنا هو بيت الحراسة المقام على أوتاد ينظر منه الحارس خلسة. وبيوت الحراسة مقامة لحماية المزروعات من الآدميين أكثر من كونها لحمايتها من الحيوانات." [ص ٩٨].

ويمضي في وصف النشاط الزراعي لأهالي مناطق أعالي النيل التي شاهدها في رحلته مع حملة البكباشي المصري سلم قبطان الثانية قائلاً "وجنوباً نجد الأرض مزروعة بصفة خاصة بالسمسسم واللوييا. وفي هذه المزارع توجد بيوت الحراسة والفزاعات، وكل شئ أخضر جميل، ويستحيل على الأهالي رى هذه الحقول الكبيرة بالأيدى، كما شاهدت مزارع التبغ الصغيرة. إنه من المحال أن تجد قنوات للرى المنتظم يستطيعون بواسطتها أن يجلبوا الماء من النهر ليتدفق على الأراضى -على النحو المتبع عادة في مصر وبلاد النوبة- أو برفعه بأبسط الحيل في مجموعة من الجرادل بطريق السواقي التي تحركها الثيران، لأن الساقية لا تستعمل لدى القبائل القاطنة في حوض النيل الأبيض. ولا بد أن التربة الطفلية الخصبة قادرة على أن تبقى لوقت طويل على الرطوبة المتخلفة عقب الفيضان، كما أن الإرساب الليلي القوي قد يحافظ على بقاء الثمر ناضجاً. والأكثر من ذلك أن الشمس نظراً لوفرة النباتات الكثيفة لا تستطيع أن تلتفح الأرض." [ص ١١٠].

قبائل البندريال والكيك والبحور :

لقد تناول "قرن" في حديثه عن قبائل "البندريال" Bundurials و"الكيك" Keks ، و"البحور" Bohurs التي تقطن مناطق أعالي النيل موقع أوطانها الجغرافي ، وصفات بعضها الجسمانية ، ولغتها بالمقارنة بقبيلة الدينكا ، كما تناول بعض علاقاتها مع جيرانها ، والمواد التي تحصل عليها من القبائل المجاورة لحاجة بعض الصناعات البدائية التي تقوم بصناعتها . كما تناول نواحي النشاط الأخرى التي تمارسها مثل صيد الأسماك والأدوات التي تستعملها في الصيد ، وزراعة الحبوب والغللات التي يحرصون على زراعتها . كذلك تناول بعض العادات والتقاليد السائدة بينهم ، وتقديرهم للماشية الذي يفوق تقدير أي شئ آخر ، إلى درجة تصل إلى تقديس البعض لنوع معين منها هو الثور .

يقول "قرن" في هذا الصدد "إن قبيلة البندريال وقبيلة الكيك تقطن في أعالي النيل على الشاطئ الأيمن للنهر عند خط عرض ١١ ٥ ، حسب تقدير سليم قبطان ولغتها القريبة من لغة الدينكا ، وتركيب أجسامهم شبيه أيضاً بأجسام الدينكا ، وإن يكن قوامها أحسن نسبياً . وهؤلاء البندريال والكيك يأخذون الحديد اللازم لسهامهم ورماحهم من إقليم "أرول" Arol والجبل القائم في هذا الإقليم يقع جهة الغرب ، ولا يمكن رؤيته من الشاطئ نظراً لوجود الأشجار . وهناك قبيلة أخرى تقطن هناك . ومن هذا المكان يحضرون النحاس لصناعة حلقات الأذن التي يلبسونها . ويبدو أنهم لا يعيرون هذا المعدن أية قيمة كبيرة." [ص ٢٩٢].

ويستطرد "قرن" في وصف مظاهر الحياة لقبيلتي البندريال والكيك والنشاط الذي يمارسونه قائلاً "ولقد لاحظت زراعات التبغ بجوار كل كوخ وسكان هذه الجهات العليا من النيل يشتغلون بصيد الأسماك وأدوات الصيد التي يستعملونها هي السلال المصنوعة من الأغصان المجذولة ، ويصيدون الأسماك من البحيرات أو الخيران . ويشتغلون كذلك برعى الماشية وبيعونها في مقابل الخرز . ومن بين هؤلاء الرعاة جماعة "البحور" Bohrs الذين يقال إنهم يقدسون الثور ، وهم يحبون ويعزون ويقدرون الماشية التي لا يفضل عليها شئ آخر .. ويوجد هناك العاج ، ويمكن الحصول عليه من سكان هذه الجهات مقابل الخرز . ويستعمل الأهالي العاج في صناعة حلقات كبيرة منه." [ص ٢٩٧ ، ٢٩٨].

ويضيف "قرن" إلى ذلك "أن هناك إلى الجنوب من يقوم بزراعة الحبوب على شواطئ النيل وفي هذه المناطق الزراعية يبلغ ارتفاع هذه الشواطئ من ١٢ إلى ١٥ قدماً . والتربة رملية ، وهم أحسن حالاً في المعيشة . وبالإضافة إلى إنتاج الفاكهة هناك القرع والبطيخ . والحلقات الحديدية التي توضع في الأذرع والأقدام تبدو أنه ينظر إليها بعين الاعتبار والتقدير أكثر من الحلقات الذهبية."

قبيلة البامبير Bammers :

ويحدثنا قرن عن قبيلة البامبير، فيصف طبيعة بلادهم الزراعية [ص ١٢٠]، وخصالهم الجسمانية (تكوينهم الجسماني)، وأدوات الزينة والأسلحة التي يحرصون على التمسك بها، ونشاطهم في الزراعة وتربية الماشية وصيد الحيوان. وقد أشاد بنوع التدبير والحرص الذي يتميزون به في بعض نواحي حياتهم فهو يلاحظ إن شواطئ النهر خضراء بوجه عام، وتحظى برعاية الإنسان في زراعتها. وفي بلاد "البامبير" bamber (حيث توجد مدينة كبيرة تحمل اسم "بريز" Berize) يمتاز الأهالي بطول القامة، وإن كان بينهم متوسطو القامة والحجم. ويتميزن بالقدارة، ويمكن أن نطلق عليهم فقراء، فيما يتعلق بأدوات الزينة والأسلحة التي يملكونها إذا ما قورنوا بما يملكه غيرهم من سكان الأراضي المرتفعة في منطقة "الباري" Bari. والأساور المصنوعة من العاج هنا أغلى من أى مكان آخر. [ص ١١٥، ١١٦].

ويقول "قرن" بأنهم يأتون بالأسلحة الحديدية من الباري. ويبدو أنهم لا يفرطون فيها بالبيع على الإطلاق. وهذا يستحق كل ثناء وتقدير ويدل على أنهم يفكرون لأنه باعتبارهم شعباً صغيراً - أن عليهم أن يكونوا دائماً على استعداد للقتال. وهناك مساحات فسيحة من مزارع الذرة توجد خلفها غابة بها أشجار. وكانوا يمدون الحملة الكشفية الثانية التي جاءت بقيادة المصري سليم للكشف عن منابع النيل، بالخشب مقابل الخرز الصغير. وهم يقومون بصيد الفيلة بالطريقة الشائعة في جميع بلاد السودان لا سيما في فازوغلى، وهي طريقة الحفر المغطاة بالقش [ص ١١٦]. ويضيف "أنه من الملاحظ، في بعض الجهات أن كلا الشاطئين مزروع، كما أنهم يملكون قطعاناً وفيرة من الماشية يعملون لها زرايب مسورة بسيقان الأشجار والأشواك لحمايتها من الحيوانات إن لم يكن من الإنسان. كما أنهم يمتلكون مخازن مقامة على أوتاد ومصنوعة من الأغصان وملطخة بالطفل (الطين) وزرايب الحيوانات نجدها في أماكن منفصلة، بينما نجد بيوت الأدميين محاطة بأسوار من قصب الغاب." [ص ١١٨].

قبيلة البوكو Bukos :

كتب "قرن" عن أصل البوكو وصلتهم العرقية بالقبائل المجاورة، وموقع بلادهم، وأوجه النشاط التي يمارسونها في أوطانهم، والصفات التي يتحلون بها، وقارنها ببعض القبائل الأخرى مثل الباري. يقول "قرن" إن جماعة البوكو الذين يقطنون المنطقة التي تقع فيها جزيرة "بوكو" هم من أصل جماعة البامبير والشير Tashierrs و"الليان" Lienns لتشابههم مع هذه القبائل في التكوين الجسماني وتقاطع الوجه. والبوكو يملكون الثيران والضأن

والماعز والفراخ، وسن الفيل وجلود الحيوانات المختلفة، وأدوات الزينة المصنوعة من الحديد والعاج، وكذلك الأسلحة المصنوعة من الحديد. وهم أكثر كرمياً من أهل الباري. ويقومون بصيد الأسماك بالحراب." [ص ١٢٠، ١٢١].

لقد حدثنا "قرن" عن جانب هام وخطير في حياة قبائل أعالي النيل هي الحروب التي كانت تنشب عادة بينها. وهو يعطى لنا التفسير الحقيقي لقيام تلك الحروب التي يشبهها بما كان يحدث في حروب الإغريق والرومان والجرمان من حيث معاملة الأسرى معاملة الرقيق وبيعهم. وهو ينفى وجود عمليات قنص الرقيق بين هذه القبائل، إذ الأمر لا يعدو أن يكون عمليات خطف للأدميين انتقاماً لنهب الماشية، وتتم عملية المقايضة عبد مقابل ثور. ومن هنا تبرز أهمية المكانة التي تحتلها الماشية في حياة قبائل أعالي النيل. وهو ما يوضحه "قرن": "في الحروب المتبادلة التي تقوم هنا يستعبد الأسرى كما هو الحال عند الإغريق والرومان والجرمان القدماء. وربما أعتق العبد بعدد قليل من الماشية. ومن الجائر أن نقول أن قنص الرقيق لا يحدث هنا. وحروبهم تشتمل فقط على النهب المتبادل للقطعان. لذلك يحدث الانتقام عندما يقبضون على الأدميين كمقابل مساو في القيمة لسلمتهم المسلوبة." [ص ١٢٣]. ويضيف إلى ذلك قائلاً "والماشية هنا ذات قيمة كبيرة. وقد يرجع ذلك لكثرة السكان وعدم ازدهارهم للحوم. ويبلغ ثمن العبد ثور أو ست أساور من الحديد التي لا يزيد سمكها على سمك الإصبع الصغير. وسلطان "لاكونو" Lakono هو الذي يأخذ عبيدهم منهم مقابل الحديد. وكما أن أوقية الذهب تقوم بدور العملات النقدية في بلاد السودان (الشمالي)، فإن هذه الحلقات من الحديد تستخدم لنفس الغرض (في أعالي النيل). وقد يكون هذا نوعاً من السياسة أن يدفع الملك في مقابل العبيد حلقات من الحديد وليست أسلحة، لأنه إذا امتلك جيرانه الأسلحة فقد يصبحون خطراً عليه. ويأتى "لاكونو" إلى هذا المكان كل عام لينجز هذا العمل بنفسه. وهو يطلب هؤلاء العبيد للعمل في استخراج الحديد وصناعته، وربما لحمايته أيضاً." [ص ١٢٣].

ويقارن "قرن" ما يقوم به السلطان "لاكونو" من شراء الرقيق من أسرى الحروب التي تنشب بين القبائل التي تقطن أعالي النيل، بما يفعله حكام سنار والأتراك في حكومة محمد علي في السودان من شراء الرقيق عن هذا الطريق الرخيص بقوله "والظالمون المستبدون في سنار يسايرون أيضاً هذا السلطان في تحقيق عظمتهم بالعبيد. ولقد استفاد الأتراك عن طريق تلك الفرصة الرخيصة في شراء العبيد. وسليمان كاشف الذي أحضر في الحملة الأولى خمسة عشر عبداً إلى الخرطوم باعهم كجنود يقال إنه أخذ هذا الصباح عدداً كبيراً على ظهر سفينته. وليس في مقدوري بمفردى أن أقوم تلك الرغبة في هذا النظام (شراء وبيع الرقيق). وحتى المهندس "دارنو" كان يبدو معارضاً لشراء أى عبد من العبيد." [ص ١٢٤، ١٢٥].

الشير Tshierrs

من الملاحظ أن حملة البكباشى المصرى سليم قبطان الثانية التى غادرت الخرطوم فى ٢٣ نوفمبر عام ١٨٤٠ للكشف عن منابع نهر النيل وبرفقتها الرحالة "قرن" Werne قد مرت فى طريقها فى النيل الأبيض بمختلف الجهات والقبائل التى مرت بها الحملة الأولى حتى نهاية مواطن العلياب عند خط عرض ٦°٢٥ شمال خط الاستواء ، ولكنها تجاوزت هذا الحد وسارت فى مجرى النهر جنوباً حتى وصلت إلى خط عرض ٤°٤٢ من خطوط العرض الشمالية، فأمكن الكشف عن جهات وقبائل أخرى (جديدة) لم يقدر للحملة الأولى الكشف عنها مثل "الشير" Tshierrs، و"الإليان" Lienns، و"الپوكو" Bukos، و"البامبار" Bambars، و"البارى". وأكثرها كان لا يزال حتى ذلك الوقت مجهولاً وبعيداً عن أنظار الرحالة وعلماء الجغرافية. ولقد سجل "قرن" فى كتاب رحلته السابق الذكر، الكشوف الجديدة التى حققتها هذه الحملة الكشفية فى حوض النيل الأبيض ومناطق النيل العليا من واقع يومياتها.

فهو يذكر "أنه فى يوم ١٥ يناير عام ١٨٤٠ التقت الحملة بعد مغادرتها مواطن العلياب بجماعة من الزوج على الشاطئ الأيمن للنهر تختلف لغتهم عن لغة العلياب وأنه مجرد أن وقع نظرهم على رجال الحملة أخذوا يصيحون ويرتلون بأصوات مرتفعة طالبين قبول هداياهم من الماشية، ولما سألهم قائد الحملة عن قبيلتهم أجابوا بأنهم من قبيلة الشير". [ص ٢٢٩، ٢٣٠].

ربما لم تحظ جماعة من الجماعات أو قبيلة من القبائل السودانية الكثيرة التى التقى بها "قرن" فى رحلته الطويلة فى أقاليم السودان الشمالى وأقاليم السودان الجنوبى (١٨٣٩-١٨٤١) بتقديره وإعجابه قدر ما حظيت به قبيلة الشير، وهو الذى عرف بقوة الملاحظة، فقد أشاد بحسن طبائعهم وما يتمتعون به من صفات وخصال حميدة، فضلاً عن المزايا والصفات الجسمانية التى امتازوا بها. ويصف المظهر العام لهؤلاء الشير بأنهم يتزينون بحلقات من الحديد فى أرجلهم وأذرعهم. وحول رقبة كل واحد منهم مزمار (ناى) من قصب الغاب ذى ثلاث فتحات، وعقود من الخرز. ومع أنهم كانوا مسلحين بالهروات (النبابيت) والرماح والأقواس والسهام المسمومة، فإنه لم تكن تبدو عليهم نزعة للشر أو ميل للغدر. [ص ٢٢٠-٢٣٥].

ثم يصف "قرن" روح المرح السائدة بينهم التى لمسها وشاهدها بنفسه بقوله "إننا كنا نشاهد من حين لآخر فى أثناء مرورنا بأوطانهم حفلات الرقص والغناء. وفيها يجتمع الرجال والنساء والأولاد تحت ظلال الأشجار، ويعزف الأولاد على المزمار، بينما النساء يرقصن ويغنين، ويشاركهم الرجال الفرحة والسرور، إذ يتمايلون مثلهم ذات اليمين وذات

الشمال مع هزّ الأرداف والصدور . وأما الشيوخ فكانوا يدخلون الغليون ، وقد بدت عليهم علامات الغبطة والإعجاب بنسائهم وأولادهم . والكل في غاية البهجة والمرح . [ص ٣٤٠] . ويبدو أن "قرن" قد أعجب كثيراً بخصال هؤلاء الشير وطباعهم ، إذ وصفهم بأنهم شعب لطيف وسيم الطلعة طويل القامة قوى البنية ، يبدو على محياه وسلوكه نوع من التأدب واللفظ والبشاشة والكرم ، حتى أن الإنسان حين يراهم يكاد لا يصدق أنه في وسط إفريقية ."

وحتى طبيعة البلاد الجغرافية التي تقطنها قبيلة الشير أبدى "قرن" إعجابه بها ، إذ وصف أطرافها وهو يوشك أن يغادرها إلى الجنوب بقوله : "إنها لا زالت تبدو وكأنها جنة حقيقية ، فالذرة في الحقول توشك أن تنضج وسوف تقلع وينبت محصول آخر . ويحتمل ألا تكون تلك الحقول قد زرعت وفق دورة زراعية معينة ، بل ربما كان العكس ، فكل نبات يبدو وكأنه نما نمواً طبيعياً من تلقاء نفسه . " [ص ٣٤٥] . ثم يقول "وهذه الأشجار التي تبدو شامخة بمثل هذا الطول تبدو وكأنها ليست في حاجة إلى ماء ليرويها . والأدميون يبدوون بمظهرهم السطح الواضح وكأنهم يتمتعون بهذا الانتعاش والرخاء من فضل وكرم الطبيعة عليهم . " [ص ٣٤٦] .

البارى

سلطنة الباري :

فى ٢٠ يناير عام ١٨٤٠، وعلى مسيرة يوم واحد من مواطن الشير والليان التقى "قرن" بجماعة من الناس يختلفون فى مظهرهم العام عن قبائل الشير والليان التى كانت الحملة قد غادرت مواطنها من وقت قريب. فقد لوحظ أن كل واحد منهم قد طلى جسمه العارى الضخم وشعر رأسه، وكذلك الحلى التى يتزين بها كالأساور والخلاخيل المصنوعة من الحديد بطلاء أحمر [ص ١ - ٩]. ولما سئلوا عن قبيلتهم أجابوا بأنهم من قبيلة البارى، وأنهم يخضعون لزعيم أكبر-يعرف بلغتهم بـ "ماتا" Matta. يدعى "لاكونو" Lakaa-no أو "لاجونو" Lagono يعيش فى مكان مرتفع يطلق عليه اسم "بلانجة" Pelanja، وهو الإسم الذى يطلق على عاصمة السلطنة. وأضافوا إلى ذلك بأنه لا توجد فى هذه الجهات من هو أقوى وأعظم من هذا السلطان، وأن نفوذه يمتد إلى أصقاع شاسعة. [ص ١٥].

وقد وصف الرحالة "قرن" ملامح هؤلاء البارى بأنها لطيفة بصورة ملفتة للنظر، وأنهم طوال القامة أقوياء البنية، أنوفهم عريضة بعض الشيء، ولكن ليست ملفتة، بل على العكس من ذلك مرتفعة قليلاً، كما هو ملاحظ على أنف رمسيس الثانى. والفم كبير (ممتلىء)، ولكن يختلف عن فم الزنوج، وهو يشبه تماماً فم قدماء المصريين كما يبدو على تماثيلهم والجبهة عريضة ومقوسة. والعيون بريئة معبرة، مما لم يشاهد بين قبائل الزنوج الأخرى التى مرت بها الحملة بصفة عامة. وأما السيقان فيبدو قواماً جميلاً، وإن لم تبرز فيها العضلات. [ص ١٥، ١٦].

كذلك عنى الرحالة "قرن" بوصف طبيعة أوطان البارى الجغرافية، فأشار إلى وجود مرتفعات تعرف باسم "نياكانجا" Niakanja تقع ناحية الغرب على مسيرة بضع ساعات من الشاطىء الأيسر للنهر، ومرتفعات أخرى تسمى "لوبيك" Lubekk، و"كوريك" Korek غنية بالمعادن التى من أهمها الحديد والنحاس [ص ١٥، ٨٤، ٨٥]. ويصف "قرن" مرتفعات "كوريك" التى تقع فى إقليم البارى بأنها تشتهر بوفرة نسبة تراب الحديد بها، حيث يقوم البارى باستخراجه واستخلاص معدن الحديد منه بوسائلهم الخاصة. وقد اعتادوا استخدام أيدروكسيده الأحمر (مفرة الحديد الحمراء) كطلاء يطلون به أجسامهم وأدوات الزينة التى يتحلون بها، فضلاً عن استغلال هذا المعدن فى بعض المصنوعات المعدنية التى اشتهر هؤلاء البارى بصناعتها [ص ٨٥]. كما أشار "قرن" إلى السهول الفسيحة التى تقع على جانبي النهر، ويستغل البارى بعضها فى الإنتاج الزراعى، حيث يحمل النهر إليها كل عام الخصب والنماء. وكذلك بعض الجزر التى تتعرض مجراه فى هذا الإقليم، ومن أهمها

جزيرة "جانكير" Janker فى أقصى الحدود الجنوبية لسلطنة البارى [ص ١٨، ٢٠، ٢١، ٢٤].

لقد كشف "قرن" عن نواحي الحياة التى كان يحيها هؤلاء البارى وأوجه النشاط الاقتصادى التى كانوا يمارسونها. فهو يشير إلى حسن استغلالهم لموارد بلادهم الطبيعية المعدنية والنباتية والحيوانية إذا قورنوا بالقبائل الأخرى التى تقطن أقاليم السودان الجنوبى وأعلى النيل. فقد لاحظ أن البارى يستخرجون تراب الحديد من المرتفعات التى يوجد بها تراب الحديد، وبخاصة من مرتفعات "كوريك" السالفة الذكر، ويقومون بصهره فى أوانى فخارية، ثم سبكه فى كتل متوسطة الحجم على شكل كرات، كما جرت عادة أهل كردفان فى غرب السودان [ص ٤٧-٧٥]. ومن هذه الكتل الحديدية كانوا يعملون الآلات القاطعة، وأدوات القتال مثل السكاكين والبلط والرماح والسهام والنبال، وكذلك بعض أدوات الزينة مثل الأساور والخلاخيل والقلائد. وقد صنعوا من تلك الحلى أشكالاً ونماذج مختلفة وصفها الرحالة "قرن" بقوله "إن بعض الأساور كانت فى شكل أوراق الأشجار الرقيقة، والبعض الآخر فى شكل المغزل الصغير. وأحياناً تضاف إلى هذه النماذج بعض قطع الحديد الصغيرة كنوع من الحلية. أما القلائد التى توضع حول الرقبة وكانت فى شكل أطواق كبيرة من الحديد تتدلى حتى منتصف الصدر وهى فى سمك الإصبع" [ص ٤٢-٤٣]. كذلك لاحظ "قرن" أن البارى يستخلصون من معدن الحديد طلاء أحمر هو مغرة الحديد الحمراء عن طريق تركه فى الماء أو معرضاً لبخار الماء، وأنهم يستعملون هذه المغرة (أيدروكسيد الحديد) فى طلاء أجسامهم وشعورهم وأدوات الزينة التى يتحلون بها، فيبدو مظهرهم العام وقد غلب عليه اللون الأحمر [ص ٨٥].

أما النشاط الزراعى فقد وصفه "قرن" بقوله "إن البارى يقومون بزراعة الذرة التى تشبه فى وفرة محصولها وجودة أنواعها ذرة التاكا فى شرق السودان، وهى تمثل المحصول الأول عندهم. ولا تقتصر زراعتها على الأراضى التى فى الداخل، وإنما تزرع أيضاً فى الجزر النيلية التى توجد فى هذا الإقليم... كذلك يزرع البارى التبغ الذى يبدون عناية ملحوظة بزراعته، إذ تحاط حقول التبغ بسيياج من الأشواك لحمايتها من الحيوانات المائية، وتظللها سقوف من الأعشاب تقيها من حرارة الشمس اللافتحة، وإلى جوارها بيوت الحراسة والمراقبة المقامة على أوتاد من الخشب لحراستها من الحيوانات المفترسة ومن الأدميين" [ص ٥٢، ٨٧].

كذلك وجد "قرن" أن البارى يقومون بزراعة القطن، وقد شاهده معروضاً للبيع فى جزيرة جانكير فى أقصى حدود سلطنتهم الجنوبية، وظنه فى أول الأمر أنه من النوع الذى ينمو برياً، ولكن (سرعان ما تأكد بعد التحريات والملاحظات التى قام بها أنه من إنتاج المواطنين أنفسهم، وليس من نوع القطن البرى الذى وجده ينمو طبيعياً فى بعض الغابات على ضفاف النيل الأبيض [ص ٨٩-٩٠].

وفضلاً عن النشاط الزراعي لاحظ "قرن" أن البارى يملكون ثروة كبيرة من الماشية، وأن هذه الحيوانات تلعب دوراً كبيراً فى معيشتهم بالنظر إلى كثرة عددهم وعدم إمكانهم الاستغناء عن اللحوم وغيرها من المنتجات الحيوانية فى غذائهم. وهو يصور لنا ارتفاع قيمة الماشية فى تلك الجهات حين يذكر "أن ثمن العبد من الرقيق يقدر بثور واحد" [ص ١٢٢]. وإلى جانب الماشية وجد "قرن" أن البارى يملكون ثروة لا بأس بها من الضأن الذى يشبهه "قرن" بالأنواع التى تعيش فى جزيرة كريت. وقد وصفه "بأن فروته مقوسة ناحية الخلف مع تضخم أسفل الرقبة، وإن كان الصوف الذى تنتجه ليس من النوع الجيد، إذ هو خليط من الصوف والشعر الذى يشبه شعر الماعز". [ص ١٨].

وبالإضافة إلى نشاط البارى فى مجال التعدين والزراعة وتربية الحيوان، وقف "قرن" على نشاط البارى التجارى، وبخاصة بعد تلك المعلومات التى أدلى بها السلطان لكونو (سلطان البارى) للبكبأشى المصرى سليم قبطان قائد حملة الكشف عن منابع النيل التى كان قرن برققتها، ومنها اتضح "لقرن" أن هؤلاء البارى على علاقات تجارية واسعة النطاق مع القبائل والشعوب التى تجاورهم مثل السير والليان والبامبير والبوكو، وأن نشاطهم التجارى قد امتد بعيداً نحو الجنوب قرب خط الاستواء [ص ١٢٥، ١١٦، ١٢٢]. وأن المصنوعات المعدنية التى اشتهروا بإنتاجها وأهمها أدوات القتال وأنواع الحلى تلعب دوراً كبيراً فى تجارتهم الخارجية، بالنظر إلى افتقار تلك القبائل والشعوب لمثل هذه المنتجات، وبخاصة أدوات القتال المصنوعة من الحديد التى كانت بالنسبة لهم شيئاً حيوياً ولازماً للدفاع عن حياتهم وكيانهم وممتلكاتهم ولاسيما القبائل الصغيرة العدد مثل البامبير [ص ١٢٣].

ويصف الرحالة "قرن" نشاط البارى التجارى بقوله "إن البارى كانوا يقدمون لجيرانهم ما يحتاجون إليه من هذه المصنوعات المعدنية مقابل سن الفيل، وإن سلطانهم لكونو كان له نصيب الأسد فى تجارة بلاده، وبخاصة تجارة الرقيق الذى كان يحصل عليه من المناطق المجاورة، إذ كان يقوم بشراء هؤلاء الرقيق من أسرى الحروب التى تقع بين القبائل المختلفة، مقابل حلقات من الحديد كانت تقوم مقام النقود فى التعامل بين سكان هذه الجهات، شأنها فى ذلك شأن أوقيات الذهب فى أقاليم السودان الشمالى. ويقدر سعر العبد بست قطع من هذه الحلقات المعدنية التى لم يكن يزيد سمك الواحدة منها عن سمك إصبع اليد" [ص ١٢٣]. ويضيف "قرن" إلى ذلك "أنه فى حالة التعامل مع القبائل التى يخشى بأسها كان البارى لا يقدمون مصنوعاتهم من الأسلحة للمقايضة عليها، وإنما يتعاملون فى مثل هذه الحالة بتلك الحلقات الحديدية" [ص ٥٧].

ومن الجوانب الأخرى الهامة فى حياة البارى التى تعرف "قرن" عليها هي العادات والتقاليد السائدة بين هؤلاء المواطنين، وبخاصة ما بدا غريباً منه فى نظره. فقد لفت نظر الرحالة "قرن" ما اعتاده البارى من خلع الأربع أسنان الأمامية، وهو ما من شأنه أن يؤثر

على الصورة العامة للوجه عند الضحك، فضلاً عن تأثيره على نطق بعض الكلمات فلا تبدو واضحة تماماً [ص ٢٩]. ويعلق "قرن" على عادة خلع الأربيع أسنان الأمامية السائدة بين الباري بقوله "إن الباري قد لا يختلفون في هذا التقليد عن بعض القبائل القاطنة في أعالي النيل، ولكن الشيء الذي كان يميزهم عن هذه القبائل هو عدم اهتمامهم بثقب آذانهم لتزيينها بالأقراط أو ماشابه ذلك من أنواع الحلى" [ص ٢٩].

وفيما يختص بأنواع الزينة التي إعتاد الباري أن يتجملوا بها، فقد لاحظ "قرن" أن الباري يضعون على أجسامهم عقوداً من أسنان الكلاب والقرود، ولاسيما حول الرقبة للزينة، وكتعاويد تقيهم الأرواح الشريرة، بالإضافة إلى أنواع الحلى الأخرى المصنوعة من الحديد مثل الأساور والخلاليل التي اشتهروا بصناعتها [ص ٢٩]. كذلك لاحظ "قرن" أن موضحة الشعر القصير هي السائدة بين نساء الباري. وإن كان بعضهم يقمن بإزالة شعر رءوسهن تماماً بألة حادة أو بطريق الكي، كما يفعلن بأجزاء أخرى من الجسم. والبعض الآخر كن يتزين بخصلة من الشعر بأعلى الجبهة تميل إلى الخلف بما يشبه عرف الديك [ص ٢٩].

على أن أهم مالفت نظر الرحالة "قرن" في عادات الباري وتقاليدهم هو حرص الرجل منهم أن يضع جلد الحيوان المفترس الذي يكون قد اصطاده من قبل على جسمه ليس كغطاء لبدنه، وإنما كدليل على شجاعته، وكذكري لانتصاره وتغلبه على الشدائد التي واجهته في حياته. كذلك ما اعتاده البعض من وضع ناب الخنزير البرى الذي يكون قد قتله بيده فوق عصاه. أما البعض الآخر ممن لم يقدر له قتل هذا الحيوان فكان يكتفى بوضع شكل أو نموذج لهذا الناب من العاج حول ذراعه. ولكن في أغلب الأحيان كانت "النبابيت" والدمالج التي يستعملها هؤلاء القوم مزدانة أطرافها العليا بما يشبه قرون الثور الصغيرة ومغطاة بقطعة من فروة. وذلك كنوع من التقدير لهذا الحيوان الذي يرون فيه من ضروب الشجاعة والإخصاب ما لا يتوافر في الحيوانات المستأنسة الأخرى [ص ٢٠، ٣٢]. ويشبه "قرن" الباري في تمسكهم بهذه التقاليد بالجرمان القدماء، إذ يقول "وكما أن الأسر النبيلة في ألمانيا كانت تتخذ من رأس هذين الحيوانين (الخنزير البرى والثور) شعارات لها تحمل معاني التقدير والاحترام، كذلك فإن الباري ينظرون لجلود وأنياب هذه الحيوانات كرمز للبطولة أو الشجاعة أو التقدير لبعض الصفات التي تمتاز بها عن غيرها من الحيوانات." [ص ٣٢]. ويضيف "قرن" إلى ذلك قائلاً "ولو لم يكن المناخ في هذه الجهات حاراً لكان من المحتمل أن يضع الباري على رءوسهم غطاء قبعات الحرب ذات الفراء." [ص ٣٢].

ويتناول "قرن" معتقدات الباري الدينية فيقول "إنهم لا يعتقدون بوجود إله للشواب والعقاب، كما إنهم لا يعبدون الأصنام، أو الكواكب كالشمس والقمر، فهذان الكوكبان لا يثيران في نفوسهم أفكاراً أو تأملات غير عادية، رغم أنهم اعتادوا أن يستقبلوا الشمس

كل صباح عند ذهابهم إلى حقولهم، وأن يودعوها في المساء عند عودتهم إلى بيوتهم. أما القمر فإن تأثيرهم به أو إدراكهم لمزاياه ضعيف للغاية، إذ أنهم يأوون إلى أكواخهم مبكرين كما يأوى الدجاج إلى "كنه" بيد أنهم تأثروا بالسماء وقدروها، إذ نظروا إليها على أنها مصدر الأمطار التي تروى حقولهم وتزيد من اتساع مجرى النهر الذي يجري في بلادهم، وتملاً بحيرات السمك بالماء" [ص ٣٠، ٣٩].

ويمضى "قرن" في حديثه عن عادات الباري وتقاليدهم، فيصف أخلاقياتهم بقوله "وبصفة عامة لا يشغل الدين أو المعتقدات الدينية حديث الباري أو تفكيرهم، على أن علاقاتهم ومعاملاتهم مع بعضهم البعض تقوم على أساس المحبة والإخاء والتعاون فيما بينهم. وهذه الصفات هي المقومات الرئيسية لأخلاق هذا الشعب. فإنك تراهم يقبل بعضهم بعضاً في مختلف الظروف والمناسبات التي يلتقون فيها، كما تجد الواحد منهم يأخذ بيد الآخر عند صعوده القارب أو عند نزوله منه، دون أن يطلب منه ذلك، وإنما يتقدم لهذه المعاونة وهو عابر سبيل من تلقاء نفسه. وإذا ما كان لدى أحدهم طعام أو شراب سارع إلى توزيعه على من هم في حاجة إليه من مواطنيه" [ص ٣٠ - ٣١]. ويستطرد الرحالة "قرن" قائلاً "ولكن ليس هذا معناه أن العداوة والبغضاء لا تجد طريقها بين الباري، أو ليس لها وجود على الإطلاق بينهم، إذ الواقع والحقيقة التي يؤمنون بها أن للمرء أعداء كما له أصدقاء. بل أحيانا تدفع الرغبة في الإنتقام بعضهم إلى أن يرتكب بعض الأعمال الشائنة التي يصعب على المرء أن يتصور حدوثها بين شعب مسالم كشعب الباري" [ص ٣٠، ٣١].

أما عن تقاليد الباري الخاصة بالأسرة والحياة الزوجية فيحدثنا الرحالة "قرن" أن مسألة تعدد الزوجات مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمركز الفرد الاجتماعي ويكاد هذا الأمر يخضع لنظام معين، فللسلطان بحكم مركزه الممتاز أربعون زوجة، ولكل ولد من أولاده البالغين ست زوجات. والشيخ أو رئيس القبيلة له أن يتزوج ثلاثة أو أربعة من النساء. أما الفرد العادي فله أن يتزوج واحدة أو اثنتين هذا بخلاف المحظيات والجواري اللاتي يحصلون عليهن من بين أسرى الحروب، أو بطريق، الشراء من البلاد المجاورة كمواطن البوكو، وذلك مقابل المصنوعات المعدنية كأدوات القتال وأدوات الزينة التي اشتهروا بضاعتها من الحديد. وقد اعتاد السلطان لاكونو نفسه أن يركب النهر إلى هذه الجهات من حين لآخر ليحصل منها على الرقيق اللازم" [ص ٢٧].

ومن الموضوعات الأخرى الهامة التي عنى الرحالة "قرن" بتسجيلها خلال رحلته في هذه المناطق النائية من أقاليم السودان الجنوبي وأعالى النيل. ذلك اللقاء الهام الذي تم بين لاكونو سلطان الباري والقائد المصري البكباشي سليم قبضان. وما كان لهذا اللقاء من نتائج هامة حرص "قرن" على تدوينها في كتاب رحلته. يقول "قرن" "إن البكباشي سليم قد رغب بعد نزوله بأرض الباري في زيارة زعيمهم الأكبر السلطان لاكونو. وقد عبر

عن رغبته هذه لبعض شيوخهم الذين التقى بهم، وهؤلاء نقلوها بدورهم إلى السلطان، فبعث بأخيه الأصغر "نيكلو" Nikelo وبصهره "تومبي" Tombe كسفير من قبله إلى البكباشى سليم ليخبراه بعزم السلطان على زيارته، كما بعث بعد ذلك برسولين آخرين من أقاربه يدعى أحدهما "دوجاليه" Dogale، ويدعى الآخر "بيتجه" Betja ليعلنا قرب مجيئه لقائد الحملة [ص ٢٢٦-٢٢٦].

ويصف "قرن" مظاهر هذا اللقاء بقوله: "وقد حضر السلطان لاكونو لمقابلة سليم على ظهر سفينته تصحبه زوجته السلطانة "إشوك" Ishok وبعض أفراد حاشيته، وفرقة من الموسيقى ظلت تعزف حتى وصول موكبه إلى الشاطئ. وعند وصوله أطلقت سفن الحملة مدافعها تحية للضيف الكبير. وكان السلطان يرتدى قميصاً طويلاً واسعاً من القطن لونه أزرق وله أكمام واسعة طويلة، وفي وسطه حزام من القماش الأبيض والأزرق يضم أردافه، وحول رقبته عقود من الخرز الزجاجي وأطواق من أسلاك الحديد الرفيعة. ويضع فى قدميه صندلاً من الجلد السميك أحمر اللون. وفى أصابعه خواتم من الحديد اللامع... [ص ٦٠].

"وقد استقبله سليم مع حاشيته بالحفاوة والتكريم، فقدم لهم بعض أنواع المأكولات غير المألوفة فى بلاده مثل اللوز والتمر والعنب المجفف. وأهدى إلى السلطان بعض الهدايا التى لم يستطع أن يخفى سروره وإعجابه بها. فما أن جلس على البساط الذى أعد له ليجلس عليه حتى قدم له البكباشى سليم رداءً أحمر، وأشار إليه بالوقوف ليرتديه فى حضرته، ثم وضع على كتفه شالاً أبيض وآخر على رأسه فى شكل عمامة، وذلك بعد أن ألبسوه طربوشاً وعدداً من عقود الخرز الزجاجي، وعرضوا عليه عدداً آخر من تلك العقود ليقدمها لزوجته السلطانة أشوك". ويستطرد فى وصف هذا اللقاء قائلاً "وعندما وقع نظر السلطانة على بساط لسكرتير قائد الحملة لم تستطع أن تخفى رغبته القوية فى أن تمتلكه لنفسها، حيث ثبتت عليه نظرها وثقلت بجوارحه أقدامها، فلم يسع سليم قبطان إلا أن يستأذن سكرتيره فى أن يقدمه لها واعدأ إياه ببساط آخر فى مقابل هذا البساط" [ص ٦٠].

ويصف "قرن" السلطان لاكونو وحاشيته فى أثناء تناولهم الطعام الذى قدمه لهم البكباشى سليم قبطان مسجلاً ملاحظاته عليهم بنوع من الدقة التى عرف بها بأنه على الرغم من أن تلك الأنواع من المأكولات لم تكن معروفة فى بلاد البارى، فإنه لم تبد على لاكونو أو زوجته أو على رجال حاشيته أى مظهر من مظاهر الشراهة أو السرعة فى تناولها، كما أنهم لم تدهشهم رؤية أوانى الماء المختلفة التى كانت على المائدة، بل أجادوا استخدامها. كذلك لوحظ أنهم متمسكون بأداب المائدة، ويعاملون بعضهم بعضاً فى أثناء تناولهم الطعام بنوع من الاحترام والعطف والتقدير [ص ٢٨، ٥٧]. ويعلق "قرن" على مشاهدته من ملاحظات أثناء تناول لاكونو وحاشيته الطعام بقوله "إن تلك المظاهر قد قوت الدليل لدى سليم قبطان ورجاله على تقدم ورفاهية هؤلاء القوم النسبى، وارتفاع مستواهم الاجتماعى إذا قورنوا بالقبائل والجماعات الأخرى التى التقوا بها فى جهات

أعلى النيل الأبيض" [ص ٥٧].

بالإضافة إلى مظاهر الحفاوة والتكريم التي قابل بها البكباشى المصرى سليم قبطان قائد حملة الكشف عن منابع النيل ضيفه الكبير سلطان البارى، فقد عبر هذا القائد المصرى عن المزيد من مودته وتقديره لهذا الزعيم السودانى ولبلاده بأن قدم له فى ختام لقائه به بعض الحبوب والغلات المصرية ليقوم بزراعتها فى بلاده. وقد أبدى السلطان لكونو من جانبه إهتماماً ملحوظاً بتحقيق هذه الرغبة النبيلة التى تعد دون شك من النتائج الإيجابية لحملة البكباشى المصرى سليم قبطان إلى جانب النتائج الأخرى العلمية والجغرافية التى حققها (١).

ولقد عبر "فرن" عن هذا العمل الإنسانى والحضارى الذى قام به هذا القائد المصرى تعبيراً صادقاً، وإن كان قد أغرى إلى شخصه أنه صاحب الفكرة إذ يقول "لقد كنت السبب فيما أهداه سليم قبطان إلى السلطان لكونو زعيم البارى من الغلات الزراعية ليقوم هذا السلطان بزراعتها فى بلاده فى المستقبل، وأهما الذرة النيلية والذرة العويجى من الأنواع الممتازة، والحمص والفل الذى يعرف عند العرب بفل الخيل (وهو ذو قيمة غذائية لهذه الحيوانات) فضلاً عن أنواع أخرى كثيرة من الفاكهة، والكروم" [ص ٧٧]. ويضيف قائلاً: "ولقد بدا لى واضحاً أن الرجل سيعنى ببذر هذه التقاوى إذا أنه لم يهمل نوايا التمر الذى تناوله معنا وقام ببذرهما فور انتهائه من تناولها" [ص ٧٧].

ويستطرد "فرن" قائلاً "ولما كان الكروم تنمو فى بلاد السودان فإنه من المحتمل كثيراً أن تنمو كذلك فى مواطن البارى، أما أشجار تخيل التمر فإنى أشك فى أنه سينمو فى هذه الجهات. فقد شاهدت بنفس أشجار الدوم فى الأجزاء السفلى فى حوض النيل الأبيض وقد يبست وتوقفت عن النمو" [ص ٧٧].

كذلك أمدنا "فرن" بنتائج أخرى أسفر عنها لقاء لكونو سلطان البارى بالبكباشى سليم تتعلق بالمعلومات الهامة التى أدلى بها لكونو لسليم قبطان عن طبيعة وجغرافية المناطق الجنوبية فى أعلى النيل التى كان البكباشى سليم يرغب فى التعرف عليها وهو فى طريقه جنوباً للكشف عن منابع نهر النيل، وقد كان السلطان لكونو على علم ببعض هذه المناطق بالنظر إلى إمتداد نفوذه السياسى على بقاع شاسعة، فضلاً عن نشاطه التجارى على نطاق واسع مع القبائل والشعوب التى تجاور سلطنته. كذلك فيما يختص بتصوره لمانبع النيل والمكان الذى يعتقد أن هذه المنابع توجد فيها.

فقد ذكر فرن أن السلطان لكونو قد أخبر سليم بوجود مملكة بالقرب من سلطنته تقع على مسيرة عشرة أيام ناحية الشرق تدعى مملكة "برى" Berrî وصفها بأنها أهلة بالسكان الذين يتكلمون بلغة تختلف عن لغة قومه، وأن الطريق إليها خال من الماء، كما

(x) نسيم مقار (دكتور) البكباشى المصرى سليم قبطان والكشف عن منابع النيل (القاهرة، عام ١٩٦٠، ص ٩٩ - ١٢٠).

لا يجرى في داخلها أنهار، وإنما يحصل أهلها على الماء اللازم من أماكن أخرى. وأضاف أنه على علاقات تجارية بهذه البلاد، إذ يحصل مواطنوه منها على حاجتهم من ملح الطعام الذي يمتاز بتفاوته وعلى النحاس والخرز الزجاجي ذات اللون الأبيض والأحمر والأزرق مقابل أدوات القتال المصنوعة من الحديد. كذلك أخبر بوجود سلسلة من المرتفعات تسمى "لوجاجا" logaja (وتعرف أيضاً بإسم "لوكونجا" Lokonja) يقطنها قوم من آكلي لحوم البشر (نيام نيام) يجنون على أطرافهم الأربعة عندما ينهشون لحوم الأدميين كما يفعل الكلاب تماماً، كما أنهم لا يخلعون أسنانهم الأمامية كالقبايل والجماعات الأخرى التي جرت على هذا التقليد [ص ٢٧، ٥٦، ٥٧، ٦٩، ٧٠].

ويضيف "فرن" إلى ذلك أن السلطان قد طلب من البكباشى سليم أن يمنحه بندقية كتلك التي يحملها جنوده ليستطيع بها صيد هذه الجماعات من آكلي لحوم البشر (نيام نيام). ولكن سليم رفض طلبه. كذلك طلب منه معاونة جنوده بأسلحتهم النارية في الاستيلاء على مملكة البرى المجاورة ليضع يده على كنوزها (كنوز الذهب) مؤكداً له في الوقت نفسه أنه سيبذل قصارى جهده لإنجاز هذا العمل فى أسرع وقت ممكن ليعود هؤلاء الجنود إلى مقرهم دون تأخير أو إبطاء. بيد أن سليم قبطان لم يعلق على أقوال لاکونو هذه بشيء، وإنما التزم الصمت ولم ينطق بكلمة واحدة [ص ٣٢ - ٣٦ - ٦٨، ٨٧ - ٨٨].

أما فيما يتعلق برأى لاکونو سلطان البارى فى منابع نهر النيل الذى أدلى به للبكباشى سليم قبطان، فيحدثنا فرن أن السلطان قد ذكر لسليم أنه لا بد من السير فى مجرى النهر ثلاثين يوماً نحو الجنوب ليصل إلى بلاد "أنجان" Anjan التى يتفرع عندها "طوبيرييه" Tu-birih (وهو الاسم الذى كان يطلقه سكان هذه الجهات على النيل الأبيض) إلى أربع أذرع أو مجارى مائية يصل إليها الماء من سلسلة المرتفعات الشاهقة.... [ص ٢٣، ٨٣]. ويستطرد "فرن" قائلاً: "انه وعندما سئل لاکونو عما إذا كان الجليد يغطى تلك المرتفعات التى تخرج منها هذه الأذرع المائية للنيل الأبيض أجاب بالنفى. كذلك لم يستطع أن يقرر ما إذا كانت الأذرع الأربعة التى تكون النيل الأبيض فى تلك الجهة تخرج من الصخور أو من سطح الأرض بحجة أنه لم يقدر له السفر بعيداً إلى تلك الجهات" [ص ٢٣، ٨٣].

ويقول "فرن" "إنه على أثر ذلك قرر سليم قبطان مواصلة السير جنوباً فى مجرى النيل الأبيض بصحبة لاکونو سلطان البارى نفسه ليرشده على الطريق إلى منابع هذا النهر، وليضمن بوجوده مع الحملة عدم وقوع أى اعتداء عليها من القبائل والجماعات الأخرى التى سيلتقى بها أثناء سيرها نحو الجنوب" [ص ٦٢].

كشف جزيرة جانكير Janker :

وفى ٢٥ يناير عام ١٨٤١ وصل "قرن" مع حملة البكباشى المصرى سليم قبطان إلى جزيرة فى مجرى النهر فى أقصى الحدود الجنوبية لمواطن البارى تعرف بجزيرة "جانكير" Janker (وقد ذكروا أيضا لقائد الحملة عند وصوله إليها اسم ريم Riem) [ص ٧٦].

وقد قضى الرحالة "قرن" برفقة سليم قبطان والمهندسين الأوروبيين : تيبو ودارنو وسابا تيبه ثلاثة أيام فى هذه الجزيرة يستطلعون أحوالها ويكتشفون خصائصها الطبيعية والجغرافية، وكذلك طبيعة مجرى النهر فى هذه المنطقة [ص ٧٨، ٨٠].

ويصف الرحالة "قرن" سكان هذه الجزيرة ونشاطهم الاقتصادى "بأنهم جماعات من الزنوج تعيش على تربية الماشية والضأن والماعز، وتمارس إلى جانب حرفة الرعى الرئيسية زراعة الذرة والسمسم والتبغ والقطن، وأنهم يتعاملون بهذه السلع والمنتجات" [ص ٨١، ٨٩].

وأما عن الخصائص الطبيعية والجغرافية للجزيرة التى كشف عنها سليم قبطان بمعاونه المهندسين الأوروبيين، وما كان من أمر الحاجز الصخرى الذى وجدوه فى مجرى النهر جنوب الجزيرة من الشرق إلى الغرب فيحدثنا عنها الرحالة "قرن" بقوله "إن الأعمال الكشفية التى قام بها سليم قبطان بمعاونة المهندسين الأوروبيين الذين رافقوه أوضحت أن جزيرة جانكير هذه تقع قبالة مكان مرتفع من الأرض (عند غندكرو) وأن قسماً كبيراً منها يغلب عليه الطابع الصخرى ذى التربة الرملية التى لا تصلح للزراعة بينما القسم الآخر منها يصلح للإنتاج الزراعى. كما دلت أعمال الكشف على وجود حاجز صخرى جنوب الجزيرة يمتد عند مجرى النهر من الشرق إلى الغرب، فتدفق عليه المياه بشدة تدفقها على جنادل النوبة" [ص ٦٤، ٦٥].

ثم يصف "قرن" موقف البكباشى سليم قبطان ورفقائه من المهندسين الأوروبيين من هذا العائق المائى (الحاجز الصخرى) بعد أن اكتشفوا أنه يعوق الحملة عن متابعة سيرها جنوباً فى مجرى النهر للكشف عن منابعه. وما كان من أمر الاقتراح بالانتظار عند غندكرو لحين حلول موسم الأمطار-يصف ذلك بقوله "إن سليم قبطان ورفقائه من المهندسين الأوروبيين سرعان ما أدركوا بعد كشف هذا الحاجز الصخرى الذى يعترض مجرى النهر جنوب جزيرة جانكير أنه لا سبيل إلى التقدم جنوباً، وأنهم إذا أرادوا مواصلة السير نحو الجنوب إلى منابع النيل، فعليهم الانتظار فى هذه المنطقة لحين سقوط الأمطار وارتفاع منسوب المياه فى النهر، وبذلك تغطى الصخور الجنادل التى تعترضه، فيتيسر للسفن المرور فيه" [ص ٨١].

وأخيراً يحدثنا الرحالة "قرن" عن اعتراض البكباشى سليم والمهندسين الأوروبيين على الاقتراح السالف الذكر مشيراً إلى أنه قدم اقتراحاً بهذا المعنى-ويشرح بوضوح وصرامة

الأسباب الواقعية من وراء عدم إمكان الحملة الانتظار في هذا المكان الذي حدده (غندكرو)، وبالتالي اتخاذ القرار النهائي والحاسم بالعودة إلى الخرطوم، إذ يقول "إنه قدم اقتراحاً بهذا المعنى وحدد مكان الإنتظار بغندكرو، ولكن اعترضوا على اقتراحي الذي يرمى إلى انتظار الحملة لحين حلول موسم الأمطار بأن المؤن التي زودت بها الحملة لمدة عشرة أشهر لا يمكن أن تكفيها إذا تأخر موعد عودتها عن الميعاد المحدد لذلك. ومن ناحية أخرى لا يمكن الاعتماد على منتجات سكان هذه البلاد من الغلات الغذائية، لأنهم لا يزرعون منها إلا ما يكفي حاجتهم الضرورية، فلا يوجد لديهم فائض من هذه الغلات يحرصون على تخزينه. وقد كان إنتاجهم الحيواني وحده كافياً لأن يعوضهم أى نقص فى إنتاجهم الزراعى من المواد الغذائية. يضاف إلى ذلك أنه حتى لو توافرت الغلات الغذائية لدى المواطنين، فإن زجال الحملة لم يعودوا يملكون الوسائل الفعالة للحصول عليها. فالسلطان لاكونو زعيم البارى الذي يمتد نفوذه إلى تلك الجهات سوف يبدو أمام حاجة الحملة إليه فى هذا الشأن أكثر تعالياً من ذى قبل، كما أن شدة إصراف رجال الحملة فى توزيع الخرز الزجاجى بين المواطنين قد أضعف من قيمته الشرائية كسلعة يمكن الحصول بها على سلع ومنتجات هذه الجهات. وفوق هذا وذلك فإن بقاء الحملة فى هذه المنطقة البعيدة من شأنه أن يعرضها لهجوم مفاجئ، من سكان هذه الجهات، وبخاصة أنها أخذت تبعد عن المناطق التى يبسط لاكونو عليها نفوذه الفعلى والمباشر" [ص ٨١، ٨٢].

ويختم الرحالة "قرن" حديثه قائلاً "ومن أجل هذا كله رفض اقتراحي (السالف الذكر) الخاص بانتظار الحملة عند غندكرو لحين سقوط الأمطار، وقرر سليم قبطان ورفقاؤه العودة إلى الخرطوم" [ص ٨٥].

العودة إلى الخرطوم:

وفى ١٨ مايو عام ١٨٤١ غادرت حملة البكبشى سليم قبطان الكشافية (الثانية) غندكرو إلى الخرطوم ومعها صاحبنا الرحالة "قرن" بعد أن وصلت إلى خط عرض ٤٢° ٤' شمال خط الاستواء .

وهكذا انتهت رحلة "قرن" فى السودان الجنوبى وأعلى النيل التى زار خلالها مناطق وقبائل وشعوب لم يقدر لغيره من الرحالة الأوروبيين زيارتها من قبل.

بقيت للرحالة "قرن" كلمة لا ينبغى أن نغفلها أو نتجاهلها، حرصاً على أمانة الكلمة التى إلتزمنا بها سواء فى عرضنا لمشاهداته ودراساته فى أقاليم السودان المختلفة التى قدر له زيارتها أو فى التعليق الموضوعى عليها، ونعنى بها ما أبداه "قرن" من رأى شخص فى حكم محمد على فى السودان .

ولئن جاء رأى "قرن" هذا مسبقاً فى أول كتاب رحلته السالف الذكر، إلا أننا قصدنا

بعرضه في نهاية ما سجلناه من مشاهداته ودراساته في الأقاليم السودانية المختلفة، أن يأتي حكم الباحث على مدى صواب هذا الرأي بعد أن تكون قد أتاحت له فرصة الإلمام بحقائق وخصائص هذا الحكم من خلال تلك المشاهدات والدراسات.

رأي الرحالة "قرن" في حكم محمد علي في السودان :

لقد عبر الرحالة "قرن" عن رأيه الشخصي في حكم محمد علي في السودان بقوله "إن محمد علي قد ضحى بابنه إسماعيل، كما أنه عن طريق الدفتردار خرب وأفقر البلاد الجميلة، لمجرد أن يؤمن لنفسه الطريق إلى مناطق الذهب، مع أنه كان في إمكانه أن يصل إلى هدفه بأحسن من ذلك لو أنه عمل على إنعاش البلاد بكل الطرق المختلفة وعلي إعادة الثقة التجارية، ذلك أن هذه البلاد التي كان قد قام فيها منذ زمن بعيد السوق التجارية الذي كان يأتي إليه الذهب أولاً على شكل تبر وحببات كانت تفصل من رمال السبول ويحفظ في قرون الغزال. وفي كردفان وسنار نجد الذهب على شكل حلقات تزن الواحدة أوقية ونصف الأوقية، وكذلك على شكل أسلاك ذهبية ولكن دائماً يحول بعد وزنه وصهره إلى سبائك ذهبية، وتلك لا يزدري بها محمد علي" [ص ٢].

ويستطرد الرحالة "قرن" قائلاً "إن كل هدف محمد علي من حروبه التي خاضها بعناد وصلابة هو أن يغني بسرعة وبأى ثمن. إن الحروب التي قام بها، وكذلك المصانع والمؤسسات التي أنشأها أنقذت موارده، ولم يجد في حيرته بدأً من أن يحقق بسرعة فكرة الاستيلاء على كنوز فازوغلي وكردفان" [ص ٥].

مصادر البحث

أولاً : المصدر الأصلي

Werne: Expedition to Discover the Source of the White Nile in the Year 1841, 1841., (London, 1849)

ثانياً : مصادر ثانوية

أ - وثائق ومخطوطات :

- ١- وثائق غير منشورة بسرأى عابدين (قصر الجمهورية) بالقاهرة
 - ٢- مخطوط تاريخ ملوك السودان وأقاليمه إلى حكم إسماعيل (النسخة المحفوظة بدار الكتب المصرية بالقاهرة).
- ب - مصادر عربية :

ب - مصادر عربية

- ١- ساماركو (دكتور) : رحلة محمد على إلى السودان (تعريب طه فوزى)، القاهرة، ١٩٤٧.
- ٢- فردريك (بك) نيغولا : مصر والجغرافيا (تعريب أحمد زكى).
- ٣- نسيم مقار (دكتور) : البكباشي المصري سليم قبطان والكشف عن منابع النيل، القاهرة، ١٩٦٠.

4- Darnaud: Documents et Observations sur le cours du Bahr-el-Abiad.

5- Deherain: Le Soudan Egyptien Sous Mehemet Ali, Paris, 1898.

6- Richard Hill: Ariographical Dictionary of the Anglo Egyptian Sudan, Oxford 1951.

7- Robinson: The Rulers of the Sudan ... Journal of the African Society, Vol. xx/v

8- Waalkeley: The Story of Khartoum, S.n.&R., Vol. xv///.

الفصل الثامن

الرحالة جورج ميللي G. Melly

ظروف رحلته إلى السودان (١٨٥٠ - ١٨٥١):

قام جورج ميللي G. Melly وهو انجليزي الأصل برحلته إلى مصر والسودان بصحبة والدته وأخيه وأخته، وكانت زيارته للسودان في أواخر عام ١٨٥٠ وأوائل عام ١٨٥١ مدة حكمدارية عبد اللطيف باشا. وقد وصل جورج ميللي في رحلته جنوبا حتى مدينة الخرطوم، حيث لم يسبقه إلا القليل من السائحين، كما أن اشتراك السيدات في رحلته إلى الأقاليم الجنوبية حتى الخرطوم يعد الأول من نوعه. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على ما أصبح يتمتع به السودان في ظل الإدارة المصرية من أمن وأمان أغرى الرحالة الأوروبيين على اختلاف أجناسهم وجنسياتهم بزيارته والسياحة بين ربوعه.

أما الطريق الذي سلكه جورج ميللي ورفقاؤه من أفراد أسرته إلى السودان فقد ركبوا نهر النيل من وادي حلفا إلى دنقلة، ومنها اخترقوا الصحراء (صحراء أرجاب تشاجوا At-gab Teshagoa) إلى جبل البركل، ثم عبروا نهر النيل إلى مروي، ومنها اخترقوا صحراء بيوضة إلى المتممة أو وادي بشار Bashara، ومنها ساروا إلى الخرطوم. أما في العودة شمالاً فقد ركبوا نهر النيل في قوارب من الخرطوم إلى برير، ومنها ركبوا الإبل إلى كرسكو مخترقين الصحراء [ص ٢٥٨ - ٩]. وبذلك أتاحت للرحالة ميللي أن يطرق طريق القوافل الشرقي عبر صحراء كرسكو (صحراء العتمور) الذي لم يسلكه في رحلة الذهاب، وبالتالي قدر له أن يصف لنا المدن والقرى الواقعة على هذا الطريق مثل كرسكو وأبو محمد، وأن يحدثنا عن نفوذ العبادة في هذه الصحراء.

ولقد سجل الرحالة جورج ميللي رحلته في السودان في كتاب من جزئين تحت عنوان "Khartoum and the Blue and White Nile" (الخرطوم والنيل الأزرق والنيل الأبيض). وقد طبع كتاب الرحلة في لندن عام ١٨٥١ أي في نفس العام الذي أنهى فيه الرحالة ميللي رحلته في السودان.

الأهمية التاريخية والعلمية للرحلة:

لقد تمت زيارة الرحالة ميللي للسودان في أواخر عام ١٨٥٠م وأوائل عام ١٨٥١م أي في نهاية حكم محمد علي وبداية عهد عباس الأول، ومن ثم فإن مشاهداته ودراساته في البلاد السودانية التي زارها والتي دونها في كتاب رحلته تعطي لنا صورة واضحة كما رأها شاهد عيان - لأحوال السودان في هذه الحقبة من تاريخه الحديث، وهي ميزة تميزت بها رحلته عن رحلات الذين سبقوه في زيارة هذه البلاد وخلال النصف الأول من القرن التاسع

عشر ممن تعرضنا لهم بالدراسة.

ولقد عبر ميللي عن رأيه في حكم عباس وإدارته في السودان بقوله "مهما يقال في أخلاق عباس الشخصية، فإن حكومته تبدو أكثر ميلاً لمساعدة التجارة الحرة، كما أنه أكثر نفعاً للبلاد من أي حاكم سابق. ويضيف إلى ذلك قوله "وما دام عباس يتبع نصيحة أصدقائه الحاليين-فإن من المأمول فيه أنهم سيعضدون استقلال مصر". أما عن سياسة عباس نحو نفي الموظفين وإبعادهم إلى السودان فيرى الرحالة ميللي أن فيها مصلحة للسودان، إذ يقول "وتتيجة نفي وإبعاد الموظفين إلى أقاليم الخرطوم وبربر ودنقلة وفازغلي وغيرها، تحكّم هذه الأقاليم حكماً مرضياً، حيث يصبح جميعها تحت إدارة رجال أذكياء تنقلوا كثيراً وامتازوا بدقة الملاحظة".

على أن ميللي قد صور لنا في كتاب رحلته استياء الأوروبيين من سياسة الاحتكار التي تمسك بها الحكمدار عبد اللطيف باشا بالنسبة لبعض السلع والمنتجات السودانية ذات القيمة التجارية مثل الصمغ والعاج، وعبر عن رغبة هؤلاء الأوروبيين في هذه السلع وغيرها، وما يمكن أن تجنيه هذه الشركات والمؤسسات من أرباح، فضلاً عن إمكان تصريف السلع والمصنوعات الأوروبية التي تلقى رواجاً في أقاليم السودان المختلفة. وهو بذلك يشير إلى بداية التطلع الاستعماري الأوروبي للسودان الذي أخذ يظهر في أواخر حكم محمد علي، عندما أخذت الدول الأوروبية تمارس ضغوطها على سياسته الاحتكارية في أقاليم السودان التي خضعت للإدارة المصرية، وتطالب بحرية التجارة في السلع والمنتجات السودانية التي احتكرها.

كذلك وصف لنا الرحالة ميللي ظاهرة هجرة الفلاحين في بعض المناطق السودانية التي قدر له زيارتها لحقولهم ومساكنهم تحت وطأة الضريبة التي فرضتها الحكومة عليهم، واستمع إلى شكاوى المواطنين منها وقد أنحى باللائمة على شيوخ القرى بالدرجة الأولى إلى جانب الحكام الأتراك.

كما تبدو أهمية الرحالة العلمية في وصف الرحالة ميللي لطرق القوافل الصحراوية التي سلكها في رحلته، وبخاصة الطريق الصحراوي من مروى إلى الخرطوم عن طريق المتمة عبر صحراء بيوضة، وهو وصف لا يخلو من التفصيل والدقة.

كذلك وصفه الدقيق لمدينة الخرطوم وقت زيارته لها (١٨٥٠/١٨٥١م)، وأيضاً المنطقة التي تقع فيها، إذ وصف منازلها من حيث الشكل والمواد التي تبنى منها، والأثاث الذي تحويه، وعدد سكانها من المسلمين والمسيحيين واليهود، والمؤسسات الأوروبية فيها، وما تقوم به هذه المؤسسات من نشاط ديني وعلمي. كما تناول النشاط التجاري داخل المدينة، فوصف المتاجر على اختلاف أنواعها، والسلع والمنتجات المحلية والأوروبية التي تعرض فيها، وأبدى ارتياحه لوجود بعض المصنوعات الإنجليزية بين هذه السلع، وتمنى أن يتسع مجال التجارة بالسلع والمنتجات المصنوعة في بلاده إنجلترا، وأن تقام مؤسسات وشركات تجارية أوروبية في الخرطوم وغيرها من المدن السودانية.

وتبدو أيضاً أهمية حديث الرحالة ميللي عن الخرطوم من المعلومات التي أفضى له بها عبد اللطيف باشا حكمدار السودان في أحد اجتماعاته معه خاصة يدخل الحكومة من منطقة الخرطوم، والتي علق الرحالة ميللي على تقديراته "بأنها تثير الدهشة والفرع". وإلى جانب وصف مدينة الخرطوم قدم لنا وصفاً لبعض القرى والمدن السودانية الأخرى مثل بربر وكرسكو، وأبو محمد، ودار حامد، ووادي حلفا، وإن كان وصفه لهذه البلاد قد جاء موجزا ولكن معبراً.

وفوق ذلك فقد حدثنا الرحالة "ميللي" عن الاهتمام بالتعليم الديني وانتشاره في بعض المناطق السودانية التي زارها، فهو يذكر أنه وجد في مدينة الحافر مدرسة يصفها بأنها مدرسة كبيرة يقوم الفقهاء فيها بتدريس القرآن الكريم. وقد تحدث معه أحد فقهاؤها في الشؤون المحلية المتعلقة بفرض الضريبة على الأهالي مما سنتناوله بالتفصيل في حينه. وأخيراً ينبغي ألا يفوتنا أن نشير إلى جانب علمي تضمنه كتاب الرحلة، فقد حرص الرحالة ميللي أن يرقق به ملحق بدرجات الحرارة وملاحظاته على الطقس في الأماكن المختلفة التي قدر له زيارتها في مصر والسودان خلال رحلته، إلى جانب أنه ضمن الكتاب خريطة جغرافية توضيحية لسير الرحلة، والطرق الصحراوية التي سلكها في الذهاب والعودة، والأماكن والمدن التي تقع عليها.

وصف الطريق إلى الخرطوم عبر صحراء بيوضة :

لقد أشار الرحالة "ميللي" في كتاب رحلته إلى أن هناك طريقين للقوافل عبر صحراء بيوضة يصلان مروى بالخرطوم، أحدهما من مروى إلى الخرطوم مباشرة، والآخر من مروى إلى المتممة الواقعة على شاطئ نهر النيل على مسافة ستين ميلاً شمال الخرطوم، ومنها إلى الخرطوم ذاتها. وقد قارن الرحالة "ميللي" بين الطريقين "بأن الطريق الأول أقصر من الطريق الثاني بمسيرة يومين، وأن الطريق الأول يتوافر فيه الماء والعشب، حين تسقط الأمطار شتاء، إلا أن الكثير من البدو الأشرار يتوافدون عليه، لذلك فإن التجار أخذوا يفضلون الطريق إلى المتممة (الطريق الثاني)، بعد أن قتلت فيه جماعة من المسافرين منذ ستة أعوام. أما في فصل الصيف فإن الطريق الأول يعد آمناً" [ص ١٠٢]. وقد وصف الرحالة "ميللي" طبيعة الطريق الذي سلكه من مروى إلى المتممة أو (وادي بشارة) عبر صحراء بيوضة "بأنه طريق "جبلي" تتخلله سلسلة من الجبال المرتفعة السوداء، وهو كثير الشبه بأحد ممرات الألب. والممر الذي تسير فيه الإبل هو الذي اختطته القوافل التي تمر فيه على الدوام ويوجد المسافر في بداية الطريق على مسيرة أربع ساعات آبار مياهها غير عذبة لا تصلح لشرب الإنسان، وإن كانت الإبل تستقي منها. بيد أن المسافر لا يعدم وجود آبار مياهها عذبة" [ص ٦٥]. وقد صادف الرحالة "ميللي"

فى طريقه بئراً مأوّه عذبة وعميق جداً يقول "إن العرب يقومون بسحب الماء من البئر فى "دلو" من الجلد يفرغونها فى أحواض محفورة فى الأرض وإنه فى هذه البئر وتستقى جماعات من العرب ترعى قطعانها المختلفة على الأعشاب التى تنمو على المنحدرات" [ص ٦٥].

ويعمضى الرحالة "ميللى" فى وصف الطريق الذى سلكه من مروى إلى المتمة فى طريقه إلى الخرطوم عبر صحراء بيوضة، ويقارن مناظره بما شاهده فى سوريا فيقول "إن السير فى صحراء بيوضة كان أسعد مرحلة فى رحلته الصحراوية، فهى كثيرة الشبه بصحارى سوريا، وإن المرء ليدهش حقاً حين يرى فى هذا الطريق بعض المناظر التى تشبه إلى حد كبير متنزه فى إنجلترا أكثر من كونها صحراء فى إفريقيا. والواقع أنه فى هذه الصحراء تتوافر الخضرة والأعشاب، وتظهر فى بعض المناطق أشجار السنط ذات الحجم الكبير، وحيث توجد الأشجار توجد الطيور الجميلة والحمام واليمام بكثرة. كذلك تكثر الغزلان. وإن هذه الصحراء يكثر فيها المواطنون خلال موسم الشتاء، إلا أن الخوف من جور الترك ومضايقتهم، وما تتطلبه مقتضيات الضيافة والكرم تجعلهم يتجنبون الطرق التى يتردد المارة عليها كثيراً، ويخفون أنفسهم فى أكثر الأودية عزلة، حينما يستطيعون الحصول على المرعى لقطعانهم" [ص ٦٩ - ٧٣].

وعند نهاية هذا الطريق لاحظ الرحالة "ميللى" الحقول الكثيرة ذات التربة الخصبة التى يقوم البدو فيها بزراعة المحاصيل الجيدة من الذرة والشعير والذرة العويجة عقب سقوط الأمطار، لكنهم يضطرون لسوق قطعان الماشية والأغنام إلى الأماكن التى يوجد فيها ماء المطر بين الصخور كل أربعة أيام [ص ٧٥].

وبعد مسيرة عشرة أيام فى طريق رملى صخرى وصل الرحالة "ميللى" ورفقاؤه إلى النهر، حيث شاهدوا الشواطئ الغنية بالذرة [ص ٧٢]. وحيث تقع مدينة المتمة. وقد وصفها "بأنها تضم حوالى مائة وثلاثين بيتاً من البيوت الصيفية التى تشبه الخيام والمصنوعة من الطين وسيقان الذرة" [ص ٧٥].

وأما بقية الطريق من المتمة إلى الخرطوم فيصفه الرحالة "ميللى" بقوله "إن المسافر فيه يمر بغابات السنط التى يتزاحم عليها الحمام، وتوجد كميات كبيرة من الصمغ فى هذه المنطقة. كما توجد على هذا الطريق بعض القرى التى تتكون من البيوت الريفية التى تشمل عادة فناء (حوش) محاط بسيجاج من الطمى أو سيقان الذرة الجافة أو أغصان أشجار السنط. وفى هذا الفناء يوجد الحيوانات سواء أكانت حصاناً أو حماراً أو جملاً. ووسط هذا الفناء أو فى جانب منه يوجد فى الغالب البيت المصنوع من الطمى وأغصان السنط المتشابكة والمغطى سقفه بأوراق وسيقان الذرة. والأثاث يتكون من مرتبة وعدد من الحصر والكراسى الواطئة ودرع وسهم وسرج للنجل وما شابه ذلك" [ص ٧٧-٧٩].

وصف مدينة الخرطوم (عام ١٨٥٠/١٨٥١):

يصف الرحالة "ميللي" مدينة الخرطوم وقت زيارته لها عام (١٨٥٠/١٨٥١م) بأنها تقع على بعد حوالي ثلاثة أميال من التقاء النيل الأزرق والنيل الأبيض، وفي منتصف المسافة توجد قريتان، يشغل سكان إحداها ببناء السفن" [ص ٨٣]. ويمضى "ميللي" في وصفه قائلاً "وبالخرطوم عدة منازل من أشهرها مقر الحاكم بمكاتبه، وبيت الحكومة القديم، وكنيسة وإرسالية للكاتوليك. أما عدد المنازل التي تشتمل عليها الخرطوم فتبلغ حوالي ثلاثة آلاف منزل. وفن البناء في هذه المنازل على درجة كبيرة من البدائية. كذلك الشوارع لا يوجد بينها طرق عمومية. وأحسن المساكن هي ما يمتلكها إما موظفو الحكومة أو المقيمون الأوروبيون. على أن بعض المساكن تخلو من وسائل الرفاهية والراحة. وبالإضافة إلى الحدائق الجميلة والمناخ السار، فإنه ليس من الصعب على المرء أن يوفق في معيشته داخل بيت جدرانته من الطمي" [ص ٨٣، ١٠٨، ١٠٩].

أما عن عدد السكان في الخرطوم فيقدرهم الرحالة "ميللي" وقت زيارته لها عام (١٨٥٠ / ١٨٥١م) بثلاثين ألف نسمة بما في ذلك أفراد الجيش [ص ١١٤-١١٥]. ويصفهم بقوله "إن سكان الخرطوم ينقسمون إلى مسلمين ومسيحيين ويهود. والمسلمون يمثلون الغالبية، ولهم مساجد يصلون فيها، وأما المسيحيون فيقدر عددهم بحوالي خمسين نسمة، وهم ينتمون إلى إرسالية الروم الكاثوليك، ولهم كنيسة يؤدون فيها فروض العبادة، إلى جانب مدرسة لنشر تعاليمهم الدينية وتعليم الجيل الجديد من المعتنقين لمذهبهم. وأما اليهود فعددهم حوالي اثني عشر. والجميع يعيشون جنباً إلى جنب متحابين جداً، وإن كان في بعض الأحيان يحدث أن يتبدل هذا الوفاق بتعصب أعمى. والجميع تفرض عليهم الضرائب مع قليل جداً من التحيز والمحاباة، والحكومة غير مكترسة بمصالحهم على حد سواء" [ص ١٠٩].

أما عن النشاط الصناعي في الخرطوم فقد شاهد الرحالة "ميللي" صناعة السفن التي وصفها لنا بقوله "إنه يسود كثير من النشاط في منطقة بناء السفن المجاورة، والسفن التي تصنع طويلة بوجه خاص، كما تصنع القوارب المكشوفة التي تستخدم للملاحة في النيل. وجميعها تصنع عادة من خشب النخيل، ولكنها صناعة رديئة جداً" [ص ١١١].

أما عن النشاط التجاري لأهل الخرطوم، فقد عبر عنه الرحالة "ميللي" وقت زيارته (١٨٥٠/١٨٥١م) بقوله "إن النصيب الأكبر من تجارتهم يتمثل في منتجات حداثهم وحقولهم التي يحصلون منها على إنتاج وفير" .. "والأسواق تتكون من أربعة شوارع مسقوفة، وأربعة شوارع مكشوفة. الشوارع الأولى عبارة عن الحوانيت المنظمة، وهي مملوءة بمختلف أنواع السلع والبضائع من بينها مصنوعات من مانشستر ومصنوعات من شيفلد مثل السكاكين والمقصات، وأوان فخارية من ستافورد شير. أما الشوارع المكشوفة فأغلبها عبارة عن خيام تباع فيها السنمكة وحشائش البحر ومختلف أنواع

العشب والحشيش. والتجار هنا يصدرون الصمغ والسمنكة وزيت الخروع ومقادير كبيرة من العاج إلى كرسكو بعد شحنها بطريق النيل إلى بربر" [ص ١١١].
ويعلق على النشاط التجاري في الخرطوم وقت زيارته لها، وما يمكن أن تسهم به السلع والمنتجات الإنجليزية التي من صنع بلاده في هذا النشاط فيقول "إنه في الإمكان أن تقوم تجارة أوسع في البضائع الإنجليزية أكثر مما هي عليه الآن، وهذه التجارة ينبغي أن تتوغل جنوباً في الداخل ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً. وبذلك يمكن الحصول على ربح من مقادير العاج الفخمة التي تجمع هناك، إلى جانب السلع الأخرى الثمينة التي يمكن الحصول عليها بسهولة من هذه الجهات" [ص ١١٢].

وفي موضع آخر يذكر الرحالة ميللي في كتاب رحلته "إن أحد التجار الأوروبيين في الخرطوم قال له إنه إذا قامت شركة أوروبية في هذه البلاد، فإنها سوف تجني أعظم الأرباح، كما أنه في الإمكان أن تنخفض بواسطتها أسعار الصمغ العربي والعاج وغيرها (من المنتجات والسلع السودانية) انخفاضاً كبيراً في أوروبا، ولكن عبد اللطيف باشا (الحكمدار) بإعتبار أكبر تاجر في هذه الجهات، فإنه لا يشجع المضاربة التجارية بوضع كل العراقيل في طريق المغامرين الأوروبيين" [ص ٩٣].

وفي إحدى لقاءات الرحالة "ميللي" مع لطيف باشا حكمدار السودان أفضى إليه الحكمدار بحديث تناول فيه دخل الحكومة من مديرية الخرطوم ومقدار ما يرسل إلى القاهرة سنوياً. يقول الرحالة "ميللي": "إن عبد اللطيف باشا لم يعد في آخر اجتماعاته يكتف عن سرراً عن حالة البلاد، إذ صرح بأنه يدفع جميع نفقات مديرية الخرطوم، وأنه إلى جانب ذلك يرسل سنوياً إلى القاهرة من ثمانية عشر إلى عشرين كيساً (حوالي تسعين إلى مائة ألف جنيه)، وأضاف إلى ذلك أن البدو العراة يملكون مائة ألف ثور لا يقبل واحداً من هذه الماشية" [ص ١٢١]. وقد علق الرحالة "ميللي" على تصريحات الحكمدار لطيف باشا "بأنها تشير الدهشة والفرح، وأنه لم يحاول أن يناقشه في مثل هذه التقديرات واكتفى بأن أمضى بقية الوقت معه في السمر السار" [ص ١١١].

وصف مدينة بربر (عام ١٨٥٠ / ١٨٥١):

يصف الرحالة "ميللي" مدينة بربر عاصمة إقليم بربر وقت زيارته عام (١٨٥٠ / ١٨٥١ م) "بأنها تشبه كثيراً جميع العواصم الأخرى في الشرق. بيد أنها أكبر مدينة في بلاد النوبة، ويقدر عدد سكانها بحوالي ثمانية آلاف نسمة، ولكن من الصعب تحديد عدد السكان بالضبط، بالنظر إلى أن الأهالي لا يدلون بأعدادهم كاملة للحكومة، اعتقاداً منهم بأن كل من تسجله الحكومة في سجلاتها معناه أنه أدرج في قوائم القرعة العسكرية (التجنيد) أو الضرائب" [ص ١٤٧].

(٨) نسديم مفار (دكتور) البكباشي المصري سليم قبطان والكشف عن منابع النيل (القاهرة، عام ١٩٦٠، ص ٩٩ - ١٢٠)

ويضيف الرحالة "ميللى" إلى ذلك "أن السكان فى بربر فى تناقص مستمر، وهم مع ذلك مستمرين فى دفع نفس الضريبة التى كانت مقررة فى عهد محمد على، بالرغم من أن أعداداً منهم نزحت إلى الصحراء. بيد أن الباقيين يدفعون عن أولئك النازحين الذين لا يدفعون. كذلك إذا كان لأحدهم جار مفلس فعليه أن يدفع عنه الضريبة المقررة عليه، لأن شيخ القرية مفروض عليه أن يورد لحاكم الإقليم مقدار الضريبة المقررة سنوياً بالتمام" [ص ١٤٧].

ويعلق الرحالة "ميللى" على ذلك بقوله "إن الظلم والاستبداد الذى يلاقيه المواطنون البؤساء إنما هو بوجه خاص من رئيس قريتهم، فالسلطة التى يمارسها هؤلاء الحكام الصغار واسعة، فهم إذا أحسوا بكراهية نحو أى شخص تحت حكمهم، أخذوا يسخرون من ابنه الأكبر. وبذلك لا تعوزهم الحيل فى إذلاله. وهم دائماً يتبعون وسائل الابتزاز والاعتصاب" [ص ١٤٨].

ويقارن الرحالة ميللى هذا النظام فى حكم القرى فى بربر (والسودان عموماً) تحت حكم الإدارة المصرية بنظام حكم القرى فى مصر العليا ومصر السفلى فيقول "والحكومة المركزية أخذت تستغنى تدريجياً عن الشيوخ حكام القرى فى مصر العليا. وأما فى مصر السفلى فقد أصبحت الأداة الحكومية (السلطة) كلها تقريباً فى يدها. وهى خطوة لا يمكن أن تطبق إلى أبعد من ذلك" [ص ١٤٨].

وفى موضع آخر من الكتاب يتحدث الرحالة "ميللى" عن شدة وطأة الضرائب على سكان القرى فى إقليم بربر، وتأثيرها السيئ، على توزيع السكان فى الإقليم، وانخفاض الإنتاج الزراعى هناك على الرغم مما تمتاز به التربة من ارتفاع خصوبتها. يقول الرحالة "ميللى" "إنه يوجد فى إقليم بربر قرى لا حصر لها، ولكن عدد السكان بالنسبة لكثرة القرى ضعيف جداً، فنصف المنازل غير مسكون. ويقال إن السبب هو ثقل الضرائب. فمن هذا الإقليم الصغير إقليم بربر تستلم حكومة القاهرة ستة آلاف كيس سنوياً. وفى هذه المنطقة ذات الخصوبة المرتفعة لا يوجد أكثر من خمسة آلاف شخص فى مقدورهم دفع الضريبة. وهم يتعاونون جميعاً على أداء هذا المبلغ. وبذلك يبلغ متوسط ما يجب على الواحد منهم أن يدفعه ستة جنيهات. [ص ٤٠].

ويستطرد الرحالة "ميللى" قائلاً "ونتيجة لذلك أصبحت شواطئ النهر لمسافة أميال وأميال تترك دون زراعة، حيث أصبحت الصحراء تعج بالعرب الذين يفضلون شغف العيش فى هذه الوديان القاحلة المظلمة (عن السكنى فى القرى). مع ملاحظة أن ربع الضريبة فقط يدفع نقداً، والباقي يؤخذ من المحصول الذى تحصل عليه الحكومة بأنسب الأسعار" [ص ١٨٢].

ويصف الرحالة "ميللى" المنازل فى بربر "بأن أغلبها مبنية من الطوب الجاف، وإن كان الأمر لا يخلو من وجود منازل مبنية بالطوب الأحمر التى يقطنها المواطنون البارزون" [ص ١٥٠]. وعن النشاط التجارى فى بربر يقول الرحالة "ميللى": "إن الأسواق

عبارة عن شوارع مزدحمة توجد بها الخيام المفتوحة التي تعرض فيها المشتريات والمبيعات مثل الحنطة والقطن، أو معدات الإبل، أو منتجات البلاد الواقعة في العروض الشمالية" [ص ١٥٠].

وهناك مدن وقرى أخرى سودانية أقل أهمية وصفها الرحالة "ميللي" من خلال زيارته لها. وقد جاءت في أماكن متفرقة من كتاب رحلته وكان وصفه لها موجزاً. فقد وصف كرسكو "بأنها أول مدينة نوبية يقابلها المسافر إلى السودان، وهى عبارة عن مجموعة أكواخ مبنية من الطمي" [ص ٢٣٧]. ووصف "أبو حمد" التي تصل الخرطوم بكرسكو "بأنها عبارة عن عدد قليل من المنازل التي نصفها تقطنه الفيران والحمام" [ص ١٩٩]. كما وصف "دير حامد" بأنها قرية كبيرة في بلاد النوبة تشتهر بالبلح الذي يترك بعضه على النخيل ليجف فيصبح صلباً جافاً لا تتوافر فيه حلاوة البلح العادى، وهو أحسن طعاماً. وأما البعض الآخر فعندما ينضج يوضع في جرات [ص ٣٢].

أما وادى حلفا فيصفها بقوله "إن الناظر إلى وادى حلفا على الخرائط يتوقع أن يجدها مدينة كبيرة أو على الأقل مكان على جانب من الأهمية، ولكن في الحقيقة لا تخرج عن كونها مدينة مصرية متواضعة يبلغ عدد سكانها حوالى ثلثمائة نسمة".

وفى إقليم عطبرة لفت انتباه الرحالة "ميللي" ظاهرة غريبة لم يشهدها أو يسمع عنها من قبل فى وطنه انجلترا أو فى بلاد الشرق الأخرى التي زارها فى مصر وسوريا، فقد اعتادت أفراس النهر أن تخرج بكثرة من نهر العطبرة إلى حقول الحنطة والقول المجاورة لتمشى عليها وتدوس المحاصيل بأقدامها، وتعيث فيها فساداً. وهى تكاد لا ترى بالنهار، وإنما تلجأ ليلاً بأعدادها إلى الجزر التي تقع فى النهر، حيث تستنشق الهواء، ثم تتدحرج فى حقول البرسيم واللوبياء" [ص ١٤٢]. ويضيف الرحالة "ميللي" إلى ذلك "أنها من أجل ذلك فهى مكروهة من الأهالى الذين يسمعون صوتها الغريب، بينما تتلف وتخرّب ممتلكات أحد المواطنين البؤساء الذى يبدو فى هذه الحالة متكاسلاً، فلا يسرع إلى اتخاذ الإجراءات العاجلة لإرهابها، ربما اعتقاداً منه أن هذه إرادة الله، أو لأنه كاره بعض الشئ، الخروج فى الظلام" [ص ١٤٢]. ويستطرد الرحالة "ميللي" قائلاً "إن أهالى جزيرة على مسافة جنوب بربر طلبوا (عندما كان هو فى الخرطوم) من الحاكم أن يمددهم بقوات لإخراج هذه الحيوانات فأرسل مائة جندي لصيدها" [ص ١٤٢]. ويعلق الرحالة "ميللي" على ذلك بقوله "إن قنص هذه الحيوانات على يد قوات الحكومة لهو أكثر تسلية لها مما تفعله ضد قبائل الشلك جنوب كردفان" [ص ١٤٣].

المصدر الأصلي للبحث

Melly, G., Khartom and the Blue and White Niles (2vols.), London, 1851.

رقم الإيداع ١٩٩٦ / ٩٣٢٥
الترقيم الدولي I.S.B.N.
977 - 5508 - 10 - X



في كتابه مع فقهه في التاريخ، وهو كتابه الذي ألفه في سنة ١٩٥٨م.

في كتابه عام ١٩٥٦م، وهو كتابه الذي ألفه في سنة ١٩٥٦م، وهو كتابه الذي ألفه في سنة ١٩٥٦م.

في كتابه الذي ألفه في سنة ١٩٥٩م، وهو كتابه الذي ألفه في سنة ١٩٥٩م، وهو كتابه الذي ألفه في سنة ١٩٥٩م.

في كتابه الذي ألفه في سنة ١٨٦١ - ١٨٤٨م.

في كتابه الذي ألفه في سنة ١٩٦٠م، وهو كتابه الذي ألفه في سنة ١٩٦٠م، وهو كتابه الذي ألفه في سنة ١٩٦٠م.

في كتابه الذي ألفه في سنة ١٩٦١م، وهو كتابه الذي ألفه في سنة ١٩٦١م، وهو كتابه الذي ألفه في سنة ١٩٦١م.

التاسع عشر

(١) البرهان

(٢) جون برون

(٣) برون

في عام ١٩٨٢م، وهو كتابه الذي ألفه في سنة ١٩٨٢م، وهو كتابه الذي ألفه في سنة ١٩٨٢م.

في كتابه الذي ألفه في سنة ١٨٧١ - ١٨٥٠م.

في كتابه الذي ألفه في سنة ١٩٩٢م، وهو كتابه الذي ألفه في سنة ١٩٩٢م، وهو كتابه الذي ألفه في سنة ١٩٩٢م.

المقالات والبحوث التاريخية وتاريخه من القرنين التاسع والعاشر.